أ. د. عبـد الله لخلوفـي

الحـداثـــة والإعــلام

الطبعة الأولــى 2012

مقدمـــة

أصبح شعار الحداثة يحتل حيزا كبيرا في إعلامنا السمعي والبصري والمقروء، خاصة منذ بداية القرن الواحد والعشرين. كما أن هذا الشعار اقترن في إعلامنا، خلال هذه الفترة، بشعاري الحكامة ومحاربة الهشاشة، وهو ما يوحي للمتتبع لأحوالنا أننا، كمغاربة، حسمنا أمرنا وحددنا وجهتنا للعمل بجد على تحديث المجتمع وتطويره، في كل الميادين وعلى كل المستويات، لإخراج البلاد من براثن التخلف والانحطاط، والسير بها قدما على طريق التقدم والرقي. نعم، فما دام شعار الحداثة الذي رفعناه مقرون في إعلامنا ومقترن بشعاري الحكامة ومحاربة الهشاشة، فلا يمكننا إذن إلا أن نطمئن على حاضرنا ومستقبلنا ومستقبل أبنائه، ومستقبل المجتمع ككل؛ فقطار الإصلاح الحداثي لن يزيغ عن سكته مادامت مثبتة ومؤمنة بسياج الحكامة.

ومن المعلوم بالممارسة أن التنزيل الإعلامي للشعارات على أرض الواقع يمثل المرآة العاكسة لما يراد بها في الحقيقة وفي واقع الأمر، أي ما يراد عمليا من هذه الشعارات. إذن، يبقى الواقع وما يعج به من الوقائع هو الحاكم على أصالة الشعار والمؤشر على صدقه أو زيفه؛ وعليه، فلننظر هل شعارات الحداثة التي تم رفعها أدت إلى إصلاح أحوال الناس، بحيث انتفت مظاهر التوتر ومشاهد الاضطرابات والقلاقل الاجتماعية مؤشرة على تقدم البلاد وازدهارها، أم أن شيئا من هذا لم يحدث.

والمتتبع لإعلامنا الذي يردد صباح مساء هذه الشعارات، ويشد الأنظار إليها ليل نهار، لا بد أن يكون قد حفظها ظهرا عن قلب واستساغها، بحيث أصبح كل مصطلح من هذه المصطلحات يعني في

مخيلته كل ما علق بها من صور حية ومشاهد اقترنت بتنزيله على أرض الواقع وصاحبت تصريفه لأفعال ومعاملات وتصرفات. فالصور والمشاهد المرتبطة بتنزيل كل مصطلح على أرض الواقع وتصريفه لوقائع، تمثل التعريف العملي والواقعي، المحسوس والملموس، لكل شعار يتم رفعه والإدمان عليه. فلا يكفي الوقوف عند المفهوم اللغوي ولا المفهوم الاصطلاحي لكل شعار للحكم عليه، فلا بد من النظر إلى الوقائع على أرض الواقع؛ نعم، يجب التريث حتى يتم تصريف الشعار إلى أفعال للنظر كيف يتم التعامل معه. نعم، يجب النظر هل يتم تنزيله على أرض الواقع صورة طبق الأصل للمعنى اللغوي والاصطلاحي، أم بطريقة مغايرة، وإلى أي حد هي مغايرة لهذا المعنى؟ ففي المجتمعات التي يعمل أفرادها بآليات صناعة التقدم، يتم تحري الدقة في اختيار الشعار الذي يراد رفعه حتى تكون النتائج التي يتم تحقيقها ملائمة ومنسجمة مع الأهداف المسطرة المرجوة (الشعار). نعم، لا يجب أبدا تشويه الشعارات حتى لا ينتهي الأمر بفقدان الناس الثقة فيما يقال لهم فيصابوا بالإحباط المولد للتوترات والاضطرابات الاجتماعية والسياسية. بيد أن المجتمعات التي تعمل بمنظومة ثقافية متخلفة، وعقليات صانعة للتخلف، تعمل هي كذلك على اختيار الشعار، وقد يكون هو نفس الشعار المرفوع من طرف من يتوخون صناعة التقدم، لكن تصريفه على أرض الواقع يظهره بملامح مشوهة، تفرغ المفهوم اللغوي والاصطلاحي للشعار من محتواه. إذن، فقد يكون المرء أمام نفس الشعار، لكن بصورتين متناقضتين تماما وقت تصريفه وتنزيله على أرض الواقع؛ صورة بألوان طيف المنظومة الثقافية لمن يتطلعون للتقدم ويعملون بآلياته، وصورة بألوان

طيف المنظومة الثقافية لمن يمنون أنفسهم بالتقدم وهم يعملون بآليات صناعة التخلف.
كأستاذ باحث في ميدان العلوم، سأعمل، متسلحا بالمنهجية العلمية السليمة، على إلقاء الضوء الكاشف الذي يمكن من توضيح العلاقة بين مؤسسة الإعلام والحداثة التي يراد لها أن تطال كل مناحي الحياة الاجتماعية. سأعمل بالخصوص على توضيح التأثير العميق للإعلام التلفزيوني على عقليات الناس وتصرفاتهم، وما يترتب عن ذلك من آثار عكسية أسست للهشاشة الاجتماعية بدلا من العمل على تفعيل شعاري الحداثة والحكامة. كما سأعمل على توضيح أن الحكامة تقتضي ربط المجتمع بأصوله الحضارية والثقافية إذا ما أريد له أن يصبح حداثيا حداثة حقيقية تنقله نقلة نوعية، بدل العمل على التنكر لها ومحاولة طمس معالمها. من يتنكر لهويته يشبه الغراب في المخيلة الشعبية، بحيث يعتقد الناس أن هذا الطائر البائس افتتن بمشية الحمامة وهو ما جعله يتنكر لمشيته، فكانت النتيجة أنه أضاع الاثنين، فلا هو تمكن من المشي كالحمامة ولا هو حافظ على مشيته.
وفي مقابل الهشاشة الإعلامية التي تؤسس لثقافة دخيلة منحطة والتنكر لثوابتنا الحضارية الخالدة شهد المغرب، منذ بداية الألفية الثالثة، زخما تحديثيا للبنية التحتية على مستوى الشبكة الطرقية (الطرق السيارة) والموانئ والمطارات وكذا ما عرفه الشمال المغربي من نقلة نوعية متقدمة تضاهي ما يوجد على الضفة الشمالية للأبيض المتوسط. يا ليت منظومتنا التربوية والتعليمية ومنظومتنا الإعلامية عرفتا نفس النقلة النوعية التي عرفتها البنية التحية للبلاد التي سهر على انجازها عاهل البلاد بنفسه. فأين هم الباحثون والمفكرون والدارسون والمنظرون أصحاب الاختصاص ليعملوا على التأسيس للإصلاح الفعلي والفعال

لهاتين المنظومتين الحيويتين لتتحولا إلى محركين من المحركات النفاثة القوية المعدة بمواصفات تمكن من الاستفادة من البنية التحتية المحدَّثة وتعمل على تفعيلها تفعيلا ملائما يمكن من انتشال البنية البشرية المحطمة من المستنقع الثقافي الملوث الآسن الذي غرقت فيه، في وقتنا الحاضر، بسبب انسداد الأفق إلى حد انعدام الرؤيا. نعم، إن العمل على إصلاح المنظومة التربوية وكذا المنظومة الإعلامية إصلاحا منهجيا، ينهل من المخزون الحضاري للفرد المغربي، يعد كفيلا بنقل العنصر البشري المعطل إلى آفاق واعدة بالحيوية، حيث أوراش البناء والتشييد الفعالة تعم المدينة والبادية، والسهل والجبل. لا بد من هذين المحركين النفاثين (التربية والإعلام) للعمل على نقل العنصر البشري إلى فضاء حداثة نوعية رحب، بالمواصفات الحداثية والتحديثية الحقيقة، حيث يتم العمل على إعادة ترميم البنية التحتية الفكرية والثقافية المعاصرة للفرد المغربي لجعلها قابلة للاستفادة، كما يجب، من تربتنا الحضارية الخصبة كشرط لا مناص منه، ولا حياد عنه، إن نحن أردنا فعلا تحديث البلاد تحديثا علميا شاملا، تحديث الدول المتقدمة. فلا يعقل، مثلا، أن نترك المنظومة الثقافية الفوضوية الحالية للمغربي تزداد انحطاطا مع مرور الزمن، إلى الحد الذي أصبح معه لا يحسن حتى استعمال الطرق السيارة التي أصبحت السياقة فوقها لا تخضع لأية ضوابط[1]. فمن أبجديات الحكامة ومن وصفات محاربة الهشاشة الفعالة، كمثال، أن نعمل على تحديث تعاملنا مع قانون السير على شبكة الطرق السيارة الوطنية المحْدَثة حتى تبدو

---

[1]- انظر كتابنا: آليات صناعة التخلف، وقفة صريحة مع الذات

مكونات المشهد التحديثي متناسقة فيما بينها. فلا بد بداية من العمل بكل الوسائل والإمكانيات على محاربة هشاشة البنية البشرية كشرط أساسي للاستفادة كما يجب من تحديث البنية التحتية التجهيزية (طرقات، موانئ، مطارات، فضاءات سياحية وغيرها). فلا بد من العنصر البشري المتعلم الكفء لرفع التحديات في وجه كل أنماط الهشاشة وأشكال التخلف.

المصطلح والمخزون الثقافـي

لمعرفة تأثير المخزون الثقافي والعقليات السائدة، أي الواقع المعيش، في مفهوم مصطلح ما وحمولته، بعيدا عن معناه اللغوي والاصطلاحي، سأعيد الاستشهاد بقصة ذلك الفرنسي مع مصطلح "وخّ" الذي أصبح أحد المكونات البارزة لمشهدنا اللغوي اليومي كمغاربة.

تحكي القصة أن فرنسيا متقدما في السن عاد إلى بلاده بعدما قضى بالمغرب عمرا طويلا، خلال فترة الاستعمار وفيما بعد، في عهد الاستقلال. عند عودته إلى فرنسا طلب منه أحد الصحافيين أن يعرّف له من هو المغربي في كلمتين فقط، ما دام قد تعرف على المغاربة جيدا، عن قرب. أجاب المسن الصحافي السائل أنه سيعرّف له المغربي في كلمة واحدة، مكونة من حرفين لا أكثر. قال له أنه عندما ذهب إلى المغرب لأول مرة، وكان يجتمع بمسؤول ما أو أي أحد من أفراد المجتمع، ثم يتفقون على أمر ما، كان يقال له *"وخّ"*، *"داكور"* (d'accord)، وهو ما جعله يظن يقينا أن *"وخ"* تعني *"داكور"*، أي متفقين. لكن، يقول أنه مع مرور الوقت اكتشف أن *"وخ"* لا تعني شيئا، لأنه لا أحد يلتزم بما قطعه على نفسه بقوله *"وخّ"*، *"داكور"*. إلا أنه، يقول، كان محظوظا، حينما تمكن فيما بعد، من تعلم اللغة العربية حتى الإتقان، وهو الأمر الذي شجعه على البحث، كما قال، عن أصل مصطلح *"وخ"* ومعناه الحقيقي. يقول أنه توصل إلى أن هذا المصطلح مكون من حرفي البداية لكلمتين أخريتين هما: *"والو"*، *"خاوي"*؛ وعليه فإن *"وخ"* تعني "و" *والو*، و*"خ" خاوي*. ثم استطرد قائلا للصحافي، *"وَخَّ"* هو تعريفي للمغربي، كلمة من حرفين فقط.

سواء أكانت هذه القصة حقيقية، أو مجرد نكتة، فإن طعمها ذو مذاق مر، ووقعها شديد على الأنفس الأبية والضمائر الحية. قصة مصطلح "وخ" لن تعني قطعا أي شيء يذكر عند من اشتق حروفها من كلمتي "والو" "خاوي" من حيث لا يدري، أو عند من أفرغها من محتواها وتعوّد على ترديدها من دون أن تعني في ذهنه ومخيلته شيئا. على النقيض من هذا، فإنها تعد ذات وقع شديد على النفس وعلى وجدان كل من لا يقبل التعايش ضمن منظومة ثقافية تفرغ المفاهيم والمصطلحات من محتواها وتلبسها لباسات وألبسة مشوهة. فالحمولة الثقافية لهذه القصة تُعدّ ذات وقع شديد، يصعب على كل من يحترم نفسه، كإنسان قويم سليم، تقبلها أو القبول بالعيش في ظل المنظومة الثقافية التي أنتجتها وتعمل على تجدرها في المجتمع. وعليه، من كان منا يريد أن ينظر إلى أحوالنا بعين النقد البناء والمكاشفة الصريحة، لا بعين الرضا عن النفس، واستحسان القبيح، فإن هذه القصة تعنيه عن قرب، فهي تختزل حقيقة الواقع الثقافي الأليم الذي عملنا على تثبيت معالمه بتصرفاتنا ومعاملاتنا المنحطة، المثبتة لكل أنماط التخلف والعمل على تفعيل آليات صناعته.

إن قصة مصطلح *"وخّ"* تمثل عنوانا لثقافة تفرغ ما يقال من كلام وأقوال وما يَسن من قوانين ومن تشريعات من محتواها ودلالاتها ومن معانيها اللغوية والاصطلاحية، وتنحرف بالتصرفات والمعاملات عن سكتها وتُخل بأدبياتها. قصة "وخ" عنوان لثقافة لا تعرف للمواعيد والالتزام بالكلمة التي يقطعها أحدنا على نفسه سبيلا، ثقافة لا تعطي لعامل الوقت أية قيمة وأية أهمية، ثقافة لا تنضبط بأية ضوابط في كل مناحي الحياة اليومية. إن *"وخّ"* كمصطلح مقتضب لعبارتي *"والو، خاوي"*، لا تنحصر فقط في عدم الانضباط في المواعيد والالتزام بما

يقطعه أحدنا على نفسه، بل أصبحت عنوانا رئيسيا لانفصام القول عن الفعل، والمظهر عن الجوهر، والظاهر عن الباطن، في كل ميادين الحياة اليومية، وعلى كل المستويات. والأدهى والأمرّ، بهذا الخصوص، هو أن يصبح أفراد المجتمع، مع مرور الوقت، مفتقدين للثقة في كل ما قد يقال لهم، مكذبين له جملة وتفصيلا، حتى وإن تعلق الأمر بالحقيقة في بعض الأحيان. النظرة للأمور بهذه السلبية المطبقة تمثل نزعة متطرفة تهدد سلامة المجتمع وأمنه وأمانه.

المفردات والكتابات في زمن الحداثة لا تعني شيئا

تم تعليق لا فتة على المداخل الرئيسية لمؤسسات التعليم الثانوي، مكتوب عليها: *"يمنع منعا كليا إدخال الهاتف النقال أو الحاسوب المحمول أو لوحة الكترونية إلى فضاء المركز. القرار الوزاري الصادر بالجريدة الرسمية عدد 6053 بتاريخ 04 يونيو 2012"*. تم تعليق هذه اللافتة في إطار خطة وزارة التربية الوطنية لمحاربة الغش في امتحانات الباكالوريا. شاهدت إحدى هذه اللافتات خفاقة على مدخل إحدى الثانويات التي تم نشر ما حدث فيها من استعمال مكثف لأجهزة الاتصال المتطورة جهرة (على عينك آ بن عدي، كما يقال) على اليوتوب. وقد أجملت إحدى المدرسات (المكونة لطاقم الحراسة) القول والصورة بقولها *"ما يمكن ليش نغامر بحياتي، يجيبوا ليهم صحاب السلم 11 يحرسوهم"* (لا يمكنني أن أغامر بحياتي، فليأتوا لهم بأصحاب السلم 11 ليحرسوهم). جواب يجمل كل مفردات حداثة الألفية الثالثة التي نتغنى بها، لكن لن أتوقف أكثر بخصوص هذا الجانب المريب في هذا الأمر المتعلق بما تعرفه منظومتنا التعليمية من

اختلالات واضطرابات تهدد سرحها بالانهيار المدوي[1] في زمن نتغنى فيه بتبني نهج الحداثة ومحاربة الهشاشة.

في خارج هذه المؤسسة التربوية، اصطفت السيارات المجهزة بأجهزة الاتصال المتطورة على جانبي الشارع، حيث عمد من هم بداخلها على إرسال الإجابات لمن يهمه الأمر داخل الأقسام. وكما هو معلوم، فقد تم تسريب مواضيع الامتحان لليوم الأول على اليوتوب خلال الدقائق الأولى لانطلاق ما يسمى بالامتحان الذي لم يعد أحد يهان عند اجتيازه، فالكل أصبح معززا ومكرما، "الله يجعل البركة في أجهزة الاتصال المتطورة" التي حطمت الحواجز بين مكونات المجتمع .

إنها بضعة جُمل تُجمل بعض المشاهد والصور الكافية لتكوين فكرة كاملة، شاملة، عما آلت إليه الأمور في مجتمعنا من ترد لا يقف عند حد معقول. يتعلق الأمر بمنظومة شاملة، متكاملة، من مفردات الهشاشة والانحطاط، المتمثلة في سيادة ثقافة الغش وفي تجاهل مسميات القانون وازدرائها وفي الاستهتار بالمهام والمسؤوليات. إنها بضعة جمل كافية لإعطاء صورة متكاملة تجعل كل واحد يستنتج من دون عناء ومن دون تردد أن هناك منظومة تعليمية جد متدهورة، استشرى فيها الفساد في كل الميادين وعلى كل المستويات وفي كل أطوار التعليم، وأن هناك قوانين تـُسن لم يعد أحد يعيرها أي اهتمام، وهي استنتاجات كافية على الحكم على المنظومة الثقافية السائدة بأنها بلغت حدا من التردي ينذر بالخطر الداهم.

---

[1]- انظر كتبنا: - التربية والتعليم وثقافة مجتمع، اختلالات ومعاطب: صرخة مغربي
- التعليم بين الكفايات والإدماج، من كرة القدم إلى نظرية داروين
- الهدر اجامعي

والسؤال الذي يداهم كل من لازال في دماغه شيء من المادة الرمادية، وفي ضميره وميض من الحياة، هو ما محل شعارات الحداثة والحكامة ومحاربة الهشاشة من الإعراب بالنسبة للمنظومة التعليمية التي تعد القلب النابض للمجتمع؟ إن لم تكن منظومة بخطورة المنظومة التربوية والتعليمة للبلاد هي من يجب أن تحظى بالعناية القصوى، من حيث تخصيصها بنهج الحداثة (المتغنى به) ومنهجها، مع العمل على تفعيل مفردات الحكامة (التي لا يتوقف إعلامنا عن ترديدها) لمحاربة كل أوجه وأنماط الهشاشة (المصطلح الذي يشنف أسماعنا صباح مساء)، فما هي الميادين الحيوية التي تحظى بتحديث الحداثة وتحكيم الحكامة ومحاربة الهشاشة؟ أم أن ما يحدث على مستوى المنظومة التربوية والتعليمية هو نتاج قيم الحداثة التي تم تبنيها كنهج لعصرنة المجتمع وإخراجه من دائرة التخلف؟ وإذا كانت هذه هي الحداثة التي يراد لها أن تسود في مجتمعنا، فهل تستحق أن تحاط بالهالة الإعلامية التي أحيطت بها، للتسويق لها كمنظومة ثقافية جديدة، متطورة تخرجنا إيهاما من براثن التخلف وتقذف بنا في عالم الأوهام والأحلام؟ وإذا تبين أن النهج الحداثي الذي تم تبنيه هو المتسبب في ما آلت إليه الأمور من تدهور حاد على صعيد المنظومة التربوية والتعليمية، أيعقل أن نستمر في التمسك به لإصلاح أحوال مجتمعنا؟ ثم، لقد تبين بالدليل أن الأمور بدأت تسوء باضطراد منذ أن بدأ التركيز على نهج الحداثة وتحكيم الحكامة والعمل على محاربة الهشاشة برفع شعارات محاربة الهدر المدرسي وتكافؤ الفرص ومدرسة النجاح وما إلى ذلك. فأين يكمن الخلل؟ هل في الفهم القاصر لمفهوم الحداثة، الذي جعل من عملوا على تنزيلها على أرض الواقع ينظرون إليها من زاوية أيديولوجية غرابية ضيقة؟ وما دام قد تبين أن الحداثة من هذا المنظور

لم تزد الأوضاع إلا ترديا، ألا يفترض أن يتم التراجع عنها، عملا بنهج الغربيين الذين يحلو لنا تقليدهم تقليد الغراب للحمامة في التفاهات، بينما نتمسك بكل ما هو سلبي تمسك الأعمى بالعصا (كما يقال) فيما يتعلق بالأساسيات.

فكما هو معلوم، فقد صادق الغربيون سنة 1999على المادة 2 من اتفاقية مكافحة التمييز في مجال التعليم التي اعتمدتها اليونسكو في 14 ديسمبر 1960، والتي تنص (المادة 2) على أن إنشاء أنظمة أو مؤسسات تعليمية غير مختلطة أو المحافظة عليها لا تعتبر تمييزية[1]. لم يصادقوا على هذه المادة بداية، بالرغم من أنها لا تتعارض مع اتفاقية محاربة التمييز في مجال التعليم، لكن لما تبين لهم أنهم جنوا على منظومتهم التربوية والتعليمية، وعلى مجتمعاتهم تبعا لذلك، فقد بادروا إلى التصديق عليها سنة 1999 وبدؤوا بالرجوع تدريجيا إلى نظام التعليم الغير المختلط الذي أثبت جدارته في إعادة الانضباط للأقسام والفعالية في التعلم والتكوين. فحتى الحركات النسائية المتعصبة في العالم الغربي تبنت فكرة التفريق بين الذكور والإناث في المؤسسات التعليمية بعدما تبين لها بجلاء تام، الجدوى من إعادة الاعتبار لهذا المسار التربوي الذي تم تجاهله مدة أربعين سنة، عرفت المنظومات التعليمية للدول تدهورا حادا على كل المستويات. فالحداثة تقتضي أن يكون الإنسان عمليا واقعيا، يعترف بالخطأ متى تبين خطره على الفرد أو المجتمع؛ فليست هناك "طابوهات" (محرمات) يجب التخلص منها حتى وإن كانت صالحة وأخرى يجب التمسك بها حتى

---

[1]- Mixité de l’enseignement et pédagogisme...illusions et désillusions

ولو تبين فسادها. إذن، إذا كان يحلو لنا تقليد الغرب في ما نظنه صالحا لنا، فمن الأولى أن نقلدهم في منهجهم العملي الواقعي الذي يقتضي تغيير أي مسار متى تبين أنه غير مأمون.
لنترك المنظومة التربوية والتعليمية بشتى أوجاعها وأسقامها وعلاقتها بالحداثة جانبا لننظر كيف هو الحال في باقي الميادين.

إفراغ المصطلحات من محتواها، حكامة أم هشاشة؟

يقول أبو غفران (منتديات دفاتر نت التربوية التعليمية المغربية) عن الحكامة: *"هي أداة لضبط وتوجيه وتسيير التوجهات الاستراتيجية الكبرى للمؤسسة، يمكن تطبيقها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فهي أسلوب جديد في التدبير يدعم تذويب الحدود وتشجيع التشارك بين المسيرين والمساهمين. كما أنها تتوخى حسن التنظيم وتوزيع المسؤوليات وصقل القدرات ودعم التواصل داخليا وخارجيا. والحكامة أداة لتأهيل الجامعة والمدرسة المغربيتين للدخول في التنافسية الوطنية والدولية والاستجابة للمهام الرئيسية التي أناطها بها القانون. ويشمل المصطلح كذلك مفاهيم: الشفافية، التزويد بالمعلومات، حقوق وواجبات المساهمين ومسؤوليات المسيرين، الخ"*. *كما أن الحكامة تعني "حسن التدبير، الإشراك، التشارك، التوافق، الفعالية وجودة الخدمات والتواصل وأخيرا الرؤية الاستراتيجية"*.
فإذا كانت هذه المداخل والمسالك والتقعيدات والضوابط والتوجهات هي ما نعنيه من تبنينا لشعار الحكامة كسياج ضابط للمسار الحداثي الذي نسلكه، فإن حالنا سيؤرق العدو ويغيظه، ويسر الصديق ويفرحه، بل سيسرنا نحن ويريحنا، بحيث يصلح حال البلاد فتنتفي منه عوامل التوتر الاجتماعي واضطراب أحوال الناس. لكن الخطير في الأمر، أن

يتم الإفراغ المنهجي والممنهج للشعارات المرفوعة من محتواها، بل وأن يصل الحال إلى قلبها إلى نقيضها. لكن الأخطر في إفراغ المصطلح من محتواه، وما هو أدهى وأمرّ، يتجلى في إحداث رجات عنيفة في مراكز التفكير والتدبير الدماغية يؤدي حتما إلى الإخلال باتزانها وتوازنها. هذه الأعطاب تؤدي حتما إلى ارتجاجات عنيفة تضطرب من فعلها مراكز اتزان الشخصية، بحيث قد تتصدع لتنفصم (انفصام الشخصية)، فتصبح مبرقعة، مشوهة المعالم كمعطف المهرج الايطالي "أرلوكان" (manteau d'Arlequin). ثم تزداد الأمور سوءا باتساع هذه التصدعات لتكوّن شقوقا مفتوحة تنفذ من خلالها الأغبرة المسمومة التي تثيرها رياح العواصف الإعلامية الهوجاء المحلية، وتلك التي تنقلها التيارات القوية العابرة للقارات، المتنقلة عبر الغلاف الجوي العلوي. فحينما تختفي الحواجز الواقية، تنفذ هذه الرياح الهوجاء والتيارات القوية المحملة بشتى أنواع العوالق الملوثة، عبر التصدعات الكامنة في شخصية الفرد، إلى قنوات التفكير التي تفتقد للمرشحات (filtres) الضرورية، بحيث يصل بها الحال بلوغ حالة متردية متقدمة، وهو ما يزيدها إعاقة وتشوها، ليصبح الفرد، في آخر المطاف مفتقدا لبوصلة التموقع، عاجزا حتى عن تكوين أدنى فكرة عما يجب فعله ولا يجب. هاته التصدعات العميقة في الشخصية ينتج عنها اضطراب في الفهم وانقلاب في المفاهيم، يتجلى عند أفراد المجتمع في طبيعة هواجسهم ومشاغلهم وأولوياتهم، أي في طريقة تفكيرهم، بحيث تبدو للملاحظ السوي أنها لا تمس بأية صلة لا للمصلحة الشخصية المعتبرة ولا للمصلحة العامة الحقيقية.

ما محل الإعلام من الإعراب الحداثي

فيما يتعلق بالسيف ذي الحدّين الذي يتمثل في الإعلام، فمن الطبيعي أن يسوّق الإعلام الرسمي للشعار المتبنّى بكل الوسائل وبكل الطرق. فإما أن يسوّق للشعار بمفهومه الاصطلاحي المتعارف عليه من طرف الجميع، أي في انسجام بين الأهداف المسطرة والنتائج المتوخاة؛ وإما أن يسوّق له بمفهوم تتم صياغته على أرض الواقع من خلال صور ومشاهد يتوخى منها خلق عنصر بشري بمواصفات خاصة يمكن التحكم فيه عن بعد وتوجيهه الوجهة التحديثية المراد لها أن تسود. في هذه الحالة، أي الحالة الأخيرة، يتم إفراغ الشعار من محتواه، بل يتم طمس حمولته الاصطلاحية المتعارف عليها، واستبدالها بمفاهيم نمطية، يتم بلورتها على أرض الواقع من منظور أيديولوجي قاصر محض.

إن المتتبع لإعلامنا الرسمي والغير الرسمي يتبيّن له أنه يتبنّى شعار الحداثة مقرونا بشعاري الحكامة ومحاربة الهشاشة، وعليه فهو يمثل المرآة العاكسة لما يراد من رفع هذه الشعارات على أرض الواقع. فعلى وزن المثل القائل "تكلم أعرفك"، فما على من يريد تقصي حقيقة هذه الشعارات إلا أن يتتبع إعلامنا المرئي الرسمي المتمثل في قنوات "دوزيم" و "الأولى" و "ميدي سات"، ليكوّن فكرة متكاملة عن نوعية الحداثة التي يراد لها أن تترسخ في أذهان الناس وفي تصرفاتهم ومعاملاتهم، داخل البيت وفي المدرسة، في الشارع وفي أماكن العمل، في المدينة وفي البادية، الخ. إعلامنا، كالإعلام في كل دول العالم، يمثل التصريف العملي لما يراد من الشعارات التي يتم تبنيها. فإما أن يكون التنزيل متقيدا بروح المعنى الاصطلاحي للشعار، فلا شك أن البلد ينتمي إلى الدول المتقدمة أو في طريق اللحاق بها، وإما أن يكون على وزن ما تعنيه كلمة "وخّ" في مخزوننا الثقافي المعاصر، فقطعا سيكون

البلد فاقدا لبوصلة تحديد الاتجاه، ليست له فكرة واضحة المعالم عن الطريق الواجب سلوكه للخروج من براثن التخلف وبلوغ بر الأمان. بل ليست له فكرة عما آلت إليه الأوضاع من سوء في محيطه وفي تفكيره وتدبيره لشؤون حياته.

نعم، يمكن استثمار تأثير سحر الإعلام في التغيير الإيجابي للمجتمعات، وقد يسخر لتدميرها، عبر إحداث رجات عنيفة في الروابط الأسرية والاجتماعية، تؤدي إلى تصدعها وانفصامها. وما أن تتصدع حتى تبدأ في التفسخ والاضمحلال والتحلل لتحل مكانها سلوكيات دخيلة تجعل من الحداثة والعصرنة والانفتاح على الآخرين مطية لإشاعة عاداتهم وأنماط حياتهم في شكل خليط غير متجانس، بدلاً من توظيف هذه المفردات توظيفا سليما آمنا، يسهم في تقوية النسيج الاجتماعي في كل الميادين وعلى كل المستويات. من هنا يتبين بجلاء أن المؤسسات الإعلامية قد تكتسي خطورة بالغة على المجتمع إذا عهد بتسييرها إلى من لا يحسنون توظيفها في ما يجب أن توظف له، أو إلى من يعملون على توظيفها توظيفا أيديولوجيا أو ديماغوجيا أو تطبيقا لأجندة تعمل على العبث بمقومات البلاد والعباد، وما إلى ذلك من التوظيفات الضارة بالسلم الاجتماعي وأمن البلاد وأمانه على المدى المنظور والبعيد.

احتكار المعلومة من نواقض الحداثة

سبق أن كتبت[1]: "كيف لنا أن نتوخى النجاح والتقدم وتحديث المجتمع، علما أنه حتى الأساتذة الباحثون، المعول عليهم مبدئيا، يعملون هم كذلك

[1]- كتاب "آليات صناعة التخلف"

بآليات صناعة التخلف والانحطاط؟ هل يكفي رفع شعارات الحداثة الفلكلورية لإحداث اختراق يؤَمِّن لنا التحديث الفعلي للمجتمع؟ ألا يعد احتكار المعلومة وتغييبها عمن ينشدها (عن المواطن) والعمل على التعتيم عليها من أسوء مشاهد التخلف؟ كل الوسائل والإمكانيات متوفرة لإحداث ثورة معلوماتية وإعلامية حقيقة تكفينا مئونة الاجتماعات الإخبارية "المارطونية" التي تتحول إلى ميدان للتباري في القيل والقال وإضاعة الوقت. فالمعلومة التي تعد حقا مقدسا من حقوق الإنسان مغيبة تماما من مفهوم ثقافتنا، في الإدارة وفي غير الإدارة، بل في مناحي الحياة كلها. عند بني البشر الذين يصنعون التقدم، فلن تضيع وقتك في تقصي آثار المعلومة وسبلها، فهي تعترض سبيلك في كل مكان وبكل الطرق، فلن تضطر للبحث عنها وطلبها من أي أحد. أما عندنا نحن الذين عاهدنا التخلف ألا نتخلف عنه، فيعد كل واحد منا باحثا، مختصا في طلب المعلومة اللازمة والغير اللازمة، ويعد المالك لها مؤطرا للبحث لا يعطي من المعلومة إلا ما يتماشى مع الخطوط الطويلة والعريضة لمصلحته الشخصية المفترضة، كما يتوهمها. أغلب وقتنا نضيعه فيما لا طائلة منه، نعمل بحكمة *"رمانة مغمضه" "وخليه يطلع ويهبط حتى يعيا"* و*"جوع كلبك يتبعك"*. إنها ثقافة استوعبت الفرد العادي والنخبوي، وعليه فلا يحق لنا أن نتباكى وقد جعلنا منها ثقافة مغربية أصيلة تجري في عروقنا مجرى الدم، فكما يقال في موروثنا الثقافي للأجداد، *"اللي ضربتُ يدٌّ ما يبكي"*، و *"اللي عقدها بيدِّيه يحلّْها بسنِّيه"*.

وإذا ما أصبح التعتيم والتضليل وإخفاء المعلومة من مفردات العمل النقابي حتى في التعليم العالي في كثير من الأحيان، فلماذا لا يتورع أحدنا في تدخلاته وتنظيراته وشعاراته في مطالبة المسؤولين بالشفافية واحترام رأي الشعب وإعطاء المواطنين فرص التعبير عن آرائهم والإصغاء إليهم وما إلى ذلك من الخطب الرنانة؟ فحالنا تنطبق عليه إذن المقولة الحكمة "كيفما تكونوا يولى عليكم"؛ وعليه، فبدل رفع

الشعارات التي أفقدت، مع مرور الزمن، رجل الشعب العادي الثقة في نخبه، فعلى كل واحد منا أن يجلس وجها لوجه مع نفسه ليقول لها بصريح العبارة "كفى من الضحك على أذقان بعضنا البعض، ولنجرب حظنا مع المعقول والصراحة فيما نقول والاستقامة فيما نقوم به من مهام، وتوخي الواقعية فيما نرفعه من شعارات".
هل يعقل أن نعتز بأنفسنا كمغاربة وندعي الحداثة ونحن قد أصبحنا غير قادرين على تدبير حتى أمر نفاياتنا وقمامات أزبالنا والمحافظة على نظافة شوارعنا؟ هل إلى هذا الحد بلغ العقم تدبيرنا وتنظيمنا لضروريات أمورنا اليومية؟ لقد استشرت ثقافة الفوضى واللامسؤولية حتى عمت كل مناحي الحياة، فأصبحنا غير قادرين على تسيير أنفسنا وتنظيم شؤوننا حتى في أبجديات الأمور اليومية.

الوقــت لا قيمــة لــه

سبق أن كتبت[1]: "والمثير في الأمر، هو أننا لا نزداد مع مرور الزمن إلا غوصا في المستنقع الثقافي الآسن الذي عملنا على حفره وتعهدناه بالتوسعة والملء ليغمر كل مناحي الحياة رداءة وانحطاطا. كيف لنا أن نطلب بمحاسبة أنفسنا عن إضاعة الوقت وعدم الالتزام بمقتضياته وضوابطه، ونحن نرى أن الأغلبية الساحقة من أفراد المجتمع أصبح شغلهم الشاغل، وأكبر همهم، هو البحث عن أي كيفية لإضاعته والتخلص منه. فالمقاهي، على كثرتها، تعج بالشباب وغير الشباب ممن اتخذوا لهم أماكن خاصة بهم لا يفارقونها إلا ليلا، عندما تغلق هذه الأماكن أبوابها. وإذا سألت أحدهم ماذا تعمل، يجيبك أنه يضيّع الوقت: *"كنضيع الوقت"*، أو *"كنقتل الوقت"*، أو *"كندوّز الوقت"*. إنها فعلا

[1]- نفس المرجع أعلاه

وصمة عار على جبيننا كمغاربة، ندّعي العصرنة والحداثة ونحن نعمل بدون آلياتها وفي غياب لوازمها، بل نعمل بنواقضها. فبينما لم تعد أربع وعشرون ساعة كافية عند الغربيين والشرقيين (الصين الشعبية، الهند، التايوان، ماليزيا،...) على السواء، للقيام بما يجب القيام به، تضخم الوقت عند المغاربة حتى أصبحوا لا يلقون له بالا، بل إن همَّ المغربي أن يعمل على التخلص منه وتبذيره ما أمكن، وبأية طريقة وبكل الوسائل.
الشباب والكهول يملؤون المقاهي والأماكن العمومية، وكبار السن يلعبون *"الضاما"* و*"الكارطا"*، والكل منغمس في القيل والقال وكثرة *"التبركيك"*، وتتبّع أسرار الناس وعثراتهم. فلقد أضحى شأن الآخرين وأسرارهم هو ميدان التباري والتفاضل المعرفي بين أفراد مجتمعنا. فمن يعرف أكثر عن أدق خبايا وأسرار الآخرين، أصبح ينظر إليه بالإعجاب وأنه *"قافز"*، و*"على بال"*، لا تخفى عليه خافية. إنه نوع العلم والمعرفة الذي يمتلكه ويتقنه من أضاع امتلاك العلوم والمعارف والكفاءات؛ علم من افتقد البوصلة التي توجهه إلى معرفة ما ينفعه وينفع به مجتمعه، فعمل على إضاعة وقته فيما لا طائلة منه. إنه علم من صنف خاص، لا يمتلكه إلا أفراد المجتمعات *"لَمْطَوّرَة"*، التي يكفيها القليل من العمل، لأنه *"ما كيخدم غير لحمار"* (مقولة مغربية من عصير الثقافة المعاصرة)، وتتبارى في القيل والقال، غير مكترثة بتضييع الوقت، رأس مال الأمم المتطورة المتقدمة. فما أن تسأل أحدهم عن معلومة تتعلق بفلان، حتى ينطلق في الكلام: *داك الطويل، لقصير، لزعر،..، اللي كي لباس كذا كذا، واللي كيخدم في المكان الفلاني، وعندو طوموبيل أونو بيضة موديل 96، وعندو زوج ديال البنات وعندو ولد عينه حولة،..* الخ؛ تماما كما يحدث عندما تضغط على زر ابحث "للملاح كوكل" (navigateur Google) بعد إدخال الكلمة المفتاح.

كيف للمبادرة الوطنية للتنمية البشرية أن تنمي العنصر البشري وهو لا يعير للوقت، عامل التنمية والتقدم و مفتاحهما، أي اعتبار، بل أصبح يشكل له عبئا ثقيلا يعمل على التخلص منه بكل الوسائل؟ فحتى الموظفون في مكاتبهم وأماكن عملهم، تجدهم (السواد الأعظم منهم) مستغرقين في الكلام الفارغ والقيل والقال لإضاعة الوقت، أو لعب الكلمات المتقاطعة أو منغمسون في أصناف اللعب التي أصبح الحاسوب يوفرها. بل وحتى المدرسون في مؤسساتهم وأقسامهم تفنن الكثير منهم في إضاعة الوقت في الثرثرة والتنقيب عن مستجدات المطالب النقابية وما إلى ذلك من تبادل الخبرات في كل ما يفضي إلى الإخلال بالمهام والمسؤوليات. وبجانب هذه الترسانة الهائلة من وسائل إضاعة الوقت عند الشِّغِّيلة، فقد عمد الكثير من الشباب، العاطلين منهم بالخصوص، إلى تعطيل عداد الوقت في أدمغتهم، بالعمل على الخروج كلية من عالم الحس الزمني، عبر تعاطيهم لكل أنواع المخدرات و*"القرقوبي"* ومغيبات الإحساس والشعور.

إنها ظاهرة ثقافية اجتماعية، إنه مشكل عقليات، فقد يضيق المعطَّل والعاطل عن العمل درعا بطول الوقت حسيا ونفسانيا، لكن أن يعمل غير العاطل (الموظف) على التفنن في إضاعة الوقت، فإنه أمر غريب مريب. فلقد أصبح الذي يحاول القيام بواجبه ينظر إليه من زملائه بازدراء، لأنه لم يفهم أنه *"ما كيخدم غير الحمار"* في مفهومنا الثقافي الحالي. وإذا كانت عنده تطلعات معقولة للترقي في سلم تحمل المسؤولية، فقد يجد نفسه محاصرا من كل الجهات ومضايقا من طرف قتلة الوقت ومحبطي العزائم المحيطين به. وكم هي المصالح الإدارية التي أصبح فيها الضغط كله على شخص واحد (أو شخصين)، كل ذنبه أنه لم تطاوعه نفسه للركون للقيل والقال وإضاعة الوقت. فبدل أن يعمل المسؤول عن الإدارة على تشجيعه بشتى الوسائل الممكنة حتى يصبح مثلا يقتدى به، فإنه يعمل على تحميله أوزار (ما لم يقم به الآخرون من أعمال) باقي الموظفين ("العاطلين المقنعين عن العمل")، الذين لا يجرؤ

سعادته على مطالبتهم بالقيام بواجبهم. نعم، *"اللي معندو سيدو، عندو للاه"* ، وحتى إن لم تكن عنده للاه الخاصة به، فعنده للاه النقابة. فالذي لا يعمل يصبح متفوقا بامتياز في اختلاق القلاقل، مما يجعل سعادة المدير (المسؤول عموما) يحسب له ألف حساب، ويعمل كل ما في وسعه لاتقاء شره عملا بالحكمة المغربية لعصر التخلف *"كم من حاجة قضيناها بتركها وتجاهلها"*، ونزولا عند مقولة *"الله يكفيني شرٌّ"*، *"الله يجبها ليه من جها (جهة) اخرى"* .

لو أننا تعلمنا ممن عايشناهم وتعاملنا معهم، من الباحثين الأجانب (فرنسيين وغيرهم)، كما تعلم ذلك الشاب المغامر من لفقيه بن صالح من "السنيور لوبيز" في جنوب اسبانيا التي بلغها بعد أن غامر بنفسه في قوارب الموت الرهيبة، لتحولنا إلى قاطرة نفاثة كهرومغناطيسية، قادرة على جر كل عربات المجتمع المحملة بالموارد البشرية الخامة، وبالسرعة المطلوبة، في اتجاه أوراش تصنيعها كلبنات صالحة للتشييد والبناء. صاحبنا من الفقيه بن صالح شاب عادي، غير مثقف كما يبدو[1]، لكنه، استوعب الدرس بسلاسة فاتخذ القرار الصواب بدون عناء ومن غير تفلسف؛ ألا يُفترَض أن تكون الأمور بالنسبة لنا، كأساتذة باحثين وباقي المثقفين، أوضح منها عند هذا الشاب؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمتى سنأخذ القرار الصائب وننخرط في إرساء ثقافة التحديث الفعلي للمجتمع، التحديث العلمي العملي، بعيدا عن شعارات الحداثة الجوفاء والمظاهر الفولكلورية والشعارات الرنانة؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، كما يبدو لحد الآن، فما هو موقعنا من الإعراب على صعيد المنظومة الثقافية للمجتمع؟ كيف لنا بعد كل هذا أن نتفلسف ونتقعّّر ونتمعَّر في الكلام أمام ظاهرة شرود أفكار أطفالنا وشبابنا وهم يحلمون بجنة وهمية، ضبابية لا وجود لها على الأرض ولا التي وعد الله بها في

[1] - انظر كتاب "آليات صناعة التخلف، وقفة صريحة مع الذات"

السماء؟ كيف لنا أن نتفلسف وملكات شبابنا قد عُطِّلت، فانهزموا نفسانيا ونفسيا بسبب تضييع مفاتيح الجد والندية والاجتهاد في شخصيتهم. لقد عملنا (أفرادا وجماعات وعلى كل المستويات) على تشويه مفاهيم الحداثة الحقيقية المتجلية في تصرفات ومعاملات أفراد المجتمعات المتقدمة، ونتظاهر بالتباكي عليها في خطاباتنا وتنظيراتنا لنخادع أنفسنا ومن يقتفون خطانا؛ إنها محاولة هروب المرء من نفسه، من ظله، فكيف له السبيل إلى ذلك؟ فكما يقول المثل "كيف للظل أن يستقيم والغصن أعوج"؟

ضيعنا أنفسنا فأعطينا لأطفالنا جرعات مركزة من الهزيمة النفسية، عبر أسوأ ما يتصور الاقتداء به واتباعه في كل الميادين وعلى كل المستويات. فكما سنرى فيما بعد، لم نعلم أبناءنا كيف يمتلكون نواصي أسلحة الحداثة الحقيقية للمجتمع، ولم نعمل على ربطهم بماضي آبائهم وأجدادهم الساطع الرائع في كل فنون العلوم والمعارف والتمدن والتحضر، كما أصبح يشهد بها الغربيون المنصفون من قبيل ما هو معترف به بالصوت والصورة في التلفزيون الألماني في أفلام وثائقية قصيرة للباحث الألماني في ميدان التاريخ "طوماس شوتز" (Thomas Schuetz). يقول هذا الباحث في ختام الفيلم الثالث **"اعتقد بأن الثقة بالنفس في مجتمعات الثقافة الإسلامية عانت الكثير من عدم استعداد الغرب حتى يومنا هذا بالاعتراف الحقيقي بفضل إنجازات العرب والمسلمين العظيمة. حتى إلى يومنا هذا يشعر الكثير من المسلمين بعقدة التأخر أو النقص أمام الغرب لأنهم لا يعرفون انجازات أجدادهم، ولأنهم لا يعرفون أن مستوى تقدمنا اليوم في مجال علم البصريات والطب والميكانيكا وقياس الوقت، بدون اختراعات العلماء المسلمين لم يكن من الممكن أن نصل إليه"**.

فمصيبتنا أننا لا نبحث لتلبية متطلبات مجتمعنا الحاضرة والمستقبلية، ولا نبحث في ماضينا المغيب عنا لربط الأغصان والفروع بالجذور التي تمدها بالمواد المغذية الضرورية واللازمة للنمو، فأصبحنا عالة

على غيرنا وعلى أنفسنا وأضعنا حاضرنا وضببنا مستقبل أبنائنا إلى حد انعدام الرؤيا. وقبل المرور إلى المحاور الموالية لهذا الكتاب ارتأيت أن أذكر بالمشاهد المهمة في قصة شاب الفقيه بنصالح مع السينيور لوبيز، لوجاهتها ولما تحمله في طياتها من دروس تربوية وعظات بليغة. تحكي القصة أن شابا من الفقيه بنصالح باع هكتارا من الأراضي الفلاحية من بين الأربع هكتارات التي ورثها عن أبيه ليغامر بالهجرة إلى اسبانيا في قوارب الموت. نجح في مهمته وتمكن، مع مجموعة من "الحراكة"، من العمل في ضيعة السينيور لوبيز، رجل مسن شيئا ما، التي لا تتجاوز رقعتها مساحة ما باعه ليغامر بنفسه متحديا لأمواج البحر العاتية في مواجهة المجهول. لا مجال لالتقاط قسط من الراحة ولا للقيل والقال والتنكيت مع الرفاق خلال العمل (كما هو الحال عندنا)، فعين السينيور لوبيز الذي لا تفارقه "بيريته" (قبعة) لا تترك أي مجال لذلك. تفطن صاحبنا الشاب لحاله ولمآله، فبدأ يتساءل بخصوص ما حدث له وما الذي حصل حتى يتصرف كما فعل؛ أين كان عقله وماذا أصابه؟ هل هذه هي الجنة الموعودة التي زينها الإعلام في ذهنه ومخيلته حتى أصبح يحلم بها ليل نهار؟ لم يضع الوقت في التفلسف والتسويف، فقرر العودة إلى بلاده. ذهب إلى سوق ممتاز ليشتري قبعة السينيور لوبيز، ثم عمل على حجز مقعده في أول حافلة توصله إلى مسقط رأسه بالفقيه بنصالح. عاد إلى موطنه وهو عازم الأمر على تحويل الثلاث هكتارات المتبقية إلى جنة أرضية تتوسطها قبعة السينيور لوبيز المثبتة على عمود كمحفز على العمل من دون كلل ولا ملل، وللتذكير بعدم الانجرار وراء الأحلام والخيالات. نعم، كان لا بد لصاحبنا الشاب أن يغامر بنفسه في قوارب الموت ليكتشف بنفسه الآليات الحقيقية لتحديث المجتمعات عند من يعملون، بدل رفع الشعارات الرنانة.

الحداثة والحكامة ومحاربة الهشاشة

لا بد من القول بداية أن الجمع بين هذه الشعارات الثلاث وما تعنيه كمصطلحات لا يستقيم؛ فالحداثة كما ينطق بها المصطلح تجمع مبدئيا بين الحكامة كأداة من أدوات التحديث الضرورية، وبين محاربة الهشاشة كآلية من آلياته. فلن تكون هناك حداثة حقيقية من دون حكامة فعلية، ولن تكون هناك هشاشة كظاهرة تستدعي التركيز عليها إذا ما تم تسطير المسار الحداثي التحديثي للمجتمع بطريقة علمية وعملية. وعليه، فمتى تبين أن هناك ضرورة لرفع شعاري الحكامة ومحاربة الهشاشة بجانب العمل بشعار الحداثة، فاعلم أنها حداثة لا تتجاوز حقل الاستهلاك الإعلامي؛ وهو ما يعني أن الشعارات قد تم إفراغها من محتوياتها ليتم تنزيلها على أرض الواقع على غير مسمياتها. ومما يجب التوقف عنده للتأمل والتدبر، أن الدول التي تعمل على التحديث الشامل والفعلي لمجتمعاتها (ما عدا ما لا يتطلب التحديث ولا يحتمله ويتحمله)، لا تسلك نهج الشعارات المدوية إعلاميا؛ فكما يقال "من يتكلم لا يعمل، ومن يعمل لا يتكلم". فكما هو معلوم، حينما قرر اليابانيون في أواخر القرن التاسع عشر القطيعة مع التخلف واللحاق بأوروبا وأمريكا في ميدان العلوم والتقدم الصناعي، لم يُنظّروا كثيرا للأمر، ولم يرفعوا الشعارات الرنانة المدوية لمحاولة إقناع أنفسهم بما عقدوا العزم على القيام به. فلقد عملوا، بكل بساطة وبسلاسة، على بلوغ الهدف من أقصر الطرق وأسلمها، عبر سن ثلاث مبادئ، تمثل في واقع الأمر قاسما مشتركا بين كل الأمم التي تعتزم العمل بآليات صناعة التقدم.

تتجسد هذه المبادئ في: - التمسك بالإمبراطورية كإطار ضامن لوحدة البلاد وبالإمبراطور كرمز للوحدة؛ - التمسك بالديانة البوذية زيادة في توحيد اليابانيين وكغذاء روحي؛ - التمسك بالمخزون الحضاري

والمنظومة الثقافية والحفاظ عليهما (الحفاظ على الهوية، زيادة في تماسك المجتمع). فلا زالت المرأة اليابانية، حينما تريد الخروج من البيت الذي يوجد فيه زوجها، تتراجع إلى الوراء وهي منحنية إلى الإمام، كفيها بعضها على بعض، في هيأة كلها تقدير واحترام له. تقوم بهذه الطقوس من دون أدنى إحساس بالاستعباد وعدم المساواة مع الرجل، ومن دون أن تتجرأ المنظمات النسائية، المثيرة للتوترات داخل النسيج الأسري بالمجتمعات المتخلفة، على إثارة أغبرة القلاقل وأدخنة الضغائن التي تفقد أفراد المجتمع القدرة على النظر إلى أبعد من الجدران التي تحيط بهم والأزقة التي يسلكونها. فلا تعني الحداثة ترك المجتمع من دون هوية ومن دون مرجعية حضارية وثقافية، كما أنها لا تعني شطب هوية الأفراد وتشويه هوية الجنس البشري ومحاولة طمس معالمها ليصبح الأفراد عبارة عن "خردة" يتم تداولها بأبخس الأثمان. فالمفترض في الحداثة أن تعمل على التحديث الفعلي والحقيقي للمجتمع، بحيث تفتح لأفراده آفاقا واسعة للتقدم والازدهار على كل المستويات، تجعلهم يترفعون عن إثارة الأحقاد والضغائن التي تبلد التفكير وتقزّم الأفكار وتكبّل الحركة وتحد من التطلع إلى الغد الأحسن. فالأفراد في المجتمع، كالمياه في مجاريها، فإما أن تتحرك وتنساب لتصب في المحيطات فتستكمل دورتها (المائية) الرائعة، وإما أن تبقى راكدة حبيسة فضاء ضيق منغلق، فتتحول إلى مياه آسنة ملوثة، مفتقدة لخصائصها الفيزيائية (اللون، الطعم، الرائحة). فكل شيء في الكون يقوم بمهمته الطبيعية التي تجعله يتفاعل إيجابيا، حسب خصائصه وخاصياته، مع باقي المكونات ليسهم في حفظ خصائص العوالم الكونية وتثبيت معالمها. وبما أن العنصر البشري مكون فاعل من مكونات الكون، فلا يتصور أن يحيد عن دوره الطبيعي من دون أن يصبح فاسدا

كالماء الآسن، يلوّث بدل أن يطهر، يفسد بدل أن يصلح، يؤثـّـرُ فيه سلبا بدل أن يؤثـّـر في محيطه إيجابا.

لازال اليابانيون، هذا الجنس البشري الذي دوّخ العالم بانضباطه وحبه للعمل ورفع التحديات، يجلسون كما كانوا يجلسون من قبل، ويستخدمون العيدان في تناول طعامهم؛ كما لازالت المرأة تتراجع إلى الخلف من دون أن تدير ظهرها لزوجها وهي تخرج من عنده، وما إلى ذلك من الأعراف والتقاليد الضاربة جذورها في أعماق التاريخ، والتي عملوا على التمسك بها بقوة، في الوقت الذي عملوا فيه، ويعملون على التحديث الفعلي والحثيث لمجتمعهم في كل الميادين وعلى كل الواجهات. وكذلك فعلت كوريا الجنوبية وماليزيا وتركيا؛ فكل دولة من هذه الدول التي شقت طريق التحديث الفعلي لمجتمعاتها وعبّدته، حرصت كل الحرص على التمسك بهويتها الحضارية والثقافية وبتقاليدها الاجتماعية وأعرافها كنقطة انطلاق في مسيرتها التحديثية الناجحة التي ألقت بها في الواجهة كدول متقدمة أو على وشك أن تصبح كذلك.

طمس المعالم الحضارية والثقافية للمجتمعات العربية

في المقابل، عرف عالمنا العربي انتكاسة تحديثية محبطة للعزائم ومدمرة للذات بسبب محاولة الحداثيين طمس معالم مجتمعاتهم الحضارية والثقافية والتنكر لها والعمل، بدل ذلك، على تبني مظاهر قيم المجتمعات الغربية عبر التقليد الغرابي. فقد شكلت الحداثة وبالا على المجتمعات العربية، بحيث تبارى لها أيديولوجيون ديماغوجيون تعوزهم منهجية التفكير السليم، جاهلون بمرجعيتهم الحضارية، وهو الأمر الذي أفقدهم بوصلة التعرف على ماضيهم الحضاري المضيء

والتموقع بالنسبة لما يجري حولهم ولما يراد لهم. لقد تباروا في التنظير لما توهموه تحضرا وتمدنا وتحديثا للمجتمعات، وأسلموا زمام التحديث لأناس جلهم بمرجعيات عسكرية، انهمكوا في تقليد مظهر الإنسان الغربي، بينما لم يعيروا أدنى اهتمام لامتلاك ناصية العلوم والبحث العلمي كرافعة لا بديل عنها للتحديث الفعلي للمجتمعات. هذه العقليات ذات الخلفية العسكرية، لم تستورد من الغرب إلا أفكار القومية المدمرة المثيرة للقلاقل والاضطرابات، والتي تخلص منها الغربيون وألقوا بها في مزبلة التاريخ بعد أن أذاقتهم ويلات الحروب المريرة المهلكة (الحرب العالمية الأولى والثانية). ظلت مجتمعاتنا متماسكة متآلفة، لا فرق فيها بين عربي وأعجمي، ولا أبيض وأسود، كنتيجة حتمية للقيم الرفيعة لحضارتنا الإسلامية الرائدة، إلى أن جاء من عملوا على رفع شعار القومية العربية المدمر، الذي أحدث تصدعات عميقة في بنية مجتمعاتنا المتعددة الأعراق والأجناس. فبينما عمل اليابانيون على إرساء عوامل الوحدة والتوحد المقوية لمناعة المجتمع كأساس سليم لانطلاقة تحديثه، عمل منظّرونا المفتقدون للمنظار، على زرع بذور التفرقة والتشرذم؛ فلقد عملوا بالنقيض تماما لما كان يجب القيام به لتحديث المجتمعات العربية وجعلها تتوحد لتتقدم وتزدهر، بدلا من أن تتفكك عراها فتنحط وتتأخر. يا ليت هؤلاء القوم تركوا الأمة لحالها؛ فلقد عملوا، عن علم أو عن جهل، على تدمير عوامل المناعة في جسد الأمة العربية، أو إن شئتم القول الصواب، المكوّن العربي للأمة الإسلامية. فما الذي جناه القوميون العرب المتهورون (جمال عبد الناصر، صدام حسين، عائلة الأسد، القدافي، الخ) والحداثيون (وعلى رأسهم بن علي) من هذه العبثية المدمرة؟ ألم يسترع نظرهم، ويستوقف تفكيرهم أنهم يلتقطون أفكارهم القومية من مزبلة التاريخ الأوروبي،

الماضي والحديث، ليحكموا على فسادها وعدم صلاحيتها لإصلاح أحوال المجتمعات العربية؟ هل أمثال هؤلاء، الذين لا يحسنون حتى قراءة أبجديات التاريخ، ولا يدرون ما يقدمون وما يؤخرون، سيعملون على تحديث المجتمعات وجعلها تتقدم بدلا من أن تتأخر؟ كيف يمكن تحديث الأوطان بالعمل على زرع الضغينة والأحقاد بين مكونات الشعوب، وكذا بين الدول بعضها مع بعض؟ ماذا فعل الزعيم الأممي، ملك ملوك إفريقيا (كمثال)، غير زرع الفتن المدمرة فيما حوله، في المغرب والتشاد والسودان وما إلى ذلك، وتعميم الفقر والخوف على الشعب، ثم لا يتورع في الإدمان على التغني بشعار التحديث والحداثة المدغدغ للأعصاب ولأدمغة الناس إلى الحد الذي جعلهم يقبلون على الموت ولا يبالون للتخلص منه ومن فكره الظلامي بالمعنى الحقيقي.

لن أتطرق، بداية، لموضوع الحداثة من المنظور الأيديولوجي والفلسفي، كمذهب وسياق فكري ثقافي أدبي علماني، يهدف على الخصوص إلى تحرير الإنسان من قيود منظومة القيم والأخلاق والمعاملات، خاصة الدينية منها، التي يرى الحداثيون أنها تكبلهم وتحد من حرياتهم في التصرف كما يحلو لهم في حياتهم الشخصية وفي علاقتهم مع الآخرين ومع محيطهم.

سأتطرق للموضوع من باب الحمولة اللغوية لكلمة الحداثة ومعناها من حيث أنها مشتقة من التحديث (تحديث الشيء، تحديث القوانين، تحديث المجتمع)، بحيث يقال حدَّث المسؤول مرافق بنايات المؤسسة، حدَّث الحاكم القوانين المعمول بها لجعلها تساير روح العصر، حدَّث الملك مؤسسات الدولة والمنظومات المعمول بها، الخ. الحداثة مصدر لفعل حدث يحدث تحديثا، فهي تفيد العصرنة والتطور حتى من دون التفريط في القيم وفي الهوية الحضارية والثقافية المنسجمة مع روح العصر

ومتطلباته. من هذا المنظور لمفهوم الحداثة لا يمكن للمرء المنصف إلا أن يصفق لكل من يتبناها كنهج للعمل وكمنهج للسير بالمجتمع قدما نحو آفاق الرقي والازدهار الواعدة، بل لا بد من مطالبة المسيرين للشأن العام بتبني هذا النهج القويم الذي يمكّن المجتمعات من قطع أشواط التقدم والتحديث بالسرعة المطلوبة. بعد هذا التعريف المقتضب لمفهوم الحداثة، لا بد من الزيادة في التأكيد على أن تبني الحداثة الحقيقية، التي تهدف إلى النهوض الشامل المتكامل بالمجتمع، لا يقتضي، بل لا يفضي بأي حال من الأحوال إلى القطيعة مع الموروث الثقافي والحضاري القيّم والقويم للمجتمع. فكما سنرى من خلال ما سنتطرق إليه في هذا الكتاب، فإن التعاطي مع مفهوم الحداثة من المنظور الاصطلاحي الإيديولوجي الإقصائي، جعل المنادين بالتحديث يتنكرون لكل ما يمس لقيم الموروث الحضاري والثقافي للشعوب بصلة، حتى ولو كان قيما رفيعا، وهو ما أدى لإحداث دمار شامل في النسيج الاجتماعي والأسري للدول. لقد أدت الحداثة بالمفهوم الأيديولوجي إلى انتكاسة عميقة تجلت في كل الميادين وعلى كل المستويات والأصعدة بفعل التأثير السلبي العميق المدمر لدور الإعلام المرئي والمسموع والمقروء الذي تم حشده للدعاية للمنظور الأيديولوجي الذي أفرغ شعار الحداثة من محتواه الحقيقي، بل أزاغه عن مساره.

نعم، لقد تم تسخير الآلة السحرية المؤثرة للإعلام عندنا للعمل على تطويع العنصر البشري ليتم توجيهه عن بعد، وهو ما أفضى بالكثيرين إلى الانسلاخ، بل التمرد على المخزون الحضاري والثقافي الذي ضمن للمغاربة هويتهم وخصوصياتهم وتلاحمهم واستقرارهم على مر العصور، طيلة أربعة عشر قرنا مضت من الزمان. فبدل أن تُسخّر الآلة الإعلامية الجبارة للعمل على التحديث الحقيقي للمجتمع والعصرنة

الفعلية لكل أجهزة ومكونات ودواليب الدولة، ولكل دروب الحياة اليومية للمغاربة، فقد تم تسخيرها للعمل على إحداث بهرجة وفرقعة وإضفاء هالة بألوان الحداثة على قيم منحطة، ضاربة أطنابها في موسوعة التأخر والانحطاط[1]، بحيث تم العمل على ترسيخها في وجدان الناس مع مرور الوقت، لتؤدي في آخر المطاف إلى إصابة مكونات المجتمع، من أفراد ومؤسسات، بشتى أنواع الأمراض وأشكال التشوهات المتسببة في التأخر الاجتماعي والإضرار بالحاضر إلى حد بعيد ورهن المستقبل. فزيادة في التمويه على تصرفات ومعاملات الأفراد المنحطة، يتم إضفاء مظاهر حداثية خداعة عليها، تنم عن انعدام الرؤيا وانسداد الأفق، وعن قصور في الفهم لما يجب أن تكون عليه الأمور. نعم، لقد تم تحويل الإعلام إلى سلاح فتاك لزرع الأحقاد بين مكونات المجتمع، خاصة بين مكونات الأسرة، خلية المجتمع، التي أصبحت مهددة في وجودها نتيجة الأضرار العميقة التي لحقت بالعلاقة بين الرجل (الزوج، الأب) والمرأة (الزوجة، الأم) وبينهما وبين الأطفال (الأبناء). لقد حول المصطلح الأيديولوجي شعار حقوق المرأة من حقوق طبيعية تقابلها واجبات (كما للرجل كذلك حقوق وعليه واجبات) إلى سيف مسلول فوق رقبة الرجل، كما حول حقوق الطفل الطبيعية إلى عقوق لهذه الحقوق مما أدى إلى تضييعهم بتضييع تربيتهم على أسس سليمة.

لقد تم الاستثمار في الماكياج والبهرجة الإعلامية لإضفاء لمسات براقة من الحداثة والعصرنة على تصرفات أفراد يتعاملون بعقليات صانعة

---

[1]- انظر كتاب "آليات صناعة التخلف: وقفة صريحة مع الذات"

للتخلف، وعلى مؤسسات ومصالح تأخرت بتأخر عقليات العاملين بها وانحطاط تصرفاتهم ومعاملاتهم، بحيث أصبح كل همهم ينحصر في التنكيت وتلقف التفاهات وتتبع أسرار الآخرين وكل ما هو ساقط في مقابل عدم الاكتراث بالمهام التي يتقاضون أجرا من أموال الشعب مقابل القيام بها. استشرت الفوضى وضربت أطنابها في انسجام مع سريان ثقافة المثل الشعبي القائل "اللي ما عندُ سيدو عندُ للاه"، كما تم التطبيع مع الرشوة والتهافت على جمع الفلوس (المال) بكل الطرق توجسا من تبعات المثل الشعبي القائل "اللي ما عندُ فلوس كلامُ مسوس". سبق أن تطرقت للكثير من المشاهد والصور للتدليل على مدى انحطاط مخزوننا الثقافي المعاصر، وكيف أننا أصبحنا نعمل بآليات صناعة التخلف[1] في الزمن الذي هيمنت فيه شعارات الحداثة في إعلامنا الرسمي وغير الرسمي.

من خلال هذا الكتاب سأتوقف مليا عند بعض الأوجه من أوجه الجناية على المجتمع التي تسبب، ويتسبب، فيها إعلام يسوّق لمنظومة ثقافية لا تمس للحداثة بصلة لا من قريب ولا من بعيد، ولا تمس لا لأعرافنا، ولا لثقافتنا ولا لحضارتنا ولا لواقعنا بأية صلة. لقد تبارت قنواتنا في أيهما أبلغ، وأكثر جرأة، على العمل على طمس المعالم الحضارية والثقافية للفرد المغربي وإحداثياته ليصبح بدون هوية، تتقاذفه الأعاصير الإعلامية المدمرة، المحلية وتلك العابرة للقارات.

لقد تسربت إلى أدمغتنا أغبرة كثيفة، وأدخنة سامة، تلقي بها الرياح الهوجاء التي تتسبب فيها الضغوطات الثقافية والحضارية القوية المتأتية

---

[1]- انظر "آليات صناعة التخلف: وقفة صريحة مع الذات"

من كل الجهات، وبخاصة من جهتي الشمال والغرب. وكما هو معلوم، فإن حضارة الغرب والثقافة الغربية تسودهما ضغوطات جد مرتفعة تتسبب في هبوب رياح قوية جافة على مجتمعاتها، تعمل على إثارة الزوابع "الغبارية" الإعلامية العاتية (المرئية والمسموعة والمقروءة) التي تتنقل بسرعة فائقة لتنتشر فتكدّر أجواء الحضارات الأخرى وتلوث مناخاتها الثقافية، فتحدث اضطرابات حضارية عميقة وأعاصير تأتي على الأخضر واليابس. نعم، أصبح العالم قرية صغيرة بفعل التقدم التكنولوجي المهول، وبما أن المغرب أقرب ما يكون لمَواطن هبوب العواصف الحضارية الغربية واللاتينو-أمريكية الهوجاء، فإنه يتأثر سلبا، إلى حد بعيد، بما تلقي به من ملوثات لنسيجه الحضاري ذو المناخ المعتدل الرطب الهادئ الذي يعج بالحياة. وزيادة على هذه الأعاصير المدمرة الآتية من الخارج، فإن ضمائرنا وعقولنا أصبحت تلفها النفايات التي علقت بأدمغتنا حتى ملأتها، نتيجة ما يلقي به إعلامنا في أوجهنا من أغبرة داكنة، شديدة التلوث، بلا حسيب ولا رقيب. هذه النفايات والأغبرة الداكنة حجبت، بل عزلت مراكز الرؤيا في الدماغ عن مراكز التحري والمراقبة وعطلت أجهزة المناعة عن العمل. فلم تعد هناك حواجز واقية كفيلة بإيقاف تسرب السموم الإعلامية الخطيرة التي تعمل على تدمير هويتنا الحضارية وتلويث مخزوننا الثقافي والانتقاص من أعرافنا وتقاليدنا، حيث أصبحنا مهددين في وجودنا بعد أن أصبحنا نعمل بآليات تدمير الذات وصناعة التخلف والانحطاط في كل الميادين وعلى كل المستويات.

ومن المؤسف المؤلم ألا ننتفطن بعدُ للأمر، بل لازلنا غارقين في سباتنا العميق، بل في حالة شبيهة بالتخدير الكلي، بحيث لازلنا نعمل على زيادة الطين بلة وبلالا بعد أن عملنا على فتح ممرات، عبر قناة

"دوزيم" والقناة الأولى، لهبوب رياح "الصامبا" اللاتينو-أمريكية، البرازيلو- مكسيكية، المدمرة لما تبقى من جهاز المناعة الثقافية والحضارية في المجتمع المغربي. بل لقد تم العمل على فتح ممرات لتنفذ منها النيران المحرقة التي ينفثها التنين الصيني الرهيب. فما هو المعنى الإعرابي الحداثي لهذه الهلوسة، ولهذه العبثية والفوضى الإعلامية؟ ماذا نريد أن نصنع من الفرد المغربي، وأي فرد مغربي نريد، إن بقيت لنا من هوية مغربية؟ هل هذه هي الحداثة التي نتغنى بها صباح مساء و التي نريدها كمغاربة لبلدنا، أم أن هناك من يستغل الإعلام الرسمي والغير الرسمي لتمرير حداثة أيديولوجية تعمل على مسخ الفرد المغربي مسخا؟ هل الحداثة تعني العمل على مسخ هوية الفرد المغربي ومقومات المناعة في شخصيته والإلقاء به، بعد ذلك، في عين العواصف العاتية من دون حول ولا قوة، ككومة من الحشائش تتقاذفها الرياح في كل الاتجاهات، في دوامة لا تنتهي؟

فرنسا، وباقي الدول الأوروبية، دول غربية على غرار الولايات المتحدة الأمريكية، تجمعهم مرجعية حضارية واحدة، وبالرغم من ذلك تعمل أوروبا بكل استماتة على التصدي للغزو الثقافي الأمريكي في إطار ما يسمى بحرب العولمة الثقافية. ولكي يتسنى لكل واحد منا الوقوف عن كثب على حقيقة الأمر، على حقيقة الدمار الشامل الذي أحدثه إعلامنا في المجتمع بتبنيه الاعتباطي لشعار الحداثة المدمرة الذي رفعناه، فإن أكثر مشاهد الدمار الشامل إثارة ما تم إحداثه من قلب خطير مفاجئ للمفاهيم والقيم والأعراف على صعيد العالم القروي. لنتابع جميعا، فيما يلي، بعض المشاهد الناطقة بما حل بالعالم القروي من كوارث نتيجة القصف الإعلامي المدمر المركز.

الكهرباء تُدخل العالم القروي نادي العولمة

يا له من عنوان مثير للفضول؛ عنوان ناطق بمدى التحديث الذي بلغه بلدنا، بحيث أصبح المغربي في البادية، في السهل والجبل، ينعم بالخدمة السحرية للكهرباء التي تفتح الأبواب على مصراعيها لتحديث الوجه الآخر، الوجه المنسي للمغرب. والأكثر إثارة في هذه الطفرة، وفي هذه القفزة النوعية البعيدة المدى، هو ذلك المشهد الدراماتيكي الذي يستفيق فيه البدوي مبكرا على ضوء قنديل ويُمسي وهو يضغط على الزر السحري ليرى ضوء الكهرباء يهاجم ظلام الليل ويمحوه. إن الأمر أشبه بانطلاق أول رجل فضاء (يوري جاجارين) إلى القمر، بحيث وجد نفسه، بعد مرور بضع دقائق، خارج الغلاف الجوي للأرض، في عالم غريب تماما. يا لها من لحظات مؤثرة إلى حد لا يوصف بالنسبة للفرد الذي يتم قذفه خارج حدود العالم المعتاد، إلى عالم مجهول بكل المواصفات. نعم، استيقظ القروي مبكرا، من نوم مبكر، كما اعتاد ذلك هو وآباؤه وأجداده الذين سبقوه، نظرا لانعدام ما من شأنه أن يسهرهم الليل، لكنه أمسى من يومه يكفيه الضغط على الزر الكهربائي السحري لينير المكان وهو يردد "بركة وحدة تضوي المكان" مستحضرا في ذهنه ذلك المقطع من أغنية عبد الهادي بلخياط "أنا وحدي نضوي لبلاد". أمسى وطبْقُ استقبال البث التلفزيوني فوق السطح، فقضت الأغنام أول ليلة خارج الدار، بحيث لم يبال بها أي أحد من هول ما حدث في البيت الذي يمتلكها. فلقد دخل إلى الدار ما سيقلب الأحوال رأسا على عقب، ويغير الأوضاع تغييرا دراماتيكيا، بحيث سيحتل التلفزيون الصدارة بينما سيتراجع الاهتمام بالأغنام ويتلاشى.

حدث لصاحبنا انقلاب كلي، بحيث لم ينم إلا في وقت متأخر جدا من الليل، فلم يستيقظ اليوم الموالي إلا والشمس في كبد السماء، بينما بقيت

الأغنام شاردة، لم تتعود البقاء من دون من يرعاها ويسوس أحوالها. يا لضياع القروي! أضاءت الكهرباء بيته لكنها عطلت تفكيره، فأعمت بصيرته؛ لقد فتحت عيناه على مرئيات ومشاهد ومناظر وعوالم من أقصى بقاع الأرض، فأصيب بالذهول، بحيث تعطل تدبيره لشؤون حياته اليومية وولم يعد يعيرها أي اهتمام.

استوحيت ما كتبت أعلاه مما حكاه لي أحد المهندسين الإعلاميين، صديق لي، زار أحد أقربائه بناحية الجديدة، ومن بين ما قاله له بخصوص ما حدث بعد كهربة المنطقة: "الليلة الاولى ديال البارابول باتت لغنم في الخلا" (الليلة الأولى التي تم فيها تركيب طبق استقبال البث التلفزيوني، باتت الأغنام خارج الدار). وهناك حكايات كثيرة تتعلق بما تسببت فيه الكهرباء وأطباق استقبال البث التلفزيوني من تعطيل لتدبير أمور الحياة اليومية للأسر القروية، أصبحت تتداولها الألسن. فلقد دخلت ظاهرة ترك الأطعمة التي يتم طهيها تتفحم لائحة ضحايا "البارابول"، هي كذلك. فما أن تبدأ قناة الدوزيم العتيدة، أو القناة الأولى، في بث حلقة من حلقات المسلسلات المكسيكية الماراطونية، وكذا التركية والصينية التي دخلت على الخط مؤخرا، حتى تتعطل الحياة في المنازل وتتوقف الحركة، بحيث تتوقف أدمغة النساء والفتيات عن استقبال البث الخارحي إلا ما تعلق منه بالطول الموجي (longueur d’onde) الذي يتماهى كلية مع الطول الموجي لطبق استقبال البث التلفزيوني. فكما يتم ترك الأغنام مهملة خلال الليل، يتم تعطيل التواصل مع العالم الخارجي للنساء داخل البيوت خلال بث حلقات الأفلام المكسيكية.

ركزت بداية على النساء داخل البيوت، ولم أنس بأن الدائرة أعم وأكبر من هذا، فلقد أصبحت مواعيد بث حلقات المسلسلات المكسيكية

والتركية تشكل فترات زمنية يتم خلالها تعطيل دواليب الحياة خارج البيوت كذلك، بحيث يعود من هم في الخارج ليكونوا في الموعد مع بداية البث، كل واحد يحبس أنفاسه في انتظار ساعة الصفر. كما لم تعد المنازل هي الوعاء الوحيد لتمكين الناس في الدواوير (حيث يتجمع العديد من السكان) من متابعة المسلسلات المكسيكية التي تكرمهم بها قناتي "دوزيم" و"الأولى"، فلقد تم إحداث المقاهي التي تكتظ بالشبان والكهول العاطلين، الذين تم لهيهم تماما عما كانوا يقومون به من أعمال منتجة، ولو على بساطتها وعلتها.

حكى لي أحد الزملاء الذي تربطني به علاقة عائلية، أنه كان يذهب في الصباح المبكر من مراكش لزيارة والدته بالقرب من حد اولاد فرج، ناحية الجديدة. فقبل كهربة العالم القروي، كان يُستقبل بسانفونية صوتية تعج بالحياة، حيث تختلط أصوات الرعاة والفلاحين وغيرهم مع أصوات الأغنام والديكة والحمير والكلاب، الخ...، لكن ما أن تمت كهربة المنطقة حتى تغير كل شيء تغييرا راديكاليا. تطلع الشمس عاليا في السماء ولا حتى صياح الديكة المعتاد يخترق جدار الصمت الذي أصبح مطبقا في الدواوير؛ فقد تعطل كل شيء، بل لقد انقلبت المفاهيم تماما، بحيث امتلأ البيت القروي بالحياة الافتراضية المثيرة على شاشة التلفزيون في مقابل تلاشيها على أرض الواقع. وزيادة في توضيح كل جوانب ما حدث من انقلاب في المفاهيم، يظهر المشهد الموالي شابا يستيقظ متأخرا من نومه فيركب دراجته الهوائية المتآكلة ويقصد "الفيلاج" (القرية) لشراء "الرغيف الفرنسي"(baguettes) والزبدة الاصطناعية (مارڭرين) والبيض "الرومي" وكذا النعناع، وما إلى ذلك من الضروريات التي أصبح يستوردها بعد أن كان ينتجها. فأية حداثة هذه وأي إعلام هذا! هل من ضرورة للتعليق؟ فكما يقال "إذا ظهر

السبب بطل العجب"؛ ففي ظل استحكام المنظومة الثقافية المنحطة الحالية، فمن المستغرب أن يعمل إعلامنا على إفهام الناس أن كهربة العالم القروي ستشكل قاطرة نفاثة للعمل على التحديث الحقيقي والفعلي للبلاد ونهضتها، للقطع مع نهج صناعة التخلف وتثبيت آلياتها الذي ألفناه، بل تبنيناه كمنهج حياة وتعهدْناه بالتعميم على كل مناحي الحياة.

إعطاب العنصر البشري إلى حد الإعاقة المستدامة

إن الأدهى والأمَرّ فيما آلت إليه الأمور والأوضاع في العالم القروي بعد كهربته (ولماذا الأدهى والأمر، فقد كان من المفترض أن أقول إن "الأجمل والأحلى" للتعبير عن هذا الفتح المبين على عالمنا القروي) وما صاحب ذلك من غزو للفضائيات الوطنية (خاصة "دوزيم" و"الأولى") والأجنبية، هو إعطاب العنصر البشري إعطابا بليغا أدى إلى تعطيله عن القيام بما كان يقوم به من قبل، من أنشطة أساسية كانت تؤمن له ضروريات متطلبات الحياة اليومية. فبعدما كان الفرد القروي يطعم نفسه ويسهم في تزويد السوق الداخلي بالمواشي والدواجن (الدجاج "البلدي" وبيضه) والخضراوات والفواكه بنسب متفاوتة، فقد أصبح عالة على من عليه أن يعولهم. ارتفعت أسعار الخضروات والفواكه، كما ارتفع ثمن الدجاج الأبيض ("الرومي" كما يسمونه) طلية السنة إلى الحد الذي لا يمكن أن يطيقه القروي وسكان المدن المتدني دخلهم. لقد تم تعطيل الإنتاج بتعطيل من كان يعمل لتغطية ضروريات الحياة اليومية، فاضطرب حال الأسواق بارتفاع الطلب على ما لم يكن مطلوبا من قبل، بحيث اختلت التوازنات الاجتماعية إلى حد بعيد، مهددة بذلك السلم الاجتماعي في الوقت الذي نحن أحوج ما نكون فيه للعمل على تثبيته للخروج بأقل الخسائر من عين إعصار الثورات

الاجتماعية المدمرة للسنوات الأخيرة. فالحكامة ومحاربة الهشاشة والحداثة تقتضي أن يشكل عامل كهربة العالم القروي مبدئيا ومنطقيا صمام الأمان للسلم الاجتماعي في ربوع البلاد، بحيث يتم فتح أوراش كبرى للعمل والإنتاج عبر أنحاء الوطن وأرجائه، تسهم إسهاما حاسما في القضاء على البطالة بكل أصنافها وكذا في الرفع من الإنتاج في كل الميادين، بحيث تنخفض أثمان المواد الاستهلاكية إلى حد معقول لا يضر بالمنتج ولا بالمستهلك. كما أن الحداثة تقتضي خلق مناصب فعلية للشغل للقضاء على سلسلة الوسطاء التي تربط المنتج بالمستهلك، بحيث أصبحت هذه السلسلة مضرة بالمنتج الذي يبيع بثمن بخص، وكذا بالمستهلك الذي يشتري بثمن مرتفع ليس في استطاعة السواد الأعظم من المواطنين. أين اختفى شعار الحكامة وأين ذهب شعار الهشاشة، وأي حداثة هاته التي أخلت إخلالا تاما بكل أدبيات وفلسفات علم الاجتماع ونظريات علم الاقتصاد؟

فبدل أن تعمل كهربة العالم القروي على تثبيت ساكنته في أماكنهم للتخفيف من الضغط السكاني على المدن، فإن العكس هو الذي حدث. لقد عملت الكهربة الغير المدروسة والغير محسوبة العواقب، على تعطيل العنصر البشري عن العمل وعن التفكير البسيط السليم الذي يؤمن له قوت يومه، فلقد فتحت عليه الترسانة الإعلامية التلفزيونية ("دوزيم" ومثيلاتها) أبوابا واسعة لولوج عالم الاستهلاك والتعاطي للكماليات، لكن في غياب تام للقدرات الفكرية المستوعبة وللإمكانيات المادية اللازمة لتأمين أدنى جزء منها؛ فماذا سيحصل، وما هي النتيجة المنطقية لما يحدث؟ وهل يتطلب الأمر كثير تفكير وتنظير لإيجاد الجواب؟ لقد انقلبت الأوضاع رأسا عن عقب، بحيث تفشت ظاهرة السرقة في واضحة النهار، فعمت السهول والجبال، لتم تصديرها إلى

المدن لتزيد الطين بلة، بل وانزلاقا. أصبح الجيران يسرقون بعضهم بعضا، فكما يقول المثل الدارجي "اللي فرّط يكرّط"؛ نعم، يشكل بث حلقات المسلسلات المكسيكية (والتركية التي دخلت مؤخرا على الخط) ذروة اعتكاف الناس في البيت الذي يوجد فيه الجهاز السحري (التلفاز)، بحيث يصبح المجال مفتوحا لمن يريد أن يدخل إلى الدار لسرقة ما قد تقع عليه يده. نعم، يصبح ضغط الحاجة، عند الشباب، أقوى من رغبة التفرج على "ديابلو"، وعلى ما لا أدري من مسميات لمسلسلات مكسيكية تمت ترجمتها للدارجة المغربية القحة، عملا على تقريب المغربي ما أمكن من المكسيكي، وجعله يدخل في جلده ويذوب في هويته، خاصة الفرد القروي الذي دفع به التيار الإعلامي السينمائي الجارف ليُمسي مكسيكيا، من قلب مكسيكو سيتي.

لقد أصبحت الصحف الوطنية تعج بالأخبار "الطريفة" ("كثرة الهم كتضحك، كما يقال") عما أصبحت تعرفه البادية من مشاهد مذهلة، عجيبة، لعمليات سرقة تحدث في واضحة النهار. ينتظر الشباب، الذين تحولوا إلى لصوص بقوة الواقع (على وزن بقوة القانون)، ساعة الصفر، ساعة بث حلقة من مسلسل من المسلسلات المكسيكية أو التركية، التي تشد إليها الأنظار، وتقطع الأنفاس، لكي يدخلوا مطمئني البال (يدخلون بدلا من أن يتسللوا) ليستولوا على ما يجدونه من أغنام وأبقار ويقودونها إلى حيث يريدون، دونما توجسات. يتداول الجميع حكاية السرقة التي حدثت بدوار ببادية تاونانت، حيث دخل اللصوص إلى الدار في واضحة النهار والكلاب تنبح بكل قواها، منذرة بوجود أجانب بالقرب من الدار. ضغط الأب على الطفلة الصغيرة فقامت لمعرفة ما يحدث، فما كان من اللصوص إلا أن أخذوها مع الأبقار التي حملوها في شاحنة تم إحضارها لهذا الغرض. استوقف رجال الدرك

الشاحنة قبل أن يبتعدوا كثيرا عن المنطقة، بحيث اكتشفوا ما حدث، فتمت إعادة الطفلة والأبقار إلى الدوار، ليجدوا الأب وباقي أفراد الأسرة لازالوا عاكفين، يستمتعون بالتفرج على حلقة مسلسل خلود التركي.

ومما يمكن قراءته على صفحة هيسبريس (الجمعة 04 ماي 2012):

"أقدم طفل يبلغ من العمر تسع سنوات في قرية بإقليم "اليوسفية" على شنق نفسه بحبل داخل غرفة بمنزل أسرته محاولا تقليد شخصية بمسلسل "خلود" التركي الذي تبثه القناة المغربية العامة الثانية. وذكرت مصادر صحفية محلية اليوم أن أفراد عائلة الطفل وجدوا الأخير معلقا بحبل وبعد إشعار المركز القضائي للدرك الملكي بالمنطقة انتقلت عناصره إلى موقع الحادث. وقامت عناصر الدرك الملكي ببحث بين أفراد أسرة الطفل المنتحر فتبين لها أن الضحية كان يتابع بشغف كبير المسلسل التركي "خلود" وأنه تأثر بمشهد قيام إحدى الشخصيات بالانتحار مما دفعه لتقليده.

فكما يقال "إذا عمت هانت"، أو "دير راسك ما الريوس وعيّط أقطـّاع الريوس" (وهو ما معناه "إذا كنت بين جمع كثير من الناس، فإذا ما حدث قطع للرؤوس فإنه يهون").

وعلى أحد المواقع الالكترونية يمكن قراءة عنوان: *"حلقات مسلسل"خلود"..تدفع المشاهدين للجمع بين المغرب و العشاء"* (6 ماي 2012). ومما تم نشره بهذا الخصوص:

"عجيب أمر المواطن المغربي "الريح لجات كتديه" (أي ما معناه أن المغربي كالريشة في مهب الرياح، تفعل به ما تشاء). *كلنا يتذكر المسلسل المكسيكي الشهير "أنت أو لا أحد" وبطلته "كواد لوبي"، والتي أسرت قلوب وعقول شريحة واسعة من المواطنين المغاربة، و كنا*

نسمع بين الفينة و الأخرى عن طرائف وحكايات وقعت بسبب هذا المسلسل وبطلته.

و اليوم تعود تقريبا نفس تلك الحكايات و الطرائف؛ لكن هذه المرة بطعم تركي وعن طريق الفايسبوك والمواقع الالكترونية..فالمسلسل التركي "متنسانيش" الذي يحتل الصدارة في نسبة المشاهدة بقنوات القطب العمومي، كان السبب في إقدام صغير على الانتحار عندما حاول تقليد مشهد لأحد شخصياته.

وآخر ما تناقلته مجموعة من صفحات الفايسبوك؛ هو غياب المصلين عن المسجد وقت صلاة المغرب بسيدي بنور، بسبب أن عرض مسلسل خلود يصادف وقت صلاة المغرب، مما يدفعهم للجمع بين صلاة المغرب و العشاء. هذا الأمر دفع إمام المسجد إلى جمع ساكنة المنطقة، لإلقاء درس يحث فيه المصلين من الذكور والنساء، على مقاطعة مسلسل " متنسانيش- خلود " الذي تبثه قناة " دوزيم " مدبلجا باللهجة العامية المغربية لتعم الفائدة حتى الأميين.

ولماذا لا، فعلى وزن تقريب الإدارة من المواطنين، فلا بد من العمل على تقريب أبجديات الحداثة التي تراد لمجتمعنا حتى من الأميين المفتقدين لأدنى مرجعية حضارية ليكونوا رأس الرمح في تبني ما تعرضه عليهم القنوات التلفزيونية. من يجرؤ، بعد كل هذا، على القول بأن "دوزيم" لا تفكر حتى في المشاهد المغربي الأمي، إلى حد دبلجة المسلسلات المكسيكية والتركية والصينية وما إلى ذلك، باللهجة الدارجة المغربية الفصحى لتمكينه من التماهي، بل والذوبان داخل جلد الغير مغربي الذي ذهب بلبه. إنها لفاجعة بكل المقاييس، تلك التي حصلت في قرية بإقليم اليوسفية، والتي ذهب ضحيتها طفل (9 سنوات) هجمت عليه "دوزيم" (كمثال فقط) في عقر بيته بقرية نائية، من دون تحذير أو

سابق إنذار. يتعلق الأمر بحالة موت حقيقية، فما بالك بالمدى الذي بلغه القطع المعنوي للرؤوس، بحيث أصبح القروي (والمغربي عموما) عبارة عن جسد بلا رأس، غير قادر على التفكير؛ فكل ما يحسن فعله هو الاستجابة للمؤثرات الخارجية من دون تفكير ولا تمحيص. إنها فعلا مشاهد سريالية مرعبة بالنسبة لمن لازال في دماغه بقايا من المادة الرمادية التي تجعله قادرا على التفكير.

ومما يجب التحذير منه أن هذه الفوضى التي استشرت في العالم القروي الذي كان يكفي الدولة شر التوترات الاجتماعية والقلائل، تمثل مقدمة لما هو أكبر وأعظم في المستقبل المنظور. نعم، لقد تضخمت متطلبات السكان الحداثية التي تمررها المسلسلات المكسيكية وكذا كليبات الإشهار المثيرة وكل مكونات الإعلام المرئي والمسموع، وإذا ما أضفنا إلى كل هذا اضطراب الأحوال الأمنية التي تفاقمت في البوادي، فسيشكل كل هذا قنبلة موقوتة قابلة للانفجار في أية لحظة. فمتى اتسعت الهوة بين تطلعات السكان الاستهلاكية وإمكانياتهم المادية، فسيؤدي ذلك حتما إلى **انفجار الأوضاع، في زمن تصدير الثورات. ندائي للحداثيين أن لا يدوسوا** على المخزون الحضاري والثقافي للمغربي الذي يمثل سر كرامته وعزته عملا بشعار "ما تقيش أبناءنا، تقيش بلادنا، ما تقيش حضارتنا".

ممنوع على من يقل عمره عن 18 سنة

طفل *"يشنق نفسه بحبل داخل غرفة بمنزل أسرته محاولا تقليد شخصية بمسلسل "خلود" التركي الذي تبثه القناة المغربية العامة الثانية"*. يمثل هذا المقطع توصيفا للجريمة وحيثيات وقوعها ويعد صك اتهام لقناة "دوزيم"، لكن من سيحاكمها وعلى أي أساس؟ في الجانب الآخر، يمثل

هذا الحادث المأساوي عنوانا عريضا لملحمة تلفزيونية يتماهى فيها المتتبع للمسلسلات المكسيكية والتركية إلى حد الذوبان في شخصية الممثل الذي يصل به الحد، من خلال الدور الذي يؤديه، إلى تعطيل أجهزة الإنذار المناعي في شخصية المشاهد المضطربة التي يتساوى فيها العالم الافتراضي مع العالم الحقيقي، أي الخيال مع الواقع. بلوغ هذه الدرجة من التماهي يجعل الفرد المشاهد مفتقدا للإرادة الذاتية وللتمييز، وهو ما يجعل منه شخصا مفتقدا للأهلية، من دون هوية، مثله كمثل الريشة في مهب الرياح، تفعل بها ما تشاء، من أي اتجاه هبت.

مأساة هذا الطفل تجعلنا أمام مشهد مؤلم من المشاهد الشاهدة على مدى ما تحدثه المسلسلات المكسيكية والتركية من دمار شامل على صعيد البنية النفسية والفكرية لمتتبعيها الغير محصنين فكريا وثقافيا وحضاريا، وكذا على صعيد اللاشعور الذي يصبح مخترقا بصفة كلية من طرف من سلب الشخص لبّه وعطل تفكيره. ومتى تم الاختراق الكلي للاشعور الفرد، فإنه يصبح كالدمية، يتم تحريكه لا إراديا، وعن بعد؛ بحيث يصبح فاقدا للأهلية، مطلوب التكفل به والأخذ بيده حتى بلوغ بر الأمان. موت الطفل ذو التسع سنوات مأساة، لكنها تمثل فقط تلك "القطرة التي أفاضت الكأس"، وتلك "القشة التي قسمت ظهر البعير"، بحيث تعمل تلك اللقطة على إثارة الانتباه لما آلت إليه الأمور بسبب منظومة إعلامية تعمل على تدمير الذات، بدل إسعافها وتمكينها من أخذ الجرعات المناعية المطلوبة لتقوية شخصية المغربي.

منذ زمن غير بعيد، كان عرض الأفلام والمسلسلات التلفزيونية على شاشة التلفاز وفي دور السينما، يخضع لبعض الضوابط الأخلاقية والقانونية وحتى "البيداغوجية" (ولماذا لا، فالبيداغوجيا أصبحت كنكتة "عرس قي قرية" المعروفة، لا بد لها من موضع قدم في كل ما يتم

تداوله) التي كان الناس يتقيدون بها، خاصة في الدول الغربية التي سنّتها. من بين هذه الضوابط، ما كان يتعلق بعمر من يسمح لهم بمشاهدة فيلم ما أو حلقات مسلسل يتم عرضه على شاشة التلفزيون. ضوابط لم نكن نلتزم بها طبعا، نحن كمغاربة، فنحن شعب لا يقبل أفراده بأن تصادر حرياتهم في فعل ما يحلو لهم، ويعتبرون ذلك نوعا من الاستعمار[1]. فزيادة على رفض الامتثال لهذه الضوابط، دخل على الخط عامل قانون حقوق الطفل، بحيث فهّمنا الإعلام على أن للأطفال الحق كاملا في فعل ما يحلو لهم، من دون اعتراض من طرف الكبار، حتى ولو كانوا آباءهم. أمر عجيب، وغريب غرابة حقوق الطفل التي تجعل منه عمليا كهلا بالغا في نفس الوقت، يتصرف حسب ما تمليه عليه أفكاره ومصلحته واقتناعاته! أمر يثير العجب، فأين يكمن السبب؟ "إذا ظهر السبب بطل العجب"، لكن أمرنا يظل عجيبا حتى ولو ظهر السبب، لأن السبب نفسه يثير العجب. لقد تم فهم السبب على غير مراده، أو تم العمل على تفهيمنا إياه كذلك، من المنظور الحداثي الفلكلوري الذي يرمي إلى تحرير الفرد من كل الضوابط ومن "الطابوهات" التي قد تكبله وتحد من حريته في فعل ما يشاء، كيف يشاء ولو كان صبيا. فالطفل طفل كما يبدو ذلك من مسماه، لكن العلاقة بينه وبين الكبار يجب أن تكون علاقة شراكة، بحيث لا يحق لأحد الشريكين فرض رأيه وتصوره للأمور على الآخر. "تقادّو لكتاف" كما يقول المثل الدارجي، أليس هذا هو العجب العجاب! من هو الطفل إذن، ولماذا هذا التقسيم بينه وبين الكاهل ما دامت العلاقة بينهما علاقة الندية

[1]- انظر كتابنا: آليات صناعة التخلف، وقفة صريحة مع الذات

في التصرف بكل حرية؟ على صفحة منتديات خنشلة التعليمية، - منتدى المنوعات التعليمية، - قسم علم النفس التربوي، نقرأ:

"والواقع أن *الطفولة "البشرية" تمتد لسنوات لا تقل عن اثني عشر سنة، كما أن الطفولة البشرية تزداد بازدياد التقدم البشري". والطفولة تمثل المرحلة الممتدة من الميلاد إلى البلوغ. "ومرحلة الطفولة من أهم مراحل التكوين ونمو الشخصية، وهي تمثل مجالا لإعداد وتدريب الطفل للقيام بالدور المطلوب منه في الحياة. ولمّا كانت وظيفة الإنسان هي أكبر وظيفة، ودوره فوق الأرض هو أكبر وأضخم دور، اقتضت طفولته مدة أطول قصد تربيته وإعداده للمستقبل، ومن هنا كانت حاجة الطفل شديدة لملازمة أبويه في هذه المرحلة من مراحل تكوينه.*

الطفولة مدة طويلة لإتاحة الفرصة كاملة لتربية الطفل تربية متكاملة تـُعدّه إعدادا شاملا متكاملا ليتحمل مسؤولياته كاملة في المستقبل، متى أصبح بالغا. لن أتطرق لمدة الطفولة التي تم تحديدها هنا بالفترة الممتدة من الميلاد إلى البلوغ، وليس بالضرورة بلوغ السن الثامنة عشرة، فليس هذا من صلب الموضوع، حتى وإن تبين بالدليل العلمي القاطع أن الحداثة بمفهومها الأيديولوجي حاضرة في التعريف الحالي لمفهوم الطفولة المتبنى من طرف الأمم المتحدة.

الطفل الذي موّت نفسه، هو طفل وقروي في نفس الوقت، وهو ما يزيد المشهد ضراوة وقسوة. نعم، هناك قسوة فيما حصل، لأن الأمر يبدو أقرب للقتل العمد، بل يتعلق الأمر بالتحريض على القتل الموصل لإزهاق الأرواح. إنه طفل، وعليه فهو يفتقد لمنظومة الفهم السليم للأمور، لما يشاهد، ولآليات ضبط التعامل والتصرف كما يجب مع المؤثرات الصادرة عن العالم الخارجي عنه؛ من هنا تبدو المسؤولية المعنوية لقناة "دوزيم" وللقناة "الأولى"، إن لم تكن المسؤولية الجنائية،

ثابتة فيما حدث. لقد كان عليها أن تعمل على تحذير الآباء (الكبار)، عند بداية بث كل حلقة من حلقات هذه المسلسلات العبثية "القاتلة"، من المخاطر الناجمة عن مشاهدتها من طرف الأطفال وحثهم على منعهم من ذلك إن كنا نريد فعلا تحديث المجتمع وتقدمه بدل تدميره وتأخيره.

في المقابل، إذا كانت هناك ضوابط أخلاقية تنظم مشاهدة الأطفال للأفلام والمسلسلات، يتم تجاهلها، فماذا يمكن فعله مع الكبار، من سكان القرى والبوادي، الذين يفتقدون هم كذلك، للمحصنات الفكرية والثقافية والحضارية، وهو الأمر الذي يجعلهم في حالة من الهشاشة تفقدهم أهلية التمييز بين ما هو نافع وما هو مهلك، وفي التصرف من دون رقابة ومتابعة. فهم كالأطفال من هذا المنظور، قد تحدث لهم درجة عالية جدا من التماهي مع شخصية الممثلين والممثلات؛ درجة عالية من التماهي، كفيلة بسلبهم الإرادة وتركهم من دون هوية، وهو ما يتطلب التكفل بهم والأخذ بيدهم حتى يتمكنوا من بلوغ بر الأمان بأمان. ولا يظننّ أحد أن التكفل بهم والأخذ بيدهم هو معاملتهم معاملة الأطفال، الغير الراشدين، بل يعني هذا، القيام بما قام به المسؤولون الألمان، عندما قرروا وقف بث مسلسل "دالاس" الأمريكي إلى أن تنشر نتائج الدراسات التي أجريت بهذا الخصوص، لمعرفة التأثيرات السلبية على المشاهد الألماني. لن أسترسل في توضيح جميع الحيثيات، فكما يقال "شرح البديهيات من المفضحات"، فما على "دوزيم" خصوصا، ومنظومتنا الإعلامية عموما، إلا أن تتسلح بالجرأة المطلوبة للقيام بنقد شامل وعميق للذات، وتتحلى بالصراحة في مصارحة المغاربة، ومعاملتهم كمغاربة، ذووا جذور حضارية ضاربة في أعماق التاريخ، ليسوا بحاجة لحداثة الانحلال الخلقي والتحلل والتفسخ الاجتماعي والحضاري التي تؤسس لها المسلسلات المكسيكية العبثية المنحطة وكذا التركية

العلمانية التي دخلت مؤخرا على الخط. والرجوع إلى تاريخنا المغيب من طرف الحداثيين يبين بجلاء، لمن يغمضون أعينهم، أن شخصية المغربي المسلم لم تتمكن من تطويعها واختراقها حتى الإمبراطورية العثمانية العظمى التي خضعت لها شعوب وأمم كثيرة.
ليس لقناة "دوزيم" أي سند قانوني في تحميل هذين الصنفين من المغاربة مسؤولية ما حدث لهم من انقلاب في المفاهيم والتقاليد والأعراف، فكلاهما يفتقد للمؤهلات الفكرية والمعرفية الضرورية التي تؤهله للتموضع بكيفية سليمة على مسرح الأحداث والتفاعل معها بنوع من الإيجابية. لا بد من تحميل المسؤولية لمن تسبب في القلب الخطير للمفاهيم والذي تسبب في إعطاب العنصر البشري القروي (على الخصوص) إعطابا مولدا للإعاقة إلى الحد الذي أصبح معه عالة على المجتمع، عاملا من العوامل التي ستزيد من اضطراب أحوالنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

إعلام تلفزيوني عبثي يُثبّت الجهل

ومما يؤلم من لازال يحس بالألم، ويثير استغراب من لازال يرى الأشياء على حقيقتها، أن المنغمسين في تتبع هذه المسلسلات العبثية استفادوا، فيما قبل، إلى حد بعيد في الجانب اللغوي، حينما كانت اللغة العربية الفصحى هي لغة الدبلجة المتكلم بها؛ لكن ما أن تم التفطن للأمر، على ما يبدو، حتى تمت إعادة الأمور إلى نصابها، عملا بالقطع مع كل ما قد يكون ايجابيا في هذه المسلسلات المفسدة لحياة الفرد المغربي والمجتمع إلى أقصى الحدود، كما سنرى. وهنا تتجلى المكانة الرائدة للإعلام في تعليم الناس ما قد تفشل فيه المدرسة (كتعليمهم اللغة العربية الفصحى)، إن أريد استثماره لإصلاح أحوال العباد والبلاد بدل

إفسادها. ثم نتباكى على ما آلت إليه الأمور على كل الأصعدة في مجتمعنا، وعلى كل المستويات، فيا للعجب العجاب! فكما يقول المثل الدارجي "كيبيع القرد ويضحك على اللي شراه" (يبيع القرد ويضحك على من اشتراه)، وكما يقول مثل آخر "كيقتل الميت ويمشي في جنازتو" (يقتل الميت ويمشي في جنازته)؛ فالمتتبع للإعلام "الدوزيمي" (على الخصوص) يسترعي نظره وسمعه تنوع البرامج التي تهتم بالمشاكل الاجتماعية والأسرية والتعليمية التي يعمل هو على زرع بذورها والاعتناء بها إلى أن تنمو وتتجذر عن قصد أن غير قصد. فلا غرابة إذن، فلماذا الاستغراب؛ فكما أوضحنا في كتاب "آليات صناعة التخلف"، فقد أصبحنا كمغاربة، مثقفين وغير مثقفين، نتفنن في تنويع عوامل التأخر والانحطاط، ونعمل على تثبيتها بالعمل على تفشيها في شرايين المجتمع لتعم كل مناحي الحياة، لتكتمل دورة الرداءة وتصبح قادرة على إعادة إنتاج نفسها على نسق متسارع. هل بمثل هذا النهج يمكن تحديث المجتمع التحديث المطلوب؟

ما الغاية من هذا العبث الإعلامي الذي تتبارى فيه قنواتنا التلفزيونية الوطنية، "دوزيم" و"الأولى" وكذا "ميدي سات"؟ هل هذه هي نوعية الحداثة التي نتغنى بها صباح مساء، ونطرب لترديدها؟ ثم، ما دامت "دوزيم" لا تحيد عن خطها الإعلامي الذي يهدف إلى "مكسكة" المغربي، بحيث يصبح الدكاليون والسوسيون والريفيون يفكرون كمكسيكيين ويحيون الحياة المكسيكية، فما عليها إلا تعمل على اقتطاع المقابل المادي من فاتورة الماء والكهرباء للمكسيكيين بدلا من المغاربة الذين تم فرض الأداء عليهم. فلا أظن أن المكسيكيين سيحتجون على ذلك، فحسب ما يتم التسويق له عبر قنواتنا التلفزيونية، فهم شعب لبيب، سيفهمونها في السماء (تعبير بالعربية الفصحى عن مقولة دارجية

مغربية "كيفهمها في السما")؛ ولماذا لا!، ف"دوزيم" كقناة تبث من المغرب، تمثل محطة متقدمة ل"مكسيكو سيتي" على الضفة الشرقية للأطلسي. لكن، في المقابل، لماذا يجب مطالبة المكسيكي المسكين بتأدية فاتورة "دوزيم"، وهو الغارق، كذلك، في مستنقع التخلف وما يتسبب فيه من هموم يومية بكل ألوان الطيف. ف"" لا تعني المكسيكي البسيط في شيء، بقدر ما تعني الممثلين المكسيكيين في هذه المسلسلات، الذين يجب عليهم الدفع، مقابل الاستفادة المادية والمعنوية من خدماتها. لما جاءت الممثلة التي كانت تلعب دور "كوادالوبي" في أحد المسلسلات المكسيكية "الشهيرة" إلى الرباط بمناسبة "أسبوع الفرس"، تعجبت من حرارة الاستقبال الذي حظيت به من طرف المغاربة. لقد تعجبت من الاستقبال الذي خصصه لها الرباطيون والسلاويون ومن جاؤوا من مدن أخرى!، حيث استقبلت استقبال الأبطال العظام، وهو ما جعلها تستغرب قائلة "كيف أنها معروفة في المغرب إلى هذا الحد، بينما لا يعرفها إلا القليل من المكسيكيين".

لا تستغربي يا "كوادالوبي"، فالفضل كله يرجع ل"دوزيم" المغربية والقناة الأولى؛ لكن في المقابل، فما عليك إلا أن تدفعي أو تعملي على إقناع الحكومة المكسيكية، المنهمكة في محاربة مافيا المخدرات وكل ألوان الفساد، بالأداء بدلا عنك، فليس من الشهامة أن تتركي المغاربة يؤدون عنك، فأنتم المستفيدون كممثلين مكسيكيين. فكما يقول المثل الدارجي الجميل "كثرة الهم كتضحّك"، فلنضحك على حالنا من كثرة الإحساس بالغبن على ما آلت إليه أحوالنا نتيجة تصرفاتنا التي توحي للمتتبع أن المغربي لم يعد يطيق العيش داخل جلده؛ فهو، إما يحاول الانسلاخ منه والهروب بعيدا (قوارب الموت)، وإما يحاول الذوبان داخله بالعمل على مسخ هويته عبر تبني هوية دخيلة لا يستنسخ منها

سوى ما يثير فضوله من مظاهر حداثية زائفة تؤشر على أنه لم تعد تربطه بقيمه الحضارية الخالدة وبجذوره، أية رابطة. فلقد عملنا عبر إعلامنا الذي يسوّق لحداثة دخيلة منحطة على أن يصبح المغربي كالريشة في مهب الرياح، تتقاذفه الأهواء، يستهويه كل ما هو زائف برّاق، "بايع راسو رخيص" (يبيع نفسه بثمن بخس) كما يقول المثل الدارجي المعبر. ولماذا لا الدارجة! فكما قلت من قبل، فلقد أصبح لها شأن عظيم حتى في بورصة شؤونها التربوية والتعليمية، وعليه، فلا يمكن التعبير عن رداءة منظومتنا الثقافية الحالية إلا ببلاغة الأمثال الشعبية التي أفرزتها الدارجة، فلا مكان لفصاحة اللغة العربية في مثل هذه الأمور.

لنحــلل ونناقـــش

هل لا مفر من القيام بتحليل ومناقشة ما يتعلق بموضوع كهربة العالم القروي، ودور الإعلام، في قلب المفاهيم السائدة والعادات والأعراف رأسا على عقب؟ هل بقي ما لم أتطرق له فيما كتبته بهذا الخصوص؟ نعم، يبدو أن الأمر كذلك، فبالتحليل والمناقشة سيتبين بجلاء أن الأمر أدهى وأمرّ مما تم سرده من أمثلة لمشاهد تقرب القارئ ما أمكن من الواقع ومن حقيقة الأمر. لنبدأ قراءة الواقع اعتمادا على الجلي من الوقائع، و إلا فما خفي منها أعظم، بل أدهى وأمر.

الكهربة القروية خارج السياق الحداثي

بداية أقول أن الكهرباء تعدّ مِنـّة ربانية كبرى على البشرية (ومن المعلوم بالضرورة أن الكهرباء تعد من مكونات الطبيعة، فالبرق وما

يحدثه من صواعق ليس إلا تماسات كهربائية بين السحب المكهربة؛ فكل ما فعله الإنسان أنه اكتشفها)، فلقد أحدثت نقلة نوعية بعيدة المدى، غيرت مسارات تحديث المجتمعات تغييرا جذريا، بحيث يمكن مقارنة ما تحدثه كهربة مُجمّع سكني، أو منطقة ما، من تغييرات جذرية في نمط الحياة اليومية، بما يحدثه نزول المطر بعد استحكام الجفاف. فلا يمكن للمرء المنصف إلا أن يصفق بحرارة لحدث كهربة جل المناطق القروية (البادية) بمغربنا الحبيب. لكن، لو توقفنا هنيهة عند مثال نزول المطر المنتظر بعد فصل الصيف الجاف (في مناخ متوسطي)، لوجدنا أن فترة الانتظار تعج بالحركية للاستعداد بما فيه الكفاية لتأمين الاستفادة القصوى من هطول المطر، في كل الميادين وعلى كل المستويات، والاستعداد لما قد يحدثه من أضرار.

يتهيأ الفلاح لنزول المطر بالعمل على تأمين أنواع البذور المطلوبة والأسمدة اللازمة، ويعمل على تأمين آليات الحرث الحديثة أو العتيقة كالمحراث والدواب وما إلى ذلك، كما يعمل على قلب الأرض وتهيئتها لتستقبل البذور في حالة جيدة كفيلة بتأمين منتوج جيد وبكمية عالية. كما يخطط لاستثمار ما يملك استثمارا مجديا؛ يخطط لبيع النوع الفلاني من الأنعام وكذا عدد منها، ليشتري النوع الفلاني الذي يمكّنه من إنماء أمواله بكيفية جيدة تضمن له الربح السريع. نعم، للاستفادة من نزول المطر المنتظر، لا بد للفلاح من الاستعداد على كل الواجهات قدر الإمكانيات المتاحة، وإلا فلن ينتفع من نزول المطر، بل قد يكون ضارا له ولبيته.

فكهربة العالم القروي تتطلب استعدادات من قبيل الاستعداد لنزول المطر، بل تتعداها بكثير في حيثياتها وتعقيداتها، نظرا للعديد من الاعتبارات. أولها أن الناس اعتادوا، منذ فجر الإنسانية، على الاستعداد

لاستقبال موسم الأمطار حتى أصبح الأمر فطريا نوعا ما، لا يتطلب تدبيرا خاصا ولا الكثير من التخمينات لمحاولة تحسس ما قد تؤول إليه الأمور. فإما أن ينزل المطر ويستمر في الهطول بكيفية منتظمة خلال السنة الفلاحية وهو أمر جيد؛ وإما أن ينزل المطر متأخرا أو بكيفية غير منتظمة، أو لا ينزل، وهي حالات تقتضي اتخاذ بعض التدابير التي تعود الفلاح على التعامل معها قدر المستطاع؛ وإما أن ينزل المطر بغزارة شديدة فتحدث فيضانات متسببة في بعض الخسائر أو الكثير منها، وهي حالة يكون قد تم أخذها هي كذلك بعين الاعتبار. أما موضوع كهربة العالم القروي، كحدث طارئ لا مثيل له ، من الوزن الثقيل، فلا يشبه نزولَ المطر من حيث حيثياته، بحيث يشكل قفزة كبيرة في عالم المجهول، لا دراية مسبقة للناس به؛ فهو حدث له حيثياته المستحدثة الخاصة به من حيث التخطيط والاستعدادات والترتيبات، ومن حيث التخمينات والتوقعات.

يسقط المطر فتدب الحياة في كل شيء على وجه الأرض وتتفاعل المكونات الترابية مع الماء بكيفية طبيعية رائعة، تعمل على تهيئة المجال والظروف الملائمين لنمو النباتات وتغذية الأشجار. هذا المكون النباتي يعمل بدوره على تزويد الهواء بمكوّن الأوكسجين الضروري لحياة الإنسان والحيوان وكذا النباتات، في المقابل يعمل على سحب الكاربون الملوث عبر استعماله في تكوين سوق (جمع ساق) النباتات وأوراقها، وكذا جذور الأشجار وجذوعها وأغصانها وأوراقها، كما يدخل الكاربون الممتص كمكون أساسي في كل أنواع الحبوب والفواكه والخضروات. إنه نظام رباني محكم، رائع (أو إن شئتم طبيعي، عند

من يرون في الطبيعة ذلك المكوّن النشيط القادر على خلق كل العوالم وتسييرها[1]، الخ)، يعمل على الحفاظ على الحياة على وجه الأرض من خلال تفاعل ثلاث مكونات أساسية فيما بينها: الصخور (التربة) والماء والشمس، بحيث تتفاعل المكونات الترابية والملوثات الجوية (الكاربون) والطاقة الشمسية وضوؤها فيما بينها لضمان بقاء عالم النباتات وتنميته وتطوره حتى يكوّن خزانا هائلا شاملا من العناصر والمكونات المطلوبة لاستمرار وجود الإنسان على وجه الأرض، وكذلك المكون الحيواني للحياة. إذن، انتظار نزول المطر هو تطلع لتأمين عنصر الحياة فوق الأرض، فهو انتظار لما يمَكّن من تفاعل كل المكونات الطبيعية للطبيعة فيما بينها.

هذا بالنسبة لعنصر الماء، فما هي الحيثيات المتعلقة بكهربة العالم القروي التي تشبه، كما قلت أعلاه، حيثيات نزول المطر، في جانب منها نظرا لما تحدثه في حياة الناس من انقلاب شامل، في كل الميادين وعلى كل المستويات. نعم، فكما هو معلوم، فإن كهربة العالم القروي، قد تسمو بالمنظومة الثقافية لساكنته (على غرار ساكنة المدن في الدول المتقدمة) وتجعلهم يتطورون إلى أحسن في كل ميادين الحياة، كما قد تُحدِث عندهم انتكاسة عميقة في المنظومة الثقافية البسيطة وفي العقليات، تجعلهم يتقهقرون وينحطون إلى الحد الذي يصبحون فيه عالة على أنفسهم، غير قادرين على إعالة أنفسهم، وكذلك عالة على غيرهم، يتعيشون على ما يسلبونه منهم. وعليه، فإذا ما أردنا لمشروع الكهربة أن يؤثر بكل إيجابية في العالم القروي، كالتأثير الطبيعي للماء، فلا بد

---

[1] - Voir notre livre « Mixité de l’enseignement et pédagogisme…, illusions et désillusions »

من التخطيط والتفكير والتدبير والتنظير اعتمادا على الأبحاث والدراسات الميدانية الشاملة والجادة. لابد من تهيئة الأرضية على أسس سليمة لجعل عامل الكهرباء يسهم في الإكثار من إنتاج الأكسيجين، بدل العمل على تلويث البيئة في كل مكوناتها، ماديا ومعنويا.

تبعات وإسقاطات الكهرباء على العالم القروي

هل تم القيام بأبحاث ودراسات ميدانية لتهيئة الأرضية التي تجعل من عامل كهربة العالم القروي عاملا حاسما في تغيير وجهه تغييرا يماثل ما يحدثه نزول المطر بعد انتهاء فصل الصيف الجاف، أم لا؟ للوقوف على حقيقة الأمر، فما علينا إلا أن ننظر إلى طبيعة التغيرات التي حدثت على أرض الواقع، ونستمع لما يقوله لسان حال الوقائع، فكما يقول المثل الدارجي "عيب لبحيره فتاشها" (لمعرفة عيب حديقة ما فلنقم بتفتيشها)، فلنعمل على تفتيش "البحيرة" لاكتشاف ما بها من عيوب. فإذا تبيّن أننا لم نقم بأية دراسات مسبّقة أو أية أبحاث، فلنحاول القيام بها، ولو متأخرا، لمعرفة ما حدث من تغيير في العقليات، وكذا ما عرفته المنظومة الثقافية من انقلاب في المفاهيم وفي الأولويات. فكما يقول المثل الفرنسي "ولو متأخرا أفضل من أن لا يحدث أبدا"(vaut mieux tard que jamais)، كأن نقول مثلا بخصوص تأخر نزول المطر "لأن ينزل المطر متأخرا، أفضل من ألا ينزل أبدا". لنقم بهذه الدراسات والأبحاث لمعرفة ما حدث بعد أن تمت كهربة العالم القروي، لنعمل على تصويب الأمور، قدر المستطاع، عبر القيام بما كان يجب القيام به قبل دخول مشروع الكهربة حيز التنفيذ.
لنعيد الإطلال على العالم القروي بعد أن تمت كهربة القرى والدواوير والمداشر وحتى الدور المنعزلة فوق التلال والجبال، من خلال تلك

المشاهد (أمثلة فقط) التي مرت بنا أعلاه، لإلقاء الضوء على المتغيرات وطبيعتها ومحاولة فهم ما حدث وما سيحدث.
تمت إضاءة البادية، فكان أول ما قام به القروي هو شراء جهاز التلفاز مزودا بطبق استقبال الإرسال. ويمكن تشبيه هذا الذي حصل لصاحبنا القروي بهطول أمطار طوفانية، أحدثت دمارا شاملا في البنية التحتية الهشة وفي الأراضي الفلاحية وفي المنازل وما إلى ذلك من الممتلكات، إلى الحد الذي أذهل السكان وأنساهم أمر تتبع أحوال ماشيتهم، مما جعل الكثيرين منهم يتركونها شاردة خارج الدار، خلال الليل. "الليلة الاولى ديال البارابول باتت لغنم (الأغنام) في الخلا" (خارج الدار)، هذا ما قاله قريب صديقي المهندس الإعلامي الذي يسكن بناحية الجديدة؛ إنها لعبارة بليغة، معبرة بكل بعمق عن الانقلاب المهول الذي يتمثل في الفرق بين ما كان عليه الحال من قبل وما طرأ فجأة بعد الكهربة وتركيب "البارابول" على السطح. نعم، لقد حدث قطعا ما شرد بالعقول بعيدا عن الواقع، حتى عن أولى أولويات القروي المتمثلة في ماشيته التي تمثل عمليا حسابه البنكي المفتوح. لقد طرأ ما أحدث زلزالا مدمرا في البنية الفكرية الهشة للقروي، وكذا في منظومته الثقافية التقليدية المتصدعة.
كيف لصاحبنا القروي الركبي أن يستمر في تقبّل الأمر الواقع، متمسكا بأذناب البقر والأغنام والبهائم، وقد وجد نفسه فجأة يتتبع كل شاذة وفادة مما يحدث في شوارع ومقاهي ونوادي "مكسيكو سيتي" ونيويورك. يرى الشاب أنخيل ينفرد بالجميلة منويلا، ويرى دجيمي المغرم بالشابة الأنيقة فيرجينيا يختلي بها في بيته، ويرى مارتين الذي تبتزه الخادمة اسبرينسا التي سبق لها أن حملت منه فطردتها أمه من البيت، وما إلى ذلك من مشاهد "الحب والغرام" المثيرة. هذه المشاهد أقعدت صاحبنا

الركبي وتركته مسلوب الإرادة، مشدوها، مشدودا إلى الشاشة العجيبة التي أحدثت ثورة عارمة في حياته، بحيث جعلته يحس بأنه قريب جدا من أنطونيو وريكاردو وأنجيلا ومارينا وأريانا وليون وكرسيلا وغيرهم، يفهم تماما ما يقولونه. لقد فوجئ أن المكسيكيين كالمغاربة تماما، يتكلمون مثلنا، بالدارجة المغربية القحة، لا يختلفون معنا إلا في الأسماء وفي بعض خصائص السحنة.

الحمد لله على الكهرباء، فقد جعلت السي الركبي يكتشف فجأة أنه غير هو الذي كان قبل تركيب البارابول، قبل أن تطل عليه الفاتنة فيرجينيا من التلفاز، ويطل هو كذلك عليها، ويتعرف على حياتها الشخصية في أحياء نيويورك. لا ينقصه شيء، إنه يتكلم مثلهم ويتكلمون مثله، فما الذي يجعله يعيش هذه الحياة البائسة، بينما هم يعيشون عيشة الملوك. فبدل الأغنام المتسخة المتعبة، يصحب المكسيكي أنطونيو، المغربي اللهجة، كلبا نظيفا ضخما، متحضرا ومخلصا، مستعد للدفاع عنه إذا ما هاجمه أي شخص. إنه ليس ككلاب الدواوير النحيفة المتسخة المثيرة للضجيج بسبب كثرة نباحها، والتي تعوّد على رؤيتها، إنه كلب لا ينبح أبدا، يركب السيارة ويجلس على فراش النوم ويأكل في المطبخ، لا فرق بين الإنسان والكلب في ثقافتهم. لقد تعرف صاحبنا لتوّه على المكسيكيين، بحيث تبيّن له أنهم يعيشون عيشا رغيدا بالرغم من أنهم يتكلمون مثلنا، بلهجتنا المغربية الدارجة؛ فحتى الكلاب متحضرة عندهم، تنعم بكل حقوقها.

فكما يقال، فقد حصل ما لم يكن في الحسبان، ونتيجة لما حصل "مشات لغنم (الأغنام) في سبعين داهيا" كما يقال (ضاعت الأغنام، لم يعد يهمه أمرها)؛ ها هم المكسيكيون، يتكلمون بدارجتنا ويعيشون عيش الملوك، من دون أغنام ولا أبقار ولا بغال، ولا حمير، ولا كلاب كثيرة النباح.

إنهم يكسبون الأموال بأسهل الطرق، من دون تعب، ولا من دون أن تتسخ ثيابهم الرفيعة والجميلة. يعيشون حياتهم وهم يعملون، ويعملون وهم يعيشون حياتهم؛ "ديابلو" يتغذى مع صديقاته وأصدقائه، وكل واحد يخطط لما سيقوم به لتأمين المال المطلوب من دون إتعاب أنفسهم "في السرحة ديال لغلام (الأغنام)" (أي رعايتها).

ثم، كيف لصاحبنا الركبي أن يرضى لنفسه، من الآن فصاعدا، أن يعيش عمره كله مع هشوما، التي تفوح دائما روائح كريهة، من كثرة الالتصاق بالأغنام والأبقار، تحلبها وتطعمها. لقد سلبته منويلا لبه بجمالها، بثدييها الكبيرين اللذين يبدوّان كأنهما تنتفخان، كأنهما تندفعان إلى الخارج عبر الفتحة الصدرية المثيرة. فكما يقال "حتى أنا على سعدي ووعدي" جلست أمام التلفاز لأتفرج على حلقة من حلقات مسلسل "ديابلو" لأتكلم عنه على بينة من الأمر، بحيث شاهدت فعلا ما من شأنه أن يدفع بصاحبنا بوعزة للتنكر لطريقة عيشه ولهشوما، زوجته، وكذا للأبقار والأغنام، حسابه البنكي المفتوح، وحتى لإسمه الركبي، حيث تثيره الألف واللام وكذا الكاف المشددة التي تجعله يبدو مشوها. يريد من زوجته وأقرانه وجيرانه، من الآن فصاعدا، أن ينادوه "روبي"، حتى يتماهى مع أسماء أولاد الحومة بمكسيكو سيتي ونيويورك.

هشوما، زوجة صاحبنا "روبي" لم يكن حالها أحسن حالا من زوجها الركبي، من جراء الزلزال المدوي الذي حدث داخل جدران بيتها الذي أصبحت ترى فيه كوخا لا يليق بها. ما الفرق بينها وبين منويلا وفيرجينيا وكرسيلا وغيرهن، حتى تعيش "عيشة الدبّانة في البطانة" (عيش الذبابة في الجلود المتفسخة) كما يقول المثل الدارجي؟ إنها تتكلم مثلهن، بنفس اللهجة الدارجة المغربية، تفهمهن جيدا كامرأة مثلهن، فما

الذي يجعلها ترضى بالعيش عمرها كله في كوخ، مع الركبي الخشن في كل شيء، فهو لا يحسن إلا الصراخ، لا يفرق بينها وبين الأبقار والأغنام؟ ثم كيف لها أن تقبل بالاستمرار في العيش بين المواشي والبهائم وتشطيب الأزبال؟ كيف لـ"روبي" أن يحترمها ويعاملها بلباقة وهي على هذه الحال من الإهمال لنظهرها؟ هل المكسيكيات اللواتي تعرفت عليهن هذه الليلة، وأحست أنها قريبة جدا منهن، تفهم جيدا ما يقلن (الله يبارك في الدارجة)، هن أذكى منها حتى تعشن حياة النعيم الخيالي وتعيش هي هذه الحياة البائسة؟ فما عليها إلا أن تحوّر إسمها الخشن من هشوما إلى "شوما"، ثم ترمي بهذا اللباس لعروبي (البدوي) التقليدي الخشن وتلبس مثل فيرجينيا المكسيكية وتصفف شعرها مثلها، حتى تبدو جميلة منتفخة الصدر مثلها، فتصبح هي كذلك محط اهتمام الرجال، أقران روبي، وحتى من هم أرقى منه. ثم، بالرغم من المعاملة اللائقة للرجل المكسيكي للمرأة، زوجته أو خليلته، فقد تُقرر تركه لأدنى سبب أو من دون سبب، وتذهب لقضاء ليلتها مع أصدقائها وصديقاتها، ليترك هو كذلك حرا في قضاء ليلته مع صديقاته وأصدقائه. نعم، لا مكان للروتين اليومي في نمط حياة المكسيكيين على دوزيم، فما الذي يمنعنا من أن نعيش مثلهم، خاصة أنهم يتكلمون بلهجتنا، بالدارجة المغربية؟

شاهدت، قبل بضعة أشهر، لقطة من مسلسل مكسيكي، أثارت انتباهي وفضولي إلى حد كبير. تظهر في المشهد السينمائي امرأة متقدمة في العمر (تناهز الستين سنة) متزينة، لابسة لباس ليلة الزفاف، تحيط بها فتاتين من قريباتها؛ ومما أثار انتباهي أن المرأة العروس كانت تضحك وتبكي في نفس الوقت. سألتها إحدى قريبتيها، لماذا تبكين يا عمتي في ليلة زفافك، ألست سعيدة؟ أبدا... يا بنيتي، بقدر ما أضحك من كثرة

الفرح، فأنا أبكي خوفا مما ينتظرني؛ فكيف لي أن أقضي عمري كله مع رجل واحد، إنه فعلا أمر مفزع، لا يطاق تصوره. وفي لقطة لمشهد آخر، شاهدتها قبل بضع سنين، قالت الأم (المكسيكية) لابنها وهي تتبادل معه أطراف الحديث بهدوء: لا أدري من هو أبوك، هل هو أنطونيو أم ريكاردو أم مارتين أم سانشيز، أو..؟

يا لها من ثقافة متحضرة، راقية؛ حقوق الأفراد، بل وحتى الحيوان، أصبحت من بديهيات الأمور في كنفها، على شاشى دوزيم وليس في المكسيك. الرجل والمرأة والطفل، كل واحد حر في رأسه (كما يقال عندنا)، حر في أن يفعل ما يحلو له من دون اعتراض من طرف زوج أو ولي أمر أو غير ذلك. ثقافة لا مكان فيها للروتين ولفرض الرأي على الآخر، ولخلق التوترات؛ فهي تمثل بحق المفتاح الضروري للحداثة التي نتطلع إليها لخلق مجتمع حداثي يقطع مع جذوره الحضارية ومع النظرة الرجعية للأمور لمن هم أمثالي ومن طينتي. هذه هي الحداثة وإلا فلا (تعبير بالعربية عن مقولة دارجية المعنى)، فحتى الطفل في هذه المجتمعات بلغ درجة متقدمة من النضج والرزانة، بحيث لم تجد الأم أدنى حرج في مفاتحة ابنها الصغير في أمر خطير يتعلق بمعرفة من هو أبوه. لم تظهر على الطفل أية انفعالات عاطفية أو تشنجات، فلقد تقبل الأمر بروح رياضية، كما يقال؛ فقد رضع هذه الثقافة التسامحية "التماسخية" في حليب أمه وتنشقها في نسيم بلاده. لم يقسُ على أمه ويعيّرها بما فيها، وبأنها أنانية، لا تعيش إلا لنفسها ولا يهمها أمره وإحساساته، أو أن يفقد صوابه ويقوم هاربا، يسب ويلعن وينعتها بأبشع المواصفات... لهذا عملت دوزيم على تطعيم المغاربة بهذه الثقافة الحداثية آخر موديل.

هذا هو الموديل الحداثي

والجميل في هذه المسلسلات المكسيكية (التي شب في كنفها شبابنا على مدى أكثر من 25 سنة، ربع قرن) التي تمثل رأس الرمح الإعلامي في المخطط الذي يرمي، على ما يبدو، إلى خلق مجتمع مغربي حداثي على الطريقة المكسيكية، أنها تؤسس لمفاهيم جديدة، ولتصرفات وتعاملات أكثر جرأة مما سبق أن تطرقنا له أعلاه. فكم هي المشاهد التي تظهر فيها البنت مغرمة بعشيق أمها أو العكس، مع ما يصاحب ذلك من صراع خفي أو ظاهر بينهما. وهناك مشاهد يتصارع فيها الابن مع أبيه، أو العكس، بخصوص عشيقة يعمل كل واحد منهما على استمالتها إليه والانفراد بها. وفي هاتين الحالتين قد تبدو في المشهد تشنجات وحروب خفية بين البنت وأمها والأب وابنه، بينما تكاد تنتفي هذه المظاهر، على الأقل في الظاهر، حينما يتعلق الأمر بعلاقة غرامية بين الزوجة وعشيقها أو الزوج وعشيقته؛ فلكل واحد عشيقاته ولكل واحدة عشاقها. كما أن الأمر الإيجابي في هذه المسلسلات (في الثقافة المكسيكية التلفزيونية التي يتم نفث روحها في الجسد المغربي) أنها خالية من مشاهد إثارة القلاقل فيما يتعلق بالتحرش الجنسي الذي أصبح كالسيف المسلط على رقاب الرجل من طرف المرأة. في مكسيك هذه المسلسلات، الكل يتحرش بالكل، بحيث يبدو مفهوم المساواة بين الجنسين (مفهوم الجندر) مفهوما بطريقة عملية سليمة؛ فمادام ليس هناك فرق بين المرأة والرجل، فلا داعي لإثارة العواصف في أكواب الماء؛ قد يبادر الرجل المرأة، كما قد تبادره هي، فالأمر طبيعي، ففي حالة الإبقاء على هذا القانون، فلن يبقى لشعار المساواة بين الجنسين أي معنى، فيا ليتنا فهمنا الأمر كما فهمه المكسيكيون. فمن تتجمل لاصطياد

عشيق، أو ليصطادها عشيق (مفهوم الجندر مهضوم)، لا تذرف دموع التماسيح مسلحة بقانون التحرش الجنسي...

استوعب كل من "روبي" (ركبي) و"شوما" (هشوما) هذه الحيثيات كلها في وقت وجيز، واستوعبها الجيران وسكان باقي الدواوير كذلك، بفضل لهجة الدارجة التي يتكلمها حتى المكسيكيون. لكن صاحبنا وزوجته كبرا في السن إلى حد ما، فليس من السهل الانسلاخ من كل الموروث الثقافي القروي والأعراف الاجتماعية بسهولة. لقد تأثرا إلى حد بعيد بنمط عيش المكسيكيين الذين تجمعهم بنا رابطة "اللهجة" الدارجة المغربية القحة. شكرا لـــ"دوزيم"، لقد قرّبت البعيد، وفتحت أعين سكان قرانا النائية على قيم حداثية ذات نكهة مكسيكية، وهي التي ستجعلنا نتمرد على واقعنا الروتيني وعلى قيمنا الحضارية المتجاوزة التي تتمحور حول الحياء والغيرة وتقديس الأسرة والاعتزاز بالعلاقات العائلية واحترام الكبير للصغير وتوقير الصغير للكبير، وقوامة الرجل في الأسرة أي تتمحور حول مرتكزات الحضارة الإسلامية والأعراف الاجتماعية (تبني مدونة الأسرة حولت القوامة الفعلية للمرأة التي يمكنها أن تأخذ بيت زوجها وكل ماله وتزج به في السجن لأتفه الأسباب، بينما الحداثة والحكامة ومحاربة الهشاشة تقتضي أن زرع السكينة والطمأنينة في البيوت وأن يضمن القضاء العادل حقوق كل من الزوج والزوجة).

شكرا لـــ"دوزيم" "(2M)"، شكرا لقناة الميمين (2 م)، التي زاوجت بين ميم المغرب وميم المكسيك؛ لقد جربنا المسلسلات المصرية، من قبل، وتفاعلنا مع الأفلام الهندية في قاعات السينما، إلا أنها لم تحدث فينا ذلك الانقلاب العميق على موروثنا التقليدي من القيم المتجاوزة! إلى أن جاءت القناة التي اتخذت لها إسما مزج بين ميمي المغرب والمكسيك، لتعمل على عجن المغربي ومزجه برحيق ثقافة مكسيكية

بنكهة الصامبا البرازيلية لبلورة شعار الحداثة المتوخاة كمفهوم على أرض المرابطين والموحدين والسعديين والعلويين.
السيد، أو إن شئتم السينيور "روبي" المتقدم في السن شيئا ما " لن يبلغ به الأمر حد التماهي كلية مع كل حيثيات الحداثة المكسيكية، فلن يصل به الحال، مثلا، إلى حد الدخول في صراع مع ابنه اليافع بسبب عشيقته. إلا أن "شوما"، بالرغم من أنها قرينة "روبي" في السن، فيبدو عليها أنها أكثر قابلية للعجن وللمزج بثقافة الحداثة المكسيكية؛ فلن تتحرج في مفاتحة ابنها مثلا، إن اقتضى الحال ذلك، بخصوص معرفة من هو أبوه، حتى وإن كان أب أبنائها وبناتها هو "روبي" مائة في المائة. فالمرأة من طبيعتها التماهي كلية مع ما تهوى وتحب، فهي لا تقبل بالوقوف في نصف الطريق، ولا تقبل بأنصاف الحلول. حكى لي أحد الأقرباء عما عاينه من خلال برنامج "خيط أبيض" الذي تعمل "دوزيم" (قناة الميمين) من خلاله على الإصلاح بين مكونات العائلة المغربية قدر المستطاع !!!؛ حكى لي عن امرأة مغربية (مزجتها المسلسلات المكسيكية مزجا بالثقافة المنحطة التي تؤصل لها) تم جمعها بابنها لتصارحه بأنها لا تعرف من يكون أبوه (هل هو فلان، أم فرتلان، أم علان،..). ياله من فتح حضاري حداثي مبين، لا يترك معلما حضاريا وثقافيا إلا اقتعله من جذوره...
فكما تقول الأمثال الدارجية عندنا، وحتى عند المكسيكيين على قناة الدوزيم (حيث يتكلمون نفس اللهجة الدارجة مثلنا)، "كيكوي ويبخ"، و"كيقتل الميت ويمشي في جنازتو (في جنازته)"، و"كيبيع القرد ويضحك على اللي شراه". أردت التعرف على ما أمكن عن برنامج "خيط أبيض" على قناة الميمين، باستعمال الملاح غوغل (navigateur google)، ففوجئت بالكثير من المقالات التي تهاجمه وتهاجم القائمة

عليه وكذا القناة وبعض المشرفين عليها، لاستخفافهم بعقول المغاربة والضحك على الذقون كما يقولون.

"لنعود إلى أكباشنا" (revenons à nos moutons) كما يقول المثل الفرنسي، فلن أشرد بعيدا عن قصة هذه المغربية التي تشرّبت إلى النخاع من رحيق ثقافة المسلسلات المكسيكية التي عملت كل من "دوزيم" والقناة الأولى، وتعمل على غرسها في تربة بلاد طارق بن زياد ويوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور، والمولى إسماعيل والمولى سليمان، والقاضي عياض والمختار السوسي، وعبد الكريم الخطابي، وابن بطوطة والشريف الإدريسي وابن خلدون الخ. يبدو جليا، لأول وهلة، أن برنامج "خيط أبيض" الدوزيمي يهدف إلى تقصي مدى تمكن قناة الميمين من عجن المغربي بثقافة المسلسلات المكسيكية وتطويعه ليتماهى كلية مع هذا النوع من الحداثة الساقطة. أتذكر مشهد تلك المرأة في أحد هذه المسلسلات، والتي كانت تتكلم اللغة العربية الفصحى آنذاك (قبل أن يتعلم المكسيكيون دارجتنا ليتمكنوا من التفاهم معنا على طول، كما يقال)، وهي تقول لابنها أنها لا تدري هل أبوه هو أنطونيو أم ريكاردو أم مارتين أم سانشيز؛ وتمر السنين ليخرج برنامج خيط أبيض على المغاربة بمغربية قد "تمكسكت" حتى النخاع (تشربت روح ثقافة المسلسلات المكسيكية) لتقول لابنها هي كذلك أنها لا تدري من هو أبوه (هل هو الزغبي أم زعطوط أم المزلوط، ...؟).

لقد نجحت "دوزيم" في المزج بين الميمين، بل لكي أكون أكثر دقة، أقول أنها نجحت في إدماج الميم المغربية في الميم المكسيكية، بحيث لم تؤثر الميم المغربية بأي حال من الأحوال في الميم المكسيكية؛ فلقد تمت تعبئة المغربي بكيفية متواصلة بمُركّز من حداثة ثقافة المسلسلات المكسيكية، بينما المكسيكيون لا يعرفون عنا أدنى شيء. لما جاءت

المكسيكية التي كانت تمثل دور كوادالوبي (في المسلسل الذي يحمل هذا الاسم) إلى المغرب كمدعوة لحضور مهرجان أسبوع الفرس، استقبلت شعبيا استقبال العظماء الفاتحين وشكلت دار السلام (حيث يوجد نادي الفروسية) قبلة الرباطيين والسلاويين ومن جاؤوا من بعيد. ومن الأخبار الرائجة أنها فوجئت كثيرا بحرارة وضخامة الاستقبال والإقبال عليها، وقالت بصراحة، قل نظيرها عندنا، أنها فوجئت كثيرا لأنها غير معروفة من غالبية المكسيكيين في بلادها. ممثلة مغمورة في بلدها تحولها قنواتنا التلفزيونية إلى مثال يقتدى للفتاة المغربية المسكينة (والفتى المغربي) التي أصبحت كـ"الحمار الجشع" في سلسلة "إقرأ" لأحمد بوكماخ، والذي ما فتئ يتنقل في المرعى من نقطة إلى أخرى؛ كلما بلغ مكانا معشوشبا سبق أن أثار شهيته، بدا له المكان الذي يليه أكثر إثارة للشهية منه، وهكذا دواليك حتى انتهى به المطاف إلى نقطة الانطلاق التي تحوّل عنها إلى التي تليها عندما دخل المرعى. نعم، انتهى به الحال للعودة إلى نقطة الانطلاق، وقد يعاود دورانه في حلقة مفرغة، كحمار لا يدري أين البداية وأين النهاية. عاد الحمار إلى نقطة البداية من غير أن يدري، فهلا عملنا نحن على العودة إليها عن دراية، بدل أن نستمر في البحث عن منظومة ثقافية حداثية بمواصفات لا تمس لجذورنا الحضارية بصلة ولا لما نتصوره. تنقلنا من المسلسلات المصرية إلى المسلسلات المكسيكية وها هي "دوزيمنا" الرائدة تنقلنا مرة أخرى إلى المسلسلات التركية والصينية؛ يتم التنقل بنا من منظومة ثقافية إلى أخرى نظنها أحدث من سابقتها، دونما تقييم علمي موضوعي لما سبق، ولا تقويم سليم لما لحق على ضوء ما سبق، ومن دون تصور واضح المعالم لما نريده ونتشهاه، اللهم إحداث شقوق غائرة في صرح

منظومتنا الحضارية الأصيلة الراقية التي تعمل معاول الهدم والتدمير على إضعافه قصد تدميره بكل السبل.

الإنسان ابن بيئته

عجيب أمرنا، ماذا حدث لنا كشعب عريق الحضارة والتحضر، حتى أصبحنا مثقبين كالاسفنج (البونجة)، قابلة لتشرّب كل أنواع السوائل التي قد تقع عليها، لا فرق بين الملوث منها والغير ملوث. ماذا أصابنا حتى أصبح الغالبية منا "حرّاكة"، إما هربا بالجسد والجوارح بواسطة قوارب الموت، وإما شرودا بالفكر والأحاسيس؟ كما يبدو جليا، فقد أخذت قناة "دوزيم" وباقي القنوات، على عاتقها لعب دور محوري في تصريف شعار الحداثة المتغنى به على أرض الواقع بلسان حال وأحوال المسلسلات المكسيكية، على الخصوص. فلماذا لم تعمل "دوزيم" على تقوية مناعة هذا الشعب، الذي يؤدي فاتورة وجودها كفضائية، لجعله يقبل على تحديث البلاد على أسس سليمة تضمن له هويته الحضارية والثقافية على غرار ما قامت به كل الدول التي تبنّت الحداثة كمنهج عمل للتقدم الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والتكنولوجي كأهداف لا حياد عنها، من قبيل اليابان وكوريا الجنوبية وماليزيا وتركيا؟ نريد من المشرفين على تسيير قناة "دوزيم" أن يستعينوا بخدمات من يثقون في كفاءاتهم كباحثين اجتماعيين واقتصاديين وكمفكرين ليؤتونا بمثال واحد لبلد تقدم علميا وتكنولوجيا واجتماعيا واقتصاديا بعد أن انسلخ من هويته الحضارية والثقافية.

سبق أن كتبت فيما قبل[1] ما يلي، منقحا: "فحتى في عالمي النباتات والحيوانات، فإن السمة المشتركة تتمثل في خاصية التأقلم والتفاعل الانتقائي مع المحيط الطبيعي الذي تعيش فيه، أي أن هناك هوية بيئية بمواصفات خاصة. فالأغلبية الساحقة من الأنواع مهيأة للعيش في بيئة خاصة بها، لا يمكن لها أن تحيد عنها كثيرا. ومن الأمثلة الرائعة على هذه الخصائص البيئية الطبيعية ما هو معروف عن شجرة الأركان (arganier) التي لا تتواجد (طبيعيا) إلا بالمغرب، غرب سلسلتي جبال الأطلس الكبير والصغير. فالأصل في عالم الحيوانات والنباتات إذن هو التخصص البيئي وتميزه، وكذا خاصية تأقلم كل نوع من أنواع الحيوانات والنباتات مع محيطه؛ فإذا ما تم إخراج أي نوع من بيئته، أو إذا ما أصابها تلوث ما، فإنه سيعاني مشاكل كثيرة، هذا إن لم يصب بالتلف.

فحتى في عالم الجماد والصخور، فإن غالبية أنواع وأصناف الصخور، تتميز بهوية بيئية جيولوجية واضحة المعالم، بحيث تتفاعل بكيفية مغايرة مع تغير عوامل التعرية التي تتغير من مناخ لآخر. كما أن تكون العديد من أنواع الصخور الرسوبية تبقى لصيقة بنوعية المناخ والبيئة التي تتكون فيها. وهذه الخاصيات هي التي تمكّن من التعرف على الظروف المناخية والبيئية التي تكونت فيها الصخور الرسوبية عبر الأزمنة الجيولوجية السحيقة، مما يمكن من التعرف على الجغرافيا القديمة للأرض في حقبة جيولوجية ما. كما أن المعادن والعناصر المكونة للصخور الصهارية (roches magmatiques) لا

[1]- التعليم بين الكفايات والإدماج، من كرة القدم إلى نظرية داروين

تكون مستقرة إلا في البيئية الجيولوجية الأصلية، أي في أعماق الأرض، فلا يمكنها أن تبقى مستقرة على وجه الأرض، بحيث ما أن تصبح تحت تأثير العوامل المناخية الخارجية حتى تبدأ في التفسخ والتحلل و"التغير (altération) البطيء لتتحول إلى تربة خصبة مع مرور الزمن. كما أن الصخور الرسوبية التي تتكون على سطح الأرض، ما أن تبدأ في الاندساس إلى الأسفل، في اتجاه أعماق تصاعدية، حتى تبدأ أحوال المعادن والعناصر المكونة لها في الاضطراب لينتهي بها المطاف إلى التحلل، تاركة المجال لتكوّن معادن جديدة، ذات خصوصيات تضمن لها الاستقرار في الأعماق التي تبلغها، وهو ما يعبر عنه جيولوجيا بظاهرة التحول.

فهل يعقل أن تحيد المجتمعات الإنسانية عن نظام السنن الكونية الذي يشكل قاسما مشتركا بين كل العوالم المكونة للطبيعة (الجماد، النبات والحيوان والإنسان)؟ بخصوص الجنس البشري مثلا، توجد هناك فوارق ومفارقات كبيرة فيما يتعلق بالخصوصيات الحضارية والثقافية للمجتمعات والشعوب. فنحن كمغاربة مثلا، نمتاز بخزّان حضاري راق ضارب في أعماق التاريخ، كما أن لنا اليوم قيم وعادات وتقاليد وأعراف ومفاهيم تمثل خصوصيتنا الثقافية والاجتماعية، بحيث نتميز بعقليات متأخرة وتدني في مستوى دخل الأفراد وتدني المستوى المعيشي وما إلى ذلك (ظروف اجتماعية واقتصادية غير مرضية)، فهل يعقل إذن أن نقدم على استنساخ المنظومة التربوية والتعليمية لفرنسا والتي أعدت لشعب لا يجمعنا به أي قاسم مشترك؟ فالمنظومة التربوية تشبه شجرة الأركان في خصوصياتها وتأقلمها مع بيئتها ومحيطها، فهي ليست للاستنساخ والاستنبات في ظروف اجتماعية وثقافية مغايرة. فحتى في داخل الفضاء الأوروبي الذي تجمع شعوبه

نفس الثقافة والقيم، ويحكمهم نفس الإطار السياسي العام (الاتحاد الأوروبي)، فلم تعمل بلجيكا على اتباع خطى جارتها فرنسا في الإصلاحات التي أدخلتها على منظومتها التعليمية. فقد حافظ البلجيكيون على منظومتهم التربوية الكلاسيكية، خاصة عندما تبين لهم مدى الأعطاب التي أصابت المنظومة الفرنسية من خلال مسلسل الإصلاحات التي خضعت لها. باستنساخنا واستنباتنا لمنظومات تربوية لا تتناسب مع تربتنا الحضارية والثقافية والاجتماعية عملنا على إفساد هذه التربة، بحيث لم تعد صالحة لاستنبات ونمو قيمنا ومقوماتنا والتي لن يصلح حالنا من دونها، تماما كما تفعل أشجار الأكليبتوس والصنوبر التي تنبعث من أوراقها وجذورها مواد كيميائية حامضية تفسد التربة، فتصبح غير صالحة لإنبات ونمو باقي أنواع الأشجار والنباتات، بحيث تبدو الأرض تحتها جرداء قاحلة".

سبق أن كتبت هذا بخصوص منظومتنا التربوية والتعليمية، فكيف سيكون الحال إذا تعلق الأمر بمسخ الهوية الحضارية والثقافية للإنسان المغربي الذي نمنّيه بالحداثة والتحديث، بينما نعمل على تحلله وتفسخه وتمييعه ليصبح عبارة عن جسد بلا روح، مفتقدا لأدنى مقومات المناعة الحضارية الضرورية لاستمراره في الوجود ككيان له خصوصياته، قادر على التفاعل الإيجابي مع محيطه، كما كان على الدوام. توسعت الإمبراطورية العثمانية (الإسلامية وليس الهندوسية، أو ما إلى ذلك) شمالا وجنوبا وشرقا، إلا أنها توقفت غربا على حدود الكيان المغربي (المسلم هو كذلك) كلؤلؤة متألقة في الغرب الإسلامي. تألقت الأندلس كجوهرة حضارية فريدة في التاريخ (في كل الميادين، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وعلميا على الخصوص)، بحيث أنارت ظلام أوروبا الحالك وأخرجتها من سباتها وجهلها واستبدادها لتبدأ

مسارها التحديثي (بالمعنى الحقيقي للكلمة) في انسجام مع أعرافها ومقوماتها الدينية والحضارية والثقافية، بعد أن سطوا على موسوعتنا العلمية الجد متقدمة ومقومات التحضر المدني الراقية (هندسة المدن وتنظيمها تنظيما محكما والترسانة القانونية وما إلى ذلك). كان الأسطول البحري المغربي في عهد يعقوب المنصور الذهبي يمثل القوة البحرية الضاربة الأولى في العالم، بحيث شكل سندا قويّا، أعان صلاح الدين الأيوبي في حربه ضد الصليبيين الذين هزمهم.

تم السطو على كنوزنا الحضارية الراقية (اكتشافات علمية رائدة، علوم اقتصادية واجتماعية، الخ) من طرف من استفاقوا من سباتهم، ليتحولوا إلى نمل دؤوب الحركة محكم التنظيم، في الوقت الذي تحول فيه المغربي الأندلسي إلى صرّار يقضي يومه في "التزمار وللاّ ومالي" كما نقول بالدارجة الفصحى (مسمى للالتفاف على أحد مقوماتنا الحضارية الأساسية المتمثلة في اللغة العربية). يحكى أن الفرنجة (كما كانوا يسمّون) لما أرادوا أن يقضوا على المسلمين والعرب في الأندلس، كانوا يعملون على تتبع كل ما يطرأ على أحوالهم الاجتماعية ومنظومتهم الثقافية وعلى عقليات الشباب الأندلسي، لتحيّن الظروف المواتية لاختيار الوقت المناسب للهجوم عليهم. لقي أحدهم شابا أندلسيا جالسا يبكي في مكان منعزل تحت شجرة، فلما سأله عن سبب بكائه، أجابه أنه يبكي لأن الفرنجة هجموا على بعض الثغور الأندلسية، بينما هو غير قادر على الذهاب للتصدي لهم وطردهم بعيدا. فما كان من هذا الإفرنجي المتتبع لأحوال الأندلسيين إلا أوصى في تقريره بتأجيل مخططهم للهجوم على الأندلس إلى زمن آخر تكون فيه الظروف مواتية لذلك. بعد مرور ما يقارب من مائتي سنة على هذا الحادث، حصل نفس الشيء مع شاب

آخر؛ فلما سئل عن سبب بكائه، أجاب أن له موعد مع صديقته لكنها تأخرت، وقد لا تأتي... توصل الإفرنجي في استنتاجه (بعد أن تقاطعت عنده كل المعطيات) إلى أن الظروف أصبحت جد مواتية للهجوم، فأوصى بذلك في تقريره الذي رفعه للمسؤولين السياسيين. ومما يثير العجب، بل السخرية، من أحوالنا أننا لا نعرف عن حضارة بحجم حضارة الغرب الإسلامي في الأندلس (حضارتنا) وما خلفته من اكتشافات علمية رائدة بكل المقاييس، وكذا الأعمال الفكرية والاجتماعية والفلسفية، إلا إسم الموسيقار زرياب الموهوب والذي جعل أوتار العود خمسة بدلا من أربعة، وما إلى ذلك من المواويل. كما أن من تم طردهم من الأندلس بعد استيلاء "الفرنجة" عليها، لم يصحبوا معهم سوى مواويل الطرب الأندلسي والطرب الغرناطي التي شبهها أحد الأصدقاء بأنها تمثل وثائق الإثبات في صك الاتهام الموجه إلى من أضاعوا الأندلس بعد أن تحولت لياليهم إلى صاخبة حمراء، بعد أن كانت ليالي يعمها السكون لتؤمن الراحة للفرد المسلم من عناء العمل المضني خلال طول النهار.

ولمعرفة مدى التأثير العميق والتغيير الجذري الذي أحدثته هذه العلوم عند الغرب والذي أقام على أسسها حضارته المعاصرة، أورد هنا حوارا لي مع زميل، باحث إسباني في علوم الأرض، من جامعة "كومليطانسي" بمدريد، يدعى "ميكيل أنجيل دو سان خوسي" (كاطوليكي متدين)، في طريق عودتنا من مهمة بحث ميدانية بناحية المحمدية وبنسلمان. كثيرا ما سألني خلال ذلك اليوم عن أسماء عربية كثيرة مستعملة أصبحت من اللغة الاسبانية، وعن عادات غذائية واجتماعية شبيهة بعاداتنا، وفي الأخير جاء دوري لأسأله. سألته "هل يعتبر الإسبان أن القرون الثمانية التي حكم فيها المسلمون الأندلس تمثل

نوعا من الامبريالية العربية الإسلامية والاستعمار؟ احمر وجهه، وأجابني بصوت مرتفع:" أبدا، إنها تمثل أحسن حقبة في تاريخ اسبانيا على الإطلاق، ولا تنسى أن اقتصاد إسبانيا لا زال يستفيد وينتعش من معالم هذه الحضارة في الجانب السياحي (و ذكر قصر الحمراء وغيره)، حيث المداخيل بعشرات الملايير من الدولارات سنويا. كما أن جامعات قرطبة وغيرها من المدن آنذاك كانت تضاهي الجامعات الأمريكية حاليا، حيث كانت تشكل محجا لعلماء المعمور، وهذا ما جعل اسبانيا (الأندلس) تشكل القنطرة التي مرت عبرها العلوم والحضارة إلى العالم الغربي ونحن، الإسبان، نفتخر بكل هذا ونعتز به كثيرا".

أستاذ جامعي اسباني مسيحي يفتخر بالحضارة الأندلسية ويعتز بها، ألسنا نحن المغاربة أحفاد هؤلاء العظام، من يفترض فينا أن نفتخر بها ونجعل من العمل على الرجوع إلى مصادرها نبراسا ومنارة تهدينا إلى الطريق التي علينا أن نسلكها للخروج من مدار الانحطاط والتخلف الذي ندور فيه في حلقات مفرغة يفضي بعضها إلى بعض؟ على المغربي أن يعلم أنه حفيد عمالقة العلم والفكر والدين والفلسفة والأدب، وسوف لن أتحرج من طول اللائحة التي تعرّف بالمرموقين من هؤلاء النوابغ في آخر هذا الكتاب كهدية مني لكل مغربي محبط العزيمة، مستسلم لمنطق التخلف والانحطاط، حتى يستجمع قواه ويحدد وجهته على دراية من أمره وعلى علم بمكامن قدراته ليستأنف المسير. وبالرغم من أن كل العلماء المسلمين يمثلون منارتنا في ظلام تخلفنا الحالك، فقد اكتفيت بالتطرق لعلماء المغرب الإسلامي فقط حتى لا يطول بنا المقال كثيرا، وحتى نعلم أن المغرب لم يكن في يوم من الأيام عالة على الشرق أو الغرب، ولا على الشمال أو الجنوب، حتى يصبح في "آخر ايّامو" (في آخر أيامه)، كما نقول بالدارجة، عالة على

المكسيكيين ومن هب ودب، يقتفي آثارهم، كما تريد لنا قناتنا المحترمة "دوزيم" وغيرها، ويتقصّى سبلهم ويسلك نهجهم للعمل على تحديث الإنسان المغربي على طريقة كارنفالات الصامبا البرازيلية وعصابات الاتجار في البشر وفي المخدرات المكسيكية. ذهلت لما تعرفت على أن أكثر من 50000 (خمسين ألفا) ميكسيكي قتلوا بين 2006 و2011 بسبب الاقتتال بين عصابات الاتجار في المخدرات وفي الجنس البشري.

الكهرباء والإعلام وتحديث العالم القروي

كما أوضحت أعلاه، يمكن تشبيه كهربة منطقة ما بنزول المطر، بخصوص ما تحدثه من تأثيرات وتغييرات عميقة، على كل الأصعدة. فكهربة العالم القروي تحدث قطعا تغييرات شاملة وعميقة في المنظومة الثقافية للسكان وفي عقلياتهم، وكذا في البنية التحتية للإنسان، إما سلبا أو إيجابا. تطرقنا لبعض المشاهد لما أحدثته كهربة عالمنا القروي من تأثيرات سلبية عميقة على تدبير العنصر البشري لشؤون حياته اليومية. ولقد بيّنت هذه المشاهد أن الإعلام، السينمائي التلفزيوني على الخصوص، الذي انتشر في العالم القروي وتجدّر بالموازاة مع توسّع الشبكة الكهربائية، هو من أحدث ذلك الزلزال العنيف على مستوى البنية الفكرية الهشة للإنسان القروي وفي منظومته الثقافية المتلاشية التي تفتقد لعناصر المناعة الحضارية. لقد لعب البث التلفزيوني المزود بأطباق استقبال بث الفضائيات الوطنية والدولية، خاصة قناتي "دوزيم" و"الأولى" الوطنيتين، دور حقن المبتدئين بمخدرات مهيجة تجعل منهم عناصر يشكلون خطرا على أنفسهم قبل أن يشكلوا تهديدا غيرهم. من يتعاطى، مثلا، "للقرقوبي" المهلوس، يكون ذا قابلية عالية لإيذاء نفسه

(بالضرب بالسكين، أو بأي شيء مؤذ آخر) إلى حد بعيد، وكذا إيذاء الآخرين، ويا ما أخطر من الهلوسة التي تحدث زلزالا مدويا في البنية الفكرية لإنسان ما.

قد يقال "مهلا، مهلا، لقد تحاملت "آ السي فلان" على الإعلام إلى حد بعيد، خاصة منه البث التلفزيوني، أتريد أن تُبقي العالم القروي على نمط عيشه البدائي البسيط؟ كيف لمجتمع أن يتقدم ويزدهر، في زمن العولمة الضارية، ونصفه ثابت على نهجه المتخلف في تدبير شؤون حياته اليومية، ومقصيا من الإسهام في تنمية البلاد؟ أليست مؤسسة الإعلام، المرئي منها على الخصوص، هي المعول عليها لإخراج الإنسان القروي من قوقعته وجعله يتفاعل بكل إيجابية مع شعارات الحداثة والتحديث التي تم تبنيها من طرف المسؤولين كنهج وكمنهج عمل لتأهيل المغربي لجعله قادرا على الوقوف في وجه فيل العولمة المدمّر؟ كيف يمكن فك عزلة العالم القروي إن نحن تركناه من دون كهرباء، خارج التغطية الإعلامية الفعالة التي تتجسد في البث التلفزيوني الذي يمثل أحسن وسيلة وأجداها لتغيير العقليات بطريقة مبرمجة، ولتربية المواطن المغربي على القيم التي يراد لها أن تسود في حياته اليومية، فتؤثر في واقعه وتوجهه الوجهة المطلوبة؟

وللرد على هذه التساؤلات المعقولة في حيثياتها البسيطة والمبسطة، تستحضرني هنا قصة المسلسل التلفزيوني الأمريكي "دلاس" لأواخر السبعينات من القرن الماضي وبداية الثمانينيات، والذي أحدث ضجة كبيرة على الصعيد الإعلامي، بسبب ما كان يمرره من قيم رأسمالية متوحشة من خلال نوعية العلاقة القاسية السائدة بين أفراد عائلة "إيوينغ" الغنية، التي تنتج البترول وتتعاطى لتربية الأبقار والخيول على نطاق واسع. العلاقة بين الأخ وأخته، وبين الأخ وأخيه وبين

الزوج وزوجته وبين الأبناء والآباء، وباقي أفراد العائلة فيما بينهم، يحكمها منطق المصالح والمضاربات والمقامرة، حيث لا مكان فيها للمبادئ وللمشاعر وللقيم الإنسانية التي تسودها الرحمة في المعاملات. كل واحد من أفراد العائلة يخطط لإزاحة الآخرين من طريقه بكل السبل الممكنة، كالتحالفات الظرفية بين من لهم المصلحة في تدمير من يقف في طريقهم. وما أن يتم القضاء على الآخر حتى ينفرط عقد التحالف المؤقت وتندلع الحرب بين أفراده لتدمير بعضهم البعض عبر تكوين تحالفات ظرفية جديدة، قد يتم التحالف فيها مع بعض من تم تدميرهم فيما قبل، بحيث يعود من جديد إلى ميدان المقامرة والتآمر، الخ.

هذه باختصار هي الورقة التقديمية للمسلسل التلفزيوني "دالاس"، بحيث لا يخرج عن كونه يمثل منظومة ثقافية غربية وعقلية تتحكم فيها المصالح المحضة في العلاقة بين الناس، بحيث لا مكان فيها للمشاعر والمبادئ والقيم. وهنا يحضرني ما قاله أحد الأساتذة الباحثين الفرنسيين لأحد زملائه المغاربة الذي نصّب نفسه مدافعا عن زميل له، زميل فرنسي هو الآخر، لم يكن من بين أعضاء لجنة مناقشة أطروحة لنيل شهادة دكتوراه السلك الثالث (في النصف الثاني من الثمانينات من القرن الماضي)؛ ومما قاله الأستاذ الباحث الفرنسي لزميله المغربي المدافع عن صديقه الفرنسي الغائب، ما معناه، "أنتم المغاربة تخلطون كثيرا بين المشاعر والعمل، بل تقدّمون المشاعر والعواطف عن الصرامة التي يجب أن تسود في ميدان العمل".

نعم، هذه هي قيم الإنسان الغربي الرأسمالي، والتي يمكن أن تلقى القبول في بعض جوانبها كما هو الحال فيما قاله الأستاذ الباحث الفرنسي لزميله المغربي؛ لكن علاقة أفراد عائلة "إيوينغ" فيما بينهم من خلال المسلسل التلفزيوني "دلاس" تدفع بالعقلية الرأسمالية الغربية إلى

حدود القسوة والتوحش، وهذا هو الأمر الذي جعل الإعلام الغربي يتفاعل بقوة مع هذا المسلسل. تفاعل الإعلام الغربي بقوة، لأن الجميع مجمع على أن الأفلام (التلفزيون والسينما) والمسلسلات (الإعلام المرئي) تؤثر إلى حد بعيد في العقليات، بل تصنعها، بحيث توجّه الرأي العام الوجهة التي تراد له. هذه الحيثيات هي التي دفعت بالمجتمع المدني (كما يقال في وقتنا الحاضر) في ألمانيا، في ذلك الوقت، للاعتراض على بث هذا المسلسل على القنوات الألمانية بسبب ما سيحدثه من تأثيرات عميقة في عقلية الناس وفي منظومتهم الثقافية الرأسمالية المعتدلة شيئا ما.

نعم، اعترض الألمان، الغربيون الثقافة، على مسلسل تلفزيوني بعقلية غربية، لأنه يعمل على إحداث تطور راديكالي ومفاجئ في المنظومة الثقافية الغربية وفي عقليات الناس. هذا الاعتراض جعل المسؤولين يوقفون بث مسلسل "دالاس"، إلى أن تنشر إحدى الجامعات بفرانكفورت التي كلفت بدراسة التأثيرات السلبية على المجتمع الألماني ومداها. فإذا ما بينت الدراسات والأبحاث أن مشاهدة حلقات هذا المسلسل ستحدث رجة قوية، قد تحدث تصدعات عميقة في بنية المنظومة الثقافية المتزنة للألمان وفي عقلياتهم، فسيتم العمل على منع بثه. نعم، يجب ألا ننسى، أو نتناسى، أن المسلسلات التلفزيونية والأفلام والمسرحيات والإشهار، هي أدوات فعالة وحاسمة في توجيه مشاهديها الوجهة المطلوبة قبل أن تكون عبارة عن وسائل للفرجة والترفيه عن النفس، كما لا يتوقف عن ترديده مقدمو البرامج التلفزيونية على مسامعنا.

نعم، لا يتعلق الأمر بمسلسل مكسيكي يمرر منظومة ثقافية لاتينو-أمريكية وقيم اجتماعية دخيلة على المجتمع الألماني، بحيث ستعمل

على إحداث رجات عنيفة في عقلية الألماني الذي يعمل بنظام وانتظام، بديناميكية عالية وبطريقة علمية. فالحفاظ على الخصوصيات الثقافية لمجتمع ما، وعلى القيم الحضارية والاجتماعية وكذا الأعراف والتقاليد، يمثل حفاظا على مقومات الشعوب، بل على الروح التي تدب فيها والتي تجعلها تبقى قيد الحياة، قادرة على التفاعل مع محيطها بما يكفل استمرارها في الوجود.

فهل سبقت كهربة العالم القروي دراسات ميدانية متعددة المحاور لمعرفة ما يجب فعله، ومتى، وكيف، وما النتائج المنتظرة؟ قطعا لم يحدث أي شيء من هذا.

قصتنا مع المسلسلات التلفزيونية المكسيكية

لقد عملت كل من قناة "دوزيم"، وكذا القناة الأولى، منذ التسعينات من القرن الماضي، على تطعيم المواطن المغربي بجرعات إعلامية مركزة من رحيق القيم الاجتماعية المكسيكية والبرازيلية المنحطة الدخيلة علينا بكل المقاييس. وإذا ما عدنا إلى مسلسل "دالاس" الأمريكي، فمن السهل أن نتوصل إلى حقيقة أن الذين عملوا على إنتاجه يهدفون إلى التأسيس لهذا النمط من الرأسمالية في عقول أطفالهم وشبابهم الذين يجب أن يتربوا في كنف هذه الثقافة، بحيث يكونوا أكثر "قتالية" وأكثر جرأة في السيطرة على مقدرات الشعوب وتركيع الدول الأخرى، خاصة الضعيفة منها التي تعمل بما نعمل به نحن. ولقد تمت معاينة هذا النمط من الرأسمالية مع مجيء المحافظين الجدد بقيادة بوش الابن، الذي اعتمد في منظوره الرأسمالي على نظرية "نهاية التاريخ" التي نشرها "فرانسيس فوكوياما" في مقاله الشهير الذي يبشر بأن القرن الحالي، القرن الواحد والعشرين، هو قرن السيادة المطلقة للرأسمالية المتوحشة.

لكن من مفارقات القدر، أن يشكل نشر هذه النظرية بداية العد العكسي لاندحار الرأسمالية التي كان من أول ضحايا أولئك الذين نظّروا لها وعملوا على تسويقها بقوة الإعلام حتى يتم خلق العوامل النفسية المواتية لتطويع الآخر وجعله يستسلم أمام هجمتها الشرسة الهمجية. ثم إن الألمان الذين رفضوا بث مسلسل "دالاس" على قنوات تليفزيوناتهم، يعرفون ما يريدون كشعب عريق، وكذا ما يراد بهم من خلال هذا المسلسل. إذن، هناك القوي الذي يريد التسويق الإعلامي لقيمه الحضارية والثقافية والاجتماعية المحملة بالإملاءات الضمنية وبالإكراهات المغلفة بالإغراءات، وهناك المستهدف الذي يراد له تلقي ما يراد التسويق له، لطمس مقومات المناعة فيه وعناصر القوة إن وجدت. هذه بكل بساطة هي المعادلة السائدة في التعامل بين الدول والمجتمعات، حيث السيادة لقانون الغاب، لكن تحت عباءة القانون الدولي وحقوق الإنسان وحرية التجارة وما إلى ذلك من الشعارات العبثية البراقة.

لنعد إلى صميم موضوعنا وصلبه، الذي يتمثل في كهربة العالم القروي وما صاحبه من حدوث تسونامي إعلامي مدمر، أخذ السكان على حين غرة من أمرهم. مسلسل "دالاس" يحمل قيما اجتماعية غربية محضة، وبالرغم من ذلك تصدى له الألمان المتشبعون هم كذلك بهذه القيم، والمحصنين ثقافيا وإعلاميا، خوفا من أن تصيبهم بعض شظايا هذا القصف الإعلامي السينمائي المؤثر. فما هي الإجراءات التي تم القيام بها على أرض الواقع القروي لسكاننا المفتقدين لأدنى مقومات المناعة الثقافية، لجعل عامل الكهربة يضاهي في بعض حيثياته عامل نزول المطر بعد طول انتظار، بعد فصل الجفاف؟ ما هي الاحتياطات التي تم اتخاذها لجعل كهربة العالم القروي تحدث تلك النقلة النوعية الشاملة

التي تؤسس لتنمية مدمجة شاملة كفيلة بانتشاله من براثن التخلف والانحطاط؟ هل عملنا على تحصين الإنسان القروي إعلاميا كما يجب وكما يفترض، لتوجيهه الوجهة السليمة في الاستفادة من منّة الكهرباء، وجعلها تؤثر تأثيرا إيجابيا عميقا في كل أوجه الحياة ومناحيها، بدلا من أن تزداد العقليات انحطاطا والأوضاع الاجتماعية سلبية وترديا؟

فكما هو معلوم، فإن مناعة مجتمعنا القروي في مواجهة القصف الإعلامي "الدوزيمي" المركز منعدمة تماما، وهو ما يجعله سهل الاختراق، مادة لينة قابلة للتطويع كيفما أريد لها. من هذا المنطلق للحكم على الأمور، وبهذا المنطق، نقول كان لابد أن تكون كهربة العالم القروي مسبوقة بدراسات ميدانية متعددة التخصصات وذات مصداقية، كفيلة بتوفير كل المعطيات المتعلقة بالميادين الفلاحية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لكل جهة من جهات الوطن وكل منطقة، وجعلها بين أيدي أصحاب القرار لتوجيههم الوجهة السليمة في اتخاذ قراراتهم التنموية والتحديثية الحقيقية والفعالة. نعم، كان لا بد من دراسات معمقة تسبق كهربة العالم القروي، للعمل على توجيه الناس الوجهة التي تجعلهم يستثمرون عامل الكهرباء بالكيفية الأمثل للنهوض بمناطقهم في كل الميادين (خاصة الميادين الفلاحية والثقافية والاجتماعية والسياحية).

كان لا بد من أن تكون كهربة العالم القروي مسبوقة بتهيئة البنية التحتية الضرورية، من طرقات، وكذا التخطيط لخلق مجمعات بشرية، قرى ومدن صغيرة، يتم تزويدها بالماء الصالح للشرب وكذا بنظام الصرف الصحي بكيفية تحفظ للبيئة جماليتها، وما إلى ذلك من الضروريات. وقبل كل شيء، قبل كل هذا، قبل تهيئة البنية التحتية المادية، كان لا بد من تهيئة البنية التحتية الفكرية والثقافية والحضارية للقروي وجعلها قابلة للتفاعل بكل إيجابية وبكل تلقائية مع المشاريع المرتقبة، بعد

الكهربة المنتظرة. كان لا بد من العمل على تغيير ما هو سلبي في عقلية الفرد القروي وتطوير ما هو إيجابي فيها، لجعله يقبل على البناء والتشييد بإرادة قوية وبعزيمة لا تلين، بدلا من أن نجعل منه عنصرا معطوبا، معطلا، عالة على مجتمعه، مفتقدا حتى لأدنى قيمه الإنسانية.
كان لا بد من التركيز على الشباب للعمل على تغيير ما هو سلبي في عقلياتهم لجعلهم إيجابيين، قادرين على مواجهة التحديات والإقبال على الانخراط في المسار التحديثي الفعلي للمجتمع القروي، لإخراجه من براثن التخلف ومن عالم النسيان والسير به قدما إلى آفاق واعدة. كان لا بد، لكن شيئا لم يكن؛ فلقد تـُرك الشباب القروي (وفيهم من كل المستويات التعليمية) يواجه مصيره المجهول ولا من يأخذ بيده ويوجهه الوجهة السليمة. ترك الشباب القروي يعيش الضياع فيما قبل، فكل ما يمكنه القيام به، في أحسن الأحوال، ينحصر في بعض الأنشطة التقليدية المتوارثة، من رعي للمواشي وعمل بالحقول. يعيش مشوش العقل، مضطرب الحال بسبب الإشعاعات الإعلامية المنبعثة من بعيد، والتي يتعرض لها باستمرار بسبب تردده على المدن، واحتكاكه بشباب المدن الذين يوجدون في حالة ضياع أسوأ منه. شباب، منهم العاطل ومنهم المعطل، يقضون جل وقتهم في المقاهي، يتتبعون الشاذة والفاذة عن "البارصا" و"الريال"، الفريقين الكرويين الاسبانيين. شباب مغربي، انقسموا إلى جمهور"للبارصا" وآخر "للريال"، يقضون جل وقتهم في التناوش فيما بينهم؛ وحتى يثبت كل واحد منهم ولاءه لفريقه، الاسباني، ويعمل على دعمه وتشجيعه، فقد تم التأسيس لجمعيات لهذا الغرض. والمثير للاندهاش وللغرابة في الأمر، أن المسؤولين عن البث في شأن مثل هذه الجمعيات لم يجدوا أدنى حرج في الترخيص لها. ضياع في ضياع، ضياع يفضي إلى ضياع أكبر، دوران في حلقات مفرغة يفضي

بعضها إلى بعض في دوامة لا تنتهي؛ دوامة تنبعث منها الإشعاعات المضرة، وتتطاير منها الأغبرة الملوثة التي تلقي بها بعيدا رياح الإعلام التي تقوّت وتنوعت مصادرها إلى حد كبير في السنين الأخيرة، بحيث لا تسلم من تأثيراتها حتى عقول وأدمغة من هم في الأرياف. وكما يقول المثل الدارجي "ما قدّو الفيل زادوه الفيلة"، فلم تكف العالم القروي الإشعاعات الإعلامية المنبعثة من المدن والأغبرة المتطايرة منها، فعملنا على ربطه بالشبكة الكهربائية، وهو الأمر الذي عبّد الطريق للقروي لاقتناء التلفاز وطبق استقبال بث الفضائيات، ليصبح فجأة في عين العاصفة الإعلامية المحلية الهوجاء، وفي قلب الإعصار المدمر، العابر للقارات، الذي يحدث الدمار الشامل في البنيات البشرية الضعيفة والغير محصنة في مواجهة مثل هذه الاضطرابات الحضارية والثقافية الشديدة.

إعلام ثبّط العزائم وكبّل السواعد

الليلة الأولى من البث التلفزيوني كانت كافية لقلب الأوضاع والمفاهيم رأسا على عقب عند قريب صديقي المهندس الإعلامي بناحية الجديدة، بحيث تم إهمال الأغنام التي قضت أول ليلة خارج الدار، لم يبال بها أي أحد. كما تحوّل تفحّم الأطعمة التي يتم طهيها، إلى ظاهرة مثيرة للانتباه بسبب انشغال النساء في تتبع حلقات المسلسلات المكسيكية والبرازيلية والتركية التي تبثها قناة "دوزيم" وكذلك القناة "الأولى" وقناة "ميدي سات"، بحيث تتبادل القناتين الأدوار في بث هذه المسلسلات في أوقات متباينة. تم كذلك تعطيل دواليب الحياة خارج البيوت خلال فترات البث التلفزيوني لحلقات هذه المسلسلات، وما إلى ذلك، بحيث يعود من هم في الخارج (إن خرجوا) ليكونوا في الموعد مع بداية البث. انقلبت

الأولويات رأسا على عقب، فمن كثرة السهر والسمر إلى وقت متأخر من الليل للتفرج على مباريات كرة القدم أو مشاهدة المسلسلات التلفزيونية أو الأفلام أو المسرحيات، لم يعد القروي يستيقظ مبكرا للقيام بما كان يقوم به من قبل. أصبح الفرد القروي عالة على نفسه وعلى مجتمعه، بحيث لم يعد ينتج ما يستهلك مما تنبت الأرض ومن الدواجن والمواشي والبهائم. في المقابل، توسعت المتطلبات المادية وتنوّعت عند الشباب القروي، بينما انحصرت مصادر كسبها والحصول عليها بسبب تفشي ظاهرة العطالة التي تسبب فيها الإعلام التلفزيوني الذي قلب المفاهيم رأسا على عقب، فثبّط العزائم وكبّل السواعد عن العمل. لا تعليم يعلم أبناءنا ويربيهم على قيم الجد والاجتهاد والكد والتنافس الشريف، ولا الإعلام يعمل على ترميم ما خربته المدرسة وحتى الأسرة التي خربها الإعلام وغيره هي كذلك.

شباب قروي يتطلع للأفضل من منظوره الخاص به للحياة، لكنه عاطل معطل، لا يمكنه أن يفي بمتطلباته المادية التي تزداد إلحاحا، فهل سيبقى مكتوف الأيدي، مكتفيا بالتفرج على مباريات "البارصا" و"الريال" أو المسلسلات التلفزيونية؟ اضطربت أحوال الحياة اليومية في الدواوير والمداشير والقرى بسبب تفشي ظاهرة السرقة والسطو على الممتلكات، وأصبحت البادية بدورها تصدر هذا النوع من "الإرهاب" المسكوت عنه، أصحاب السيوف "المقرقبين"، لتزداد الأمور استفحالا في المدن. نعم، لقد أصبح رجال الأمن بدورهم هدفا لهجوم هؤلاء الذين عمل إعلامنا العبثي المنحط على إعطاب مراكز الاتزان والتوازن في عقولهم وفي فكرهم وتفكيرهم. فما على من يريد التعرف على مدى تدهور أحوالنا الاجتماعية وتردّيها إلا أن يتصفح صفحات الجرائد والمجلات، على كثرتها، ليفجع بالكم الهائل من العصابات التي تثير

الرعب في مدننا وقرانا، والتي لا يسلم من اعتداءاتها حتى رجال الأمن الذين تتم مهاجمتهم في واضحة النهار. من يزرع الريح يجني العواصف المدمرة، كما يقول المثل الفرنسي؛ من لا يحسن استعمال سلاح الإعلام الخطير، أو يتعمد استعماله للتأسيس لحداثة المسلسلات المكسيكية المدمرة وفوضى الملاعب الرياضية، ومن يتفرج على ما يصيب منظومتنا التربوية من اختلالات عميقة واضطرابات ويتهمها بإنهاك الخزينة العامة للدولة، فلن يخلّف إلا الخراب والدمار في البنيات التحتية البشرية والمادية. في نفس السياق، كتبت فيما سبق بخصوص ما أحدثته، وتحدثه منظومتنا التربوية من دمار في بنية شخصية أبنائنا وفي بنيتهم الفكرية[1]؛ فيما يلي ما كتبته منقحا:

"عبقرية المسؤولين عن التربية والتعليم في هذا البلد الأمين لا تقف عند حد، وإلا فما الجدوى من العمل على تحسيس أبنائنا بخطورة الإرهاب على الفرد والمجتمع وأمن الوطن، ونحن نعمل على زرع بذوره في وجدانهم وفي الأنا العميق لشخصيتهم، في البيت (الإعلام المرئي المدمر) وفي المدرسة وفي الشارع؟ هل من أوصلناهم إلى حد النقمة على المدرس المربي الذي يفترض فيه أن يكون قدوة الأجيال، وعامل اتزان في لاشعورهم، يمكن له فعلا أن يحسسهم ببشاعة الإرهاب وتبعاته؟ هل من أصبحوا لا يعرفوا أدنى تقدير للمؤسسة التعليمية المفترض إعلاء شأنها وتوقيرها، يمكننا فعلا القضاء على النزعة التدميرية في وجدانهم حينما عملنا على تدمير كل شيء جميل فيهم؟ من بلغ حد النقمة على هذه المقدسات التربوية والتعليمية في المجتمع، فقد

[1]- التربية والتعليم وثقافة مجتمع، اختلالات ومعاطب: صرخة مغربي

تشبع وجدانه بإيحاءات الانتقام اللاشعوري من مجتمعه، ولا يتطلب طفوها على مستوى الشعور إلا بعض الإحساس بالحرمان أو بعض الإخفاقات على الطريق، وما أكثرها مع الأسف! إيحاءات الانتقام اللاشعوري ورفض المجتمع ونبذه أنتجت أجيالا من الانتحاريين المقنعين الاحتياطيين. تجلت الظاهرة في بدايتها بانتحاريي قوارب الموت (انتحاريون بالآلاف من صنف الذين يلقون بأنفسهم في البحار وهو أمر يدمي القلوب وينذر بالدمار في الآتي من الأيام)، بالموازاة مع هذه الظاهرة تنامى طابور المتسكعين المتعاطين "للقرقوبي"، أصحاب السيوف المسلولة (سيوف، ماركة مسجلة محلية ولا من يتقصى حقيقة من يصنعها، وحقيقة ما يجري...) الذين يزرعون الرعب في أحياء مدننا وشوارعها دونما ردود أفعال أمنية وقضائية رادعة. ثم تأتي ظاهرة الانتحاريين ذوي الأحزمة الناسفة لتتوج هذا الجنوح الخطير لتدمير الذات وتدمير الآخر؛ هؤلاء الذين وجدوا في كليمات من الدين لم يستوعبوها، وتحريضا من مغرضين يصطادون في المياه العكرة، فرصة الخلاص (جنة لم يعرفوا عنها ولا عن الطريق الموصل إلا مسميات مشوهة) لتخليص الذات من بركان الحقد على مجتمع لا يرون له عليهم من جميل. نسبة من هؤلاء وجدوا في وجدانهم المثقل بسلبيات ما بنيت عليه شخصيتهم، منذ نعومة أظفارهم، كل المسوغات لتقبل فكرة تكفير أفراد المجتمع الذين لا يرون لهم عليهم أية حرمة؟ هل ندري حق الدراية ما نوع الشباب الذي عملنا على إنتاجه، وهل توقفنا ولو لحظة عند الهوة السحيقة الشاسعة التي أصبحت تعزل هؤلاء عما يتطلعون إليه وينشدونه؟ منظومة إعلامية تحث صباح مساء (إشهار مكثف، مسلسلات، أفلام، برامج الطبخ والأكل، مهرجانات الغناء، الخ) على الاستهلاك والتمتع بالحياة إلى أقصى الحدود، في غياب أدنى

الإمكانيات المادية الواجب توفيرها لتأمين متطلبات الشباب الذي تمت تعبئتهم بهذه الكيفية المخلة بكل التوازنات.

أعيد طرح السؤال مرة ثانية: ألا نعمل على إفراغ كل الشعارات من محتواها، بل على تنفير التلميذ منها وترسيخ نقيضها في شعوره ولاشعوره؛ أي ترسيخ كل ما هو سلبي في ذهنه؟ هل إلى هذا الحد عجزنا، في هذا الوطن الحبيب، الضارب مجده في أعماق التاريخ، على استقراء المستقبل على ضوء خطورة ما نؤصل له ونعمل على إنباته وترعرعه في مجتمعنا، وفي مؤسساتنا التعليمية على الخصوص؟ كيف أمكننا بلوغ هذا الحد الخطيرة من اللامبالاة بخصوص أشكال وأنواع المدمرات التي استشرى خطرها في مؤسساتنا التربوية، المحضن المفترض للتربية الشاملة السليمة؟ يقول المثل الفرنسي "من يزرع الريح يجني العاصفة" (qui sème le vent récolte la tempête)، وعليه، فكل الرجاء المشفوع بالطلب أن يسارع المسؤولون (حتى وإن كانوا، في حقيقة الأمر، لا يُسألون، بل يسأل الغير مسؤولين)، على كل الأصعدة، للعمل على تضافر جهودهم لإعادة هبوب النسيم العليل في مناخ مؤسساتنا التعليمية الملوث الرديء والعاصف، للعمل على خلق الأجواء التربوية السليمة الهادفة على أسس حضارية وعلمية صحيحة. علينا ألا نخطئ في تشخيص مكامن الخلل، فتعليمنا هو صمام الأمان والأمن الاستراتيجي لمجتمعنا ووطننا، ومن ثم فإن إطالة السكوت وغض الطرف عما تعرفه منظومتنا التربوية والتعليمية من اختلالات جوهرية ستكون له نتائج وخيمة على الأمن المعرفي والاجتماعي والوطني لبلدنا، في ظل تفشي اتساع الفوارق الاجتماعية والبطالة والعطالة. منظومتنا التربوية والتعليمية، بما تعرفه من اختلالات مخلة بأدنى مقتضيات التربية

الوطنية السليمة، تكوّن أجيالا من الناقمين على مجتمعهم ووطنهم، وحتى على أنفسهم. هذه الأجيال التي تُفقدها مؤسسات المجتمع الأسرية والتربوية والإعلامية بوصلة التموقع السليم، تصبح غير قادرة على تحديد مكان تواجدها، فكيف لها أن تحدد وجهتها؛ تصبح كالريشة في مهب الرياح، حيثما ما مالت تميل. والأخطر فيما يمكن حصوله أن يتم اختراق هؤلاء الناقمين التائهين بإيحاءات دينية شيطانية (الإسلام بريء منها) ليحولوا نقمتهم اللاشعورية على مجتمعهم إلى قنابل موقوتة ونار حارقة. شباب ضحايا منظومات تربوية وإعلامية واجتماعية واقتصادية مختلة، يتحولون إلى قنابل موقوتة، قابلة للانفجار في أية لحظة، ولأدنى الأسباب.

لقد نقم هؤلاء (أبناؤنا) منذ نعومة أظفارهم على: - مؤسسة تعليمية كان من المفترض فيها أن تحتضنهم وتزرع فيهم بذور التربية السليمة المتزنة الهادفة؛ - على مدرس مربي، تائه ناقم هو كذلك، كان من المفروض فيه أن يكون قدوتهم في كل ما قد يعترض سبيلهم من صعوبات؛ - تعليم كان من المفترض فيه أن يحبب إليهم المعرفة والصبر والأناة في طلبها، ويعلمهم كل ما من شأنه تحبيب الوطن لهم والتفاني في رد الجميل له، بالعمل على خدمة الصالح العام كصمام أمان لخدمة المصلحة الشخصية بالطرق المشروعة؛ - مجتمع اختزلت صورته فيما علق بأذهانهم وفي لاشعورهم بمؤسسات التعليم، ومن خلال المنظومة الإعلامية، من عبثية وانعدام للقيم وقلب للمفاهيم رأسا على عقب. إنها صور بالغة السلبية، مرعبة، يطول المقال لسرد كل أوجه تجلياتها.

أي صنف من الشباب يمكن أن تنتجه مؤسسات تعليمية طمست هويتها ولحق المسخ مهامها ولم ينلها من تفتحها على محيطها

الخارجي واندماجها فيه إلا الترويج للمخدرات وللرذيلة الأخلاقية ولكل المبيقات؟ إن العمل بمقتضيات الحكمة البتراء "كم من حاجة قضيناها بتركها وتجاهلها" يمثل هروبا من الواقع، وإخفاء للرأس في الرمل. كم من أمر غير ذي بال في بدايته، استفحل مع مرور الوقت وتجدر حتى أصبح من المستحيل تجاهله، لكن بعد أن أصبح مستعص حله. إن الحكمة تقتضي إعطاء كل ذي حق (على إطلاقه) حقه؛ فحتى ما هو سلبي له علينا حق، يتمثل في العمل على الوقوف على مكامن السلبية فيه، حتى نتمكن من تخطيها بأقل قدر ممكن من الخسائر، من قبل أن يستفحل أمره. كم من سلبيات أغمضنا العين عليها عند ظهور نبتتها، نمت مع مرور الزمن حتى اشتد عودها وامتدت جذورها واستعصى أمرها على الحل، بل وأنتجت بذورا ساهمت في انتشارها على نطاق أوسع، وأمّنت إعادة إنتاجها.

كم هي السلبيات التي نعاني منها اليوم في نظامنا التربوي التعليمي، وفي مجتمعنا، أغمضنا عنها العين عند بداية ظهورها؛ فلو كانت نتائج ما هو سلبي، والتي تبدو قطعا جلية على المدى البعيد، ظاهرة للعيان في بداية الأمر، لما تهاون أحد في التصدي لها عند بروزها. عندما أغمضنا العين على ما يعرفه تعليمنا العمومي من اختلالات للمفاهيم التربوية والتعليمية (والمعرفية كذلك)، وتركناها تتفاقم، لم نعمل على استقراء المستقبل على ضوء ما يحدث، إما لقصر النظر، أو عملا بلسان حال "كم من حاجة قضيناها بتركها". التعليم أرضية لا بد أن تنبت شيئا ما، فهي تنبت ما يزرع فيها، أو ما يلقى به فيها من خلال منظومة إعلامية عبثية تردد صدى الشعارات المرفوعة وتتواطأ على تنزيلها على أرض الواقع بما يناقضها. فحتى لو كانت أرضية التعليم تستهلك أكثر مما تنتج، كما يردّد دونما تمحيص أو تفكير، فلا بد من

تعهدها بالاستصلاح وزرع ما هو صالح، حتى لا تنبت أعشابا ضَارة بمحيطها، مضرة للنافع منها ومقصية له؛ فكما هو معلوم عند البيولوجيين المتخصصين في عالم النباتات، وحتى عند المجربين من الفلاحين، فإن النباتات المضرة تقصي النباتات النافعة، إذا لم تتم محاربتها. لقد أصبح تعليمنا، قلعتنا الإستراتيجية للأمن الاجتماعي والحضاري والوطني والوجودي، بدون هوية؛ فلا هو عمومي بمعنى الكلمة ولا هو خصوصي بصريح العبارة، وهذا هو موطن الخلل الكبير ومكمن الخطر. لو أننا تحلينا بالواقعية وبالجرأة السياسية الكافية، في بداية الأمر، لكنا قد حسمنا أمر تعليمنا بجعله مؤدى عنه، حسب إمكانيات كل مواطن، مع إعفاء كل من ليست لهم القدرة على ذلك. لو أننا التجأنا لهذا النوع من التكافل الاجتماعي على أسس سليمة، مضبوطة، فيما قبل، لما ترك الباب مفتوحا على مصراعيه لاستفحال ظاهرة دروس الدعم (تعليم عمومي - خصوصي) التي شكلت أكبر ضربة لأخلاقيات التعليم وأدبيات التربية والتكوين. نعم، حينما أخل صنف من المدرسين بمهامهم التعليمية في القسم (لأسباب متنوعة) وعملوا بطرق ملتوية على إكثار جمهور ما يسمى بدروس الدعم، طمعا في الربح المادي، فقد ضربوا إسفينا في أخلاقيات هذه المهنة ومهامها النبيلة الآنية والإستراتيجية. حينما افتقدنا الجرأة على اتخاذ القرارات اللازمة، وفي وقتها المناسب، تم التعامل مع قطاع التربية والتكوين كقطاع غير منتج، مستنزف لخزانة الدولة، بل أصبح ينظر إليه على أنه منتج للمعطلين، أصحاب الدبلومات المفتقدين للكفاءات...!! من هنا نكون قد حمّلنا تعليمنا أوزارا لن تتوقف تفاعلات سلبياتها عند حد معقول، فالتعليم في كل بلدان العالم لا ينتج آلة للبيع أو ما إلى ذلك، بل ينتج منتوجا بشريا، إما ثمينا بمؤهلاته

وكفاءاته اللغوية والمعرفية والعلمية، وإما لا قيمة له، حسب نوعية الاستثمارات المادية والبشرية، وحسب صدق النية في الإصلاح الحقيقي.

لقد عملنا على إفراغ تعليمنا العمومي (على الخصوص) من محتواه، بل وتسميم مناخه حتى أصبح كالبيت الخرب، لا يدخله من دخله دونما توجس واتخاذ للحيطة والحذر. لقد جعلنا المناخ التربوي بمؤسساتنا التعليمية يتقاطع مع نظيره المزري في أحياء الصفيح، فكلاهما يخرج لنا مواطنين سلبيي الإرادة، لا يعرفون لمجتمعهم عليهم من جميل، بل تنتابهم النقمة عليه. مواطنون ذووا نزعة عدوانية على أنفسهم قبل غيرهم، مواطنون يعملون على تدمير ذاتهم بشتى الوسائل، ولنا أجلى الأمثلة وأنطقها في انتحاريي قوارب الموت، وأولئك الذين يحبط رجال الأمن خططهم للانتحار الجماعي أمام البرلمان أو في أماكن اعتصامهم، ومن يقدمون على الإضراب الجماعي عن الطعام، وما إلى ذلك. لكن الخطير في الأمر هو أن تتطور النزعة العدوانية للفرد الناقم على نفسه فتمتد إلى محيطه متى وجدت المسوغات لذلك والمسوغون، ويا ما أكثرها وما أكثرهم، مع الأسف الشديد.

معلوم أن فاتورة التعليم العمومي تثقل كاهل ميزانية الدولة، كما أنه معلوم بما لا يدع مجالا للشك أن اتخاذ موقف المتفرج على ما آل إليه ويؤول حال مؤسساتنا التربوية ومنظومتنا التعليمية، يعد أخطر سلبية على المجتمع والوطن والمستقبل من متطلباتها المادية الضرورية لاستصلاح أرضيتها. ولقد تبين من خلال ما سبق، أن الكثير من المتطلبات الضرورية لهذا الاستصلاح تعدّ معنوية وأخلاقية صرفة، لا تتطلب إلا الإرادة الإصلاحية الحقيقية. لماذا تم ترك التعليم العمومي لحاله، كأنه لا علاقة له بالمجتمع ولا تأثير له عليه؟ هل

صرف الناس إلى التعليم الخصوصي بهذه الطريقة يعدّ مأمون العواقب؟ ثم هل التعليم الخصوصي أحسن حالا من غريمه العمومي؟ لماذا تم التفريط في المكتسبات بدل الحزم في اتخاذ القرارات برؤى واضحة المعالم في إطار برنامج وطني طموح، بمنظور محبك متجانس، يتكامل فيه العمومي والخصوصي؟ نعم، كان من المفروض المفترض أن توجد صيغة تضامنية لجعل التعليم العمومي مؤدى عنه، لكي لا يتحول بحكم الواقع الفاسد إلى تعليم خصوصي مقنع ضيعت فيه كل القيم التربوية السليمة، فأنتج أجيالا من مفتقدي الهوية الشخصية والاجتماعية والوطنية والحضارية. هؤلاء الضائعون لن يحسنوا تحمل أية مسؤولية من المسؤوليات، ولن يقدّروها حق تقديرها؛ وبدل أن يكونوا رافعة تعلي بناء صرح الوطن، فسيصبحون معاول للهدم المباشر والغير مباشر. فعلى سبيل المثال، على المسؤولين عن القطاع الرياضي عموما، وقطاع كرة القدم خصوصا (ونتمنى أن يكون هناك فعلا مسؤولون يعرفون ما لهم وما عليهم) أن لا يندبوا حظهم ويقبلوا بالفاجعة إن هم احتاروا في إيجاد الحلول الناجعة لإيقاف تدني المستويات الرياضية ودخولها في دوامة الدوران في حلقات مفرغة. فما عليهم إلا أن يعملوا على استيعاب المشاهد التربوية بمؤسساتنا التربوية والتعليمية وما تحدثه منظومتنا الإعلامية العبثية من دمار شامل في البنية الشخصية والبنية الفكرية وحتى الجسدية لأبنائنا، ليعلموا أن هاتين المنظومتين تشكلان منبع كل الأسقام والاختلالات المعطبة المولدة للأوجاع.

نعم، فكما هو معلوم بداهة، فإن ثقافة مجتمع ما وعقليات أفراده تمثلان منظومة متكاملة متجانسة من المفاهيم والرؤى المتداخلة والمتفاعلة فيما بينها، بحيث يكمّل بعضها بعضا، ويأخذ بعضها عن بعض في

تفاعل متكامل متجانس. فالمنظومة الثقافية لمجتمع ما، لا يمكن أن تجمع في نفس الوقت بين منظومة ما رديئة وأخرى جيدة؛ فالرديء يستدعي الرديء ويتفاعل سلبا معه، بينما الجيد يستدعي الجيد ويتناغم معه إيجابا. وكمثال للتدليل على هذا المنطق، فلا يعقل، بل لا يمكن أبدا أن تكون هناك، في مجتمع ما، منظومة تربوية تعليمية بمواصفات الجودة، بينما تكون المنظومة الإعلامية منحطة، تخرب وتدمر. فالمنظومة الإعلامية لبلد ما هي المؤشر الحقيقي على الحالة الصحية للمنظومات التربوية التعليمية، والصحية والقضائية والسياسية والاقتصادية والرياضية، وكل المنظومات الاجتماعية" (انتهى ما سبق أن كتبته من قبل).

الحكامة والهشاشة وكهربة العالم القروي

أذكّر هنا بتلك القصة الغنية عن التعليق، قصة ذلك الشاب المغربي من شبابنا القروي (وحتى أمثالهم بالمدن) ذوي الأفكار السلبية التي تلفها الضبابية حتى انعدام الرؤيا. مواطن شاب من لفقيه بن صالح، من الذين نقموا على مجتمعهم (لأسباب موضوعية وأخرى متوهمة)، يمتلك أربع (4) هكتارات من الأراضي الفلاحية الخصبة، ورثها عن أبيه. عمد صاحبنا الشاب الحازم العازم على تغيير واقعه، الذي لا يعرف عنه شيئا (مفتقد لبوصلة تحديد مكان تموقعه على خريطة الوجود)، إلى بيع هكتار من الأراضي ليتسنى له المغامرة بحياته في قوارب الموت الرهيبة، بحثا عن جنته الموهومة المتوهّمة على الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط. توجت المغامرة بالنجاح، وبلغ أرض الجنة الموعودة في جنوب إسبانيا، وتوفق في العثور على عمل هو ومجموعة من "الحراكة"، عند "السنيور لوبيز"، صاحب ضيعة

بمساحة هكتار يشغّل بها العشرات من أمثاله. "لوبيز" رجل متقدم في السن شيئا ما، يضع فوق رأسه قبعة، وهو دائم الحضور والحركة في ضيعته؛ فكلما تهاون أحدهم لحظة، طلبا لقليل من الراحة، فلا تترك له عين "السنيور لوبيز" الذي يتابع كل حركاتهم أي مجال لذلك.
بدأ الضباب ينجلي عن تفكير هذا الشاب وأفكاره، فاستغرب لحاله وتعجب قائلا: بعت هكتارا مما أملك من الأرض لألقي بنفسي في المجهول، فأجد نفسي في الأخير مستعبدا، عند من عنده ما بعته لأجيء إليه بمحض إرادتي؛ هل يعقل هذا؟ أين ذهب عقلي؟ هل أنا فعلا رجل سليم الفكر والتفكير، شخص عادي؟ رجل مسن كفء، لا يتوقف عن الحركة، لا يملك إلا ربع ما كنت أملك، لكنه يمتلك العزيمة والمبادرة وحب العمل، يشغّلني عنده، أنا الشاب الجريء الذي تحدى خطر قوارب الموت الذائع الصيت، والذي لم يتمكن حتى من معرفة قيمة ما يمتلك؟ لم يضيع صاحبنا كثير وقت في التفكير والتدبير، فالأمر بديهي بداهة الشمس الوضاءة، بحيث توجه إلى أقرب سوق واشترى نفس قبعة "السنيور لوبيز" وركب الحافلة عائدا إلى وطنه، حيث لازال يمتلك ضيعة بثلاثة أضعاف مساحة من شغله عنده، ليتعلم منه هذا الدرس القيم والرفيع. لقد علمته مغامرته الغير محسوبة العواقب أن جنته الأرضية التي يحلم بها هي قريبة منه، وأن ما تبقى له منها يعادل ثلاث مرات جنة "السنيور لوبيز"، وجاء بالدليل على ذلك والمحفز على العمل حتى وإن تقدم به العمر، ألا وهي قبعة "السنيور لوبيز" التي جعلها فوق عمود غرسه في الأرض، في وسط ضيعته ليتذكر نظراته كلما فترت همته في العمل، أو أعاد التفكير في الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط.

لو تعلم أطفالنا على أيدي مغاربة أمثال "السنيور لوبيز" في كل ميادين التربية والتعليم والتكوين (مغاربة محبون لوطنهم، يمثلون قدوة عملية لشباب البلاد)، وفي كنف منظومة إعلامية متكاملة هدفها الرفع من الهمم وتقوية المناعة الاجتماعية في مواجهة التحديات بعزيمة لا تلين، لما شردت أفكارهم إلى آفاق جنة ضبابية لا وجود لها لا على الأرض ولا في السماء، ولما عطلت ملكاتهم، ولما انهزمت نفسيتهم بسبب تضييع مفاتيح القوة والجد في شخصيتهم. عندما تتم تربية أبنائنا في مجتمع يتبنى إعلامه نمطا من الحداثة المشوهة، تنقلب فيه المفاهيم رأسا على عقب، فلا بد أن تنقلب عندهم القيم تبعا لذلك. يصبح الكل يحلم بجنته الموهومة التي يتوهمها، فيجتهد في طلب الوصول إليها عبر طرق ملتوية ولو بوسائل مذمومة، ولو بوسائل محظورة، ولو عبر مسالك قاتلة. القاسم المشترك بين أفراد المجتمع هو التنكر له بشتى الألوان والأشكال، إما بالهروب منه (قوارب الموت،...) وإما بالتقوقع فيه مع القيام بردات أفعال ناقمة قد تحركها أيادي خفية (ككتابة الأمازيغية، إرث كل المغاربة بهيروغليف تيفناغ، أو التطلع لكتابتها باللاتينية، مع التنكر للحرف العربي، وكالعمل على إلباس المغاربة عباءة ثقافة الدارجة الأصيلة والكتابة بها، ...). لقد تكاثفت جهودنا، كأفراد وجماعات، على إيذاء أنفسنا ["مازوشيين" (masochistes) في نظر علم النفس] بالعمل على قلب المفاهيم المعترف عليها في كل المجتمعات التي تحترم نفسها وتعمل بآليات صناعة التقدم، لنخادع أنفسنا بالتنكر لها في خطاباتنا؛ إنها محاولة هروب المرء من نفسه، من ظله، فكيف له السبيل إلى ذلك؟

إنها قصة غنية عن كل تعليق، تختزل في طياتها كل ما قلته وما سأقوله وما قد لا أقوله. ذهب الشاب الذي غامر بنفسه في قوارب

الموت الرهيبة، وقد هرب من ظله الذي لا ولن يفارقه، ليتعلم عند من علـّمَنا إعلامنا كيف نقلدهم ونقتفي آثارهم في التفاهات، وأن لا نعير أي اهتمام للقيم التي يتحلون بها من قبيل حب العمل الدؤوب والانضباط وعدم إضاعة الوقت فيما لا جدوى منه، الخ. نعم، لقد عملت منظومتنا الإعلامية على تعليم أطفالنا وشبابنا في حواضرنا، قبل أن يغزو القرى فيما بعد، كيف يصبحون محسوبين على جمهور "البارصا" أو "الريال"؛ كما عملت على الاستمرار في إشغالهم طيلة الأسبوع، ليل نهار، في تتبع الشاذة والفاذة عن كل لاعب، وعن جاهزية اللاعب الفلاني للـّعب أو عدم جاهزيته لمواجهة الفريق الفولاني، وعن حياته الشخصية وحياة صديقته، وكيف يعيشون حياتهم الخاصة، وما إلى ذلك من الخزعبلات والتفاهات. الحمد لله، أن الإعلام المدمر لم يجهز تماما على مقومات التفكير السليم عند صاحبنا الشاب المغامر؛ فبالرغم من أن ما قام به من مغامرة ومقامرة يدل على أنه كان كمن هو تحت تأثير مخدر قوي، أفقده كل مقومات التفكير السليم والتدبير القويم، فلقد تدارك الأمر فيما بعد. نعم، لقد استفاق من سباته العميق بعد أن اصطدم بصخور الواقع التي، حتى وان لم يرها بسبب بقايا الضباب الكثيف التي تلف دماغه، فقد أدمت رجلاه وجعلته يحس بالآلام الشديد من فرط الصدمة.

ألم يكن من الأجدى لنا، ونحن نتغنى بشعارات الحداثة والحكامة ومحاربة الهشاشة، أن نكفي هذا الشاب (كمثال) شر هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر، التي قام بها ليتعلم على يد "السينيور لوبيز"، على الضفة الأخرى للأبيض المتوسط، ما كان علينا أن نعلـّمه إياه في الفقيه بن صالح؟ ثم، إن أمثال هذا الشاب، ممّن خرجوا من مغامرتهم بنفس الاستنتاج الذي توصل إليه هو، هم قطعا قليلون جدا؛ فمما هو

معلوم بالمعاينة أن غالبية من غامروا وبقوا على قيد الحياة، لم يعودوا إلى وطنهم، حتى وإن تفرقت بهم السبل وبقوا مشردين متسكعين، يستجدون عطف الآخرين. لم يعودوا لأنهم لم يتوصلوا إلى ما توصل إليه شاب الفقيه بن صالح، أو لأنهم لا يمتلكون ما يملكه (3 هكتارات) من الأراضي الصالحة للفلاحة، أو لأنهم لا يريدون أن يصبحوا عرضة للاستهزاء ممن يرون أنهم فروا من الجنة الموعودة التي لم يعرفوا كيف يدخلوها ويستمتعوا بخيراتها بعد أن كانوا على أبوابها.
في غالب الظن، أن ما حدث لصاحبنا من ريف الفقيه بن صالح، حدث قبل كهربة العالم القروي وما صاحب هذا الأمر من هجوم إعلامي مدمر للشخصية وللمناعة الفكرية، الذي قادته قناة "دوزيم" المؤازرة بالقناة "الأولى"؛ و إلا ّ، فلا أظن أنه كان من الممكن أن ينجلي الضباب عن فكره، أو أن يحس بآلام الصدمة مع صخور أرضية الواقع الاسباني الذي اكتشفه.
أطفالنا وشبابنا كانوا عرضة للهجوم الإعلامي المكبل للعزائم، وللتأثير العميق لمن يرجعون من أرض الجنة الموعودة في سيارات فخمة، في أيديهم السوار، وفي أعناقهم السلاسل الذهبية، يلبسون أفخر الثياب وينفقون (يبذرون) المال بسخاء على مرأى من لازالت أحلامهم بالجنة الموعودة لم تتحقق بعد. هذا الصنف من "الحراكة" الذين تحولت جنتهم الموهومة إلى معلومة كما كانوا يحلمون، يؤثرون تأثيرا سلبيا بليغا في نفسية من لا زالوا يتحينون الفرص للمخاطرة بالنفس لتحقيق الأحلام الوردية الزاهية. لا يهم إن كانت جنة هؤلاء المحظوظين بلون الاتجار في الأغبرة البيضاء، كما هو متداول بين العارفين بخبايا الأمور؛ أليس هذا ما يعمل الإعلام "الدوزيمي" على تمريره لشبابنا العاطل المعطل من خلال المسلسلات المكسيكية التي سكنت بيوتنا

لأزيد من 20 سنة مضت؟ لكن، في المقابل، هناك من سيعلق قائلا "ما العيب في كل هذا، المهم أن يعيش بعض شبابنا أحلامهم الوردية على أرض الواقع، يتنعمون في جنتهم "الموجودة" بشتى السبل الممكنة، فالغاية تبرر الوسيلة". وكرد، أقول أن مثل هذا التعليق لن يصدر إلا ممن تبنى آليات حداثة المسلسلات المكسيكية العبثية.

الهشاشة الإعلامية

لنكن صرحاء مع أنفسنا، من يرفع شعار الحداثة قصد التصدي للهشاشة، ويعمل على تحصينه بشعار الحكامة، لا يمكن أن يسمح لنفسه بالإقدام على كهربة العالم القروي إلا بعد تفكير وتنظير وتدبير وتخطيط وتطبيق. لا بد للمنظومة الإعلامية أن تدخل على الخط بكل ثقلها، لكن بنظرة شمولية متكاملة، وبمنهجية بناءة، قصد تهيئة البنية الفكرية والثقافية للإنسان القروي وترشيدها وتثبيت عوالمها ومعالمها، لجعله قابلا للاستفادة الجيدة من عامل الكهرباء، كما تستفيد الأرض العطشى من عامل المطر. فبدل أن ندفع بصاحبنا الشاب ليغامر بحياته كي يتعلم على يدي "السينيور لوبيز" في اسبانيا ثم يعود لموطنه، فقد كان من المفروض أن نعمل على تحميل المسؤولية المهنية لإعلامنا لكي يقوم بهذه المهمة على الوجه المطلوب، لا أن يكون هو المحرض على "الحريك" وعلى الدفع بالشباب الضائع للتسلح بالسيوف وإثارة الرعب في المدن والقرى، والتي لم يعد يسلم من هجماتهم حتى رجال الأمن، الذين أصبحوا غير قادرين حتى على حماية أنفسهم بسبب فهمنا القاصر المعتوه لمفهوم حقوق الإنسان. فحتى هذا المفهوم تم إنزاله إعلاميا على أرض الواقع بصورة مشوهة إلى أبعد حد، بحيث يتم تضييع حقوق الإنسان والطفل في التربية السليمة والتعليم الجيد

المجدي، وفي الصحة، وفي العمل المثمر وفي السكن اللائق، وما إلى ذلك؛ بينما تم إعطاء "المقرقبين" الحق في ترويع الناس بسيوف تصنع في واضحة النهار، "على عينيك يا بن عدي" كما يقول المثل الدارجي. هل هذه هي نسخة الحداثة التي يعمل إعلامنا على التسويق لها؟ ما هي الهشاشة إن لم تكن هذه هي إحدى تجلياتها المثيرة على أرض الواقع؟ إلى متى هذه الهشاشة الإعلامية المدمرة للذات؟ ألا يمكن أن تحكم الحكامة! مجالنا الإعلامي ومنظومته لجعله في خدمة حداثة التحديث الفعلي للمجتمع وإصلاح أحواله؟

لم يقبل الألمان ببث المسلسل التلفزيوني "دالاس" على شاشاتهم لأنه يمرر لمشاهديه قيما رأسمالية متوحشة. يا ليت "دوزيم" والقناة "الأولى" وقناة "ميدي سات" تبنـّيت بث هذا المسلسل وأمثاله، لأنه يعد أفضل حالا، آلاف المرات، بالنسبة للمسلسلات المكسيكية المدمرة للفرد وللأسرة وللمجتمع. أية ثقافة وأية حضارة هاته التي ستصدرها لنا المسلسلات المكسيكية والبرازيلية، غير ثقافة الاتجار في المخدرات وثقافة الجنس والانحلال الخلقي؟ أي مغربي تريد قنواتنا التلفزيونية للمغرب الحداثي؟ أليس هذا من باب التواطؤ على الإخلال بالسلم الاجتماعي للمغاربة وبالأمن الوطني لهذا البلد الأمين؟ عجيب أمر هذه القناة، تبث السموم المكسيكية المميتة للمغاربة وتأخذ مقابل ذلك من جيوبهم ومن دون استئذان، من خلال فاتورة الماء والكهرباء والتطهير السائل؟ ألم يكن من العدل النسبي أن تعمل "دوزيم" على أن يتقاسم المغاربة المتمكسكين والمكسيكيون (الذين تصدر "دوزيم" منظومتهم الثقافية) الأعباء المادية كما تقاسموا حرف الميم، ليشكل الجمع بينهما اسم هذه القناة العابرة الجامعة للقارات.

يا ليت هذه القناة غيرت وجهتها واتجهت إلى شمال المكسيك، لتبث لشبابنا القروي مسلسلات من طينة مسلسل "دالاس"، لأنها أفضل حالا بكثير جدا من مسلسلات القمامة المكسيكية، بل لا مجال للمقارنة بينها.
فإن كان لا بد لشبابنا القروي من اقتفاء أثر ثقافة بلد ما غير ثقافته وحضارة غير حضارته، فلتكن الثقافة الأمريكية؛ ثقافة رعاة البقر "الويسترن" (western)، حيث التسويق للفتوّة والقوة وأخذ المبادرة والاتحاد بين الناس في مواجهة المخاطر وإدارة الصراع بحنكة من أجل القضاء على من اتخذوا منهم أعداء مفترضين حتى وإن كانوا هم أصحاب الأرض. فإن كان لا بد لشبابنا من ثقافة دخيلة بديلة، فلتكن ثقافة الأمريكيين أو الألمانيين أو اليابانيين، للعمل على توجيههم لاقتفاء أثر هؤلاء الذين يحتلون الصفوف الأمامية للدول المتقدمة، بدل اقتفاء أثر ثقافة مكسيكية مائعة، ثقافة الاتجار في المخدرات وفي البشر وما يصاحبها من صراعات دامية خلفت أكثر من خمسين ألف (50.000) قتيل، ما بين 2006 و2011.
نعم، إن كان لا بد من ثقافة دخيلة تتميز بالصراعات والقسوة، فلتكن ثقافة المسلسل الأمريكي "دالاس"، لا ثقافة المسلسل "ديابلو" المكسيكي. مسلسل "دالاس" يمرر لثقافة رأسمالية، لا مكان فيها للمشاعر والعواطف، ثقافة الندية وفن صناعة التحالفات المرحلية المؤقتة لإدارة المواجهات اليومية الحادة داخل أسواق المال والأعمال؛ بينما مسلسل "ديابلو" المكسيكي (وباقي المسلسلات الأخرى من قبيل: "سجينة الماضي"، "مسار امرأة"، "الحلم الممنوع"، "قلوب للبيع"، "الليدي"، "إستريلا"، "ماريا ابنة الحي"، "سحر الحب"، "نساء قاتلات"، الخ) يؤسس لثقافة الجنس والعنف والاتجار بالمخدرات، وما إلى ذلك من التصرفات والمعاملات المنحطة التي تؤسس لخراب

المجتمعات واضطراب أحوالها. فكما يقال "اللهمّ لعموشية ولا لعمية" (العمش أهون من العمى)، فمن الأحسن لشبابنا تعلم القسوة في المعاملات والتعاملات المشروعة في مسلسل "دالاس"، والتي تحث على الندية وقوة الجأش، وكذا على حسن التدبير والتسيير. كما أنها تربط بين ثقافة المضاربات في أسواق البترول وركوب السيارات الفخمة الفارهة، وبين ثقافة تربية المواشي (الأبقار) والخيول والعمل المضني داخل الضيعات. أفراد عائلة إيوينغ يمتلكون ضيعا (ضيعات) شاسعة، يتعاطون فيها لتربية قطعان الأبقار وتربية الخيول، حيث العمل الدؤوب الذي يتطلبه تسيير الشؤون اليومية عن قرب، من تتبع للأحوال وإشراف على السير الطبيعي للأمور، وما إلى ذلك. عمل مضني في الضيعات، ومضاربات وقسوة في المعاملات، تجعلها تزيد عن الاعتدال في حسن التدبير للمال والأعمال، حيث انتفاء العواطف والمشاعر بين أفراد العائلة الواحدة؛ بينما المسلسلات المكسيكية من قبيل "ديابلو" و"قلوب للبيع" و"نساء قاتلات"، تؤسس لتصرفات ومعاملات منحرفة، دخيلة، مستحدثة، تعدّ وبالا على القيم الإنسانية والحضارية المشتركة بين العنصر البشري في كل العصور وفي كل البلدان. عناوين لمسلسلات تؤسس لتعاملات وعلاقات اجتماعية تنتهك كل الطابوهات وتتنافى مع أبسط الأخلاقيات التي تضمن للبلاد السلم الاجتماعي والأمن الوطني، وللعنصر البشري إنسانيته. مسلسلات تدمر مفهوم الأسرة وكل القيم الإنسانية المتعارف عليها في حدها الأدنى، شرقا وغربا؛ مسلسلات تجعل من تكوين عصابات المخدرات والسرقة والاختطاف والابتزاز نمطا ثقافيا تنظيميا لأفراد المجتمع، ومن التعاطي للجنس خارج منظومة القيم الإنسانية (تجاوز المحرمات والطابوهات) نمطا للحياة، حيث يحتار المولود في معرفة من ولده من

بين من لهم علاقة جنسية مع من ولدته، ويتقاسم العشاق الزوج زوجته، بحيث يتسابق الجميع لاستمالتها وكسب ودّها، كما تتقاسم العاشقات الزوجة زوجها مع ما يثيره ذلك من صراعات ومؤامرات.

الحكامة وكهربة العالم القروي

مر بنا أن الحكامة هي عبارة عن أداة لضبط وتوجيه وتسيير التوجهات الاستراتيجية الكبرى لمؤسسة ما، يمكن تطبيقها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. كما أنها تتوخى حسن التنظيم وتوزيع المسؤوليات وصقل القدرات ودعم التواصل داخليا وخارجيا. ويشمل المصطلح كذلك مفاهيم الشفافية والتزويد بالمعلومات والحقوق والواجبات، الخ. كما تعني كذلك حسن التدبير، الإشراك، التشارك، التوافق، الفعالية وجودة الخدمات والتواصل ،والرؤية الاستراتيجية.

فكما رأينا فقد تبين بالدليل القاطع أن مقتضيات الحكامة هذه، كنهج، وكمنهج عمل لتحديث المجتمع، قد غيبت تماما، خاصة فيما يتعلق بمشروع كهربة العالم القروي. فقد تم الإقدام على تنفيذ هذا المشروع الاستراتيجي الطموح في غياب تام لرؤية استراتيجية تتسم بحسن التدبير والإشراك والتشارك والفعالية وجودة الخدمات للنهوض بالمجالات الفلاحية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالقرى. مشروع كهربة العالم القروي يحمل في طياته كل العناصر الكفيلة، إما بتحويل العالم القروي إلى جنة موعودة، إلى رافعة أساسية للتحديث الفعلي للمغرب وتقدمه أشواطا بعيدة، وإما تحويله إلى مستنقع يزداد تلوثا مع مرور الزمن، يفوح روائح كريهة، تزيد من خنق حواضرنا الملوثة.

الرؤية الاستراتيجية تقتضي القيام بدراسات ميدانية شاملة وهادفة، كفيلة بتوصيف المجالات القروية الحيوية، في كل منطقة وفي كل جهة من جهات المغرب، للتعرف على الخصوصيات التي تؤهلها للاستفادة، على أحسن وجه ممكن، من مشروع الكهربة. ثم، على ضوء هذه الدراسات الميدانية والأبحاث، يتم توصيف المشاريع الاستثمارية المجدية ووضعها بين أيدي المواطنين، محليا ووطنيا ودوليا، لكي يتعرف المستثمرون عليها فيتفاعلون معها إيجابا. نعم، يجب أن يتم تسخير كل مكونات الإعلام، المرئي منه على الخصوص، لخلق بيئة سليمة ومناخ صحي، كفيلين بمحاربة الهشاشة، والتأسيس للتحديث الفعلي للعالم القروي، كرافعة أساسية لتحديث المجتمع المغربي، في كل الميادين وعلى كل المستويات.

المغرب غني بموروثه الثقافي والحضاري

كل إنسان يتكلم عن وطنه حين يتكلم بنرسيسية، حيث يرى أنه غني بثقافته وبما تحويه أرضه من خيرات وما إلى ذلك؛ إلا أنني أقول بتجرد أن مغربنا غني إلى حد بعيد بمكونيه الحضاري والثقافي وكذا بمكوناته الطبيعية. فالمغرب غني بما تحت أرضه وما فوقها، بجباله وهضابه وسهوله، ببحره ومحيطه وصحرائه. كنوز طبيعية من معادن متنوعة، وأراضي فلاحية خصبة شاسعة، وأحواض مائية مغربية محضة، وسواحل بحرية تمتد لآلاف الكيلومترات.

ففي مقابل الكنوز الطبيعية المتنوعة، هناك تنوع في الكنوز الحضارية والثقافية. فإذا ما تم التصدي لكل الملوثات التي أضرت بكنوزنا الحضارية والثقافية إلى حد بعيد، وإذا ما تم نفض الغبار الكثيف الذي يعلوها، فسيتحول المغرب إلى قلعة للسياحة الراقية، التي تقدم للآخر

الوجه المشرق للمغرب وتغريه بإطالة المقام فيه، ومعاودة الزيارة بعد أنا يغادر. ألم يعمل الممثل والصحافي المغربي عبد الرحيم بركاش عبر برنامج الطبخ الشهير على صبغ جانب من أغوار الكنز الثقافي المغربي، حيث يعد المطبخ المغربي (المطبخ الحضري وكذا القروي) من أغنى المطابخ في العالم وأرقاها. لنقرأ الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" وهي تعرفنا بالمطبخ المغربي:

"يعتبر المطبخ المغربي منذ القدم من أكثر المطابخ تنوعا في العالم. والسبب يرجع إلى تفاعل المغرب مع العالم الخارجي منذ قرون. المطبخ المغربي هو مزيج من المطبخ الامازيغي والعربي، مغاربي، شرق أوسطي، البحر الأبيض المتوسط وإفريقيا. الطهاة في المطبخ المغربي على مر القرون في كل من فاس، مكناس، مراكش، الرباط وتطوان هم من خلقوا الأساس لما يعرف المطبخ المغربي اليوم.

التأثير والتاريخ

المغرب كمنبع وملتقى لحضارات عديدة، قد تأثر مطبخه بالمطبخ الأمازيغي الأصيل بالإضافة إلى المطابخ العربية والعربية الأمازيغية الأندلسية؛ المطابخ التي حملها الموريسكيون عندما غادروا اسبانيا، والمطبخ التركي العثماني والشرق الأوسطي ومطابخ جلبها العرب واليهود.

يُترجم تاريخ المغرب في مطبخه. فاللاجئون الهاربون من العباسيين غادروا بغداد في القرون الوسطى واستقروا في المغرب، جالبين معهم الوصفات التقليدية التي أصبحت شائعة في المغرب منسية في الشرق الأوسط. ويثبت هذا ما دونه البغدادي في مؤلفاته (القرن 12 ميلادي) عن الوصفات العراقية وأوجه الشبه مع الأطباق المغربية المعاصرة.

السمة المميزة هي الطبخ بالفواكه مع اللحوم مثل السفرجل مع لحم الحمل أو المشمش مع الدجاج. كذلك التأثيرات على المطبخ المغربي التي أتت مع الموريسكيين (اللاجئين المسلمين) الذين طردوا من إسبانيا خلال محاكم التفتيش.

حسب بولا وولفيرت، المتخصص في المطبخ المغربي وصاحب أشهر كتاب عن هذا الموضوع (انظر قسم كتب الوصفات) :

"برأيي أن أربعة أشياء ضرورية لكي تطور أمة مطبخا عظيما. الأولى، هي وفرة المكونات، دولة غنية. ثانيا، تنوع التأثيرات الثقافية: تاريخ الأمة، بما فيه هيمنته الأجنبية، وعادة ما يعود بأسرار الطهي من مغامراته الامبريالية. ثالثا، حضارة عظيمة، وإذا لم يكن لبلد يوم مشرق في تاريخه، ربما لن يكون له مطبخ عظيم؛ الأكلات العظيمة والحضارة العظيمة يسيران جنبا إلى جنب. أخيرا، وجود حياة قصر أنيقة، دون مطابخ ملكية، دون فيرساي أو المدينة المحرمة في بكين، باختصار، يتطلب وجود طلب على مجامع ثقافية، فمخيلة طهاة الأمة لن تكون تحديا. و المغرب، لحسن الحظ، جمع كل الأربع" ومن مميزات المطبخ المغربي أطباق ومأكولات ذات صيت عالمي كالكسكس، البسطيلة، الطاجين، المروزية، الطنجية، الزعلوك، البيصارة، الحرشة، الملاوي، البغرير، والحريرة، الخ. كما أن المغرب مشهور بثقافة الشاي، "حيث يعتبر حسن تحضير الشاي الأخضر بالنعناع شكلا من أشكال الفن وشربه مع أفراد الأسرة والأصدقاء هو أحد أهم طقوس اليوم. كما أن أسلوب سكب الشاي لا يقل أهمية عن جودته". كما أن هناك ثقافة القهوة المنسمة بالأعشاب المغربية والتوابل بحيث تتميز بنكهات خاصة من منطقة إلى أخرى،

ومن مدينة إلى أخرى، تجعل شاربها يحن لمعاودة تناولها كل يوم، عند وجبة الفطور أو في آخر النهار.
قبل مواصلة التطرق لغنى المغرب ثقافيا وحضاريا وطبيعيا، لا بد من التأكيد على أن ما قاله "بولا وولفيرت" من أن المغرب قد توفرت فيه الشروط الأساسية الأربعة (أربعة أشياء) الضرورية لكي تطور أمة مطبخا عظيما، يعد شهادة في حق رفعة شأن الحضارة المغربية. بلد هذه حضارته كما يشهد لها الأجانب، لا يعقل، بل لا يمكن قبول حتى فكرة التنكر لها مع العمل على استيراد ثقافات دخيلة منحطة يتم التسويق لها على أنها الوصفة الحداثية السحرية لتقدم البلاد. فعلى من تغرب حتى عاد غريبا عن حضارة بلده وتاريخ أجداده أن يسافر في الزمان لاستكشاف ما يخبئه من كنوز حضارية، بدل السفر في المكان بحثا عن عوالم حداثية فلكلورية مشوهة.

الكنز الحضاري للمغاربة يتم طمسه

نعم، فكما قال "بولا وولفيرت"، *"الأكلات العظيمة والحضارة العظيمة يسيران جنبا إلى جنب"*. حضارتنا حضارة عظيمة (علمية، اجتماعية، اقتصادية، فلاحية، الخ) تم طمس معالمها إلى حد بعيد، بحيث لم يتبق منها إلا بعض الأطلال المتناثرة، من قبيل أطباق المأكولات ذات الصيت العالمي، والتي نعمل، نتيجة الغباء الذي استحكم في أفكارنا، على ربطها بثقافة فلكلورية رديئة، حيث تبدو المشاهد للمتتبع متنافرة ومنحطة. تلوث بيئي يعم السهول والجبال، وأكوام من القمامة أين ما حللت وارتحلت في المدن والقرى، يوازيه تلوث ثقافي مقزز بحيث أصبحت ساحة جامع "الفنا" في مراكش بمشعوذيها ومداعبي الأفاعي ومرودي الحمير والشوافات، الخ، هي التي تمثل التراث الحضاري

المغربي الذي تعترف به اليونيسكو وتعمل على الحفاظ عليه كواجهة للتعريف بنوعية حضارة المغاربة.

يُعرف المغرب في المشرق العربي باسم مراكش، وتعرف مراكش حاليا بجامع "الفنا"، وتعرف جامع "الفنا" كفضاء شعبي حيث "رواة الحكايات الشعبية والأحاجي، والبهلوانيون، والموسيقيون والراقصون وعارضو الحيوانات وواشمات الحناء ومروضي الأفاعي" (نقلا عن ويكيبيديا). فهل هذه هي مراكش المغرب، والمغرب مراكش؟ هذه هي مراكش المرابطين والموحدين (يعقوب المنصور هو من أمدّ صلاح الدين الأيوبي في حربه ضد الصليبيين بأسطول بحري كان هو الأقوى في العالم)، تـُختزل في "حلاقي" جامع الفنا المعلنة كتراث لا مادي إنساني من طرف منظمة اليونيسكو في 2001. ثم إذا ما عرجنا، في هذه المدينة، على بعض الفضاءات حيث الأكل التقليدي (الكسكس والطواجين) والشرب والفرجة (الفلكلور المتزامن مع الأكل الذي يضفي جوا من المتعة والبهجة) تعود بالفرد إلى عصر علي بابا والأربعين حرامي، كما يقول أحد المعجبين بما يسميه فضاء الأعراس "عند علي" (Chez Ali).

نعم، حضارتنا العظيمة التي غيرت نمط حياة الإنسان على وجه الأرض[1]، يتم اختزالها في مشاهد من صنف "علي بابا والأربعون حرامي"، و"علاء الدين والمصباح السحري" (Aladin et la lampe merveilleuse) وفي قصص ألف ليلة وليلة الخرافية. إنه النيل بطرق

---

[1]- انظر خاتمة كتب: - آليات صناعة التخلف، وقفة صريحة مع الذات؛ - التعليم بين الكفايات والإدماج، من كرة القدم إلى نظرية داروين؛ - الهدر الجامعي، أسباب تدهور المستوى اللغوي والمعرفي لخريجي الجامعات.

مهينة من أسس حضارة عظيمة، وهو النهج المتبع مع كل عظماء الحضارة الإسلامية. فهذا سليمان القانوني الذي يعرف عند الغرب بسليمان العظيم، يعتبره المؤرخون الغربيون *"أحد أعظم الملوك على مر التاريخ"*. قاد هذا الملك العظيم بنفسه الجيوش العثمانية لغزو المعاقل والحصون المسيحية في بلغراد ورودوس وأغلب أراضي مملكة المجر قبل أن يتوقف في حصار فيينا في 1529؛ كما ضم أغلب مناطق الشرق الأوسط في صراعه مع الصفويين (أجداد الشيعة الإمامية الروافض في إيران) المتواطئين مع الصليبيين، في الماضي والحاضر. هذا هو الملك سليمان القانوني الذي تلقفت قناتنا التلفزيونية ظهور المسلسل التلفزيوني الذي يصوره شخصا يعيش حياة البذخ والولع بالنساء، يقضي وقته في التمتع بحريمه، لتعرضه على المغاربة، لتقول لهم أنتم حفدة هؤلاء الملوك المهووسون بالجنس والتعاطي للرذيلة، المفرطون في القيام بمهامهم، المستخفون بمسؤولياتهم.

كما أن نفس الشيء سرى على الملك العظيم هارون الرشيد؛ فلقد تم تدريسنا، أنه كان لا يفارق السكير واللواطي أبا نواس (بينما الحقيقة أنه كان كثيراً ما يحبسه عقاباً له على ما يورد في شعره من المباذل والمجون؛ علما أن أبا نواس كان عالماً فقيهاً عارفاً بالأحكام). واليكم بعض الحقائق من موسوعة ويكيبيديا:

"بويع الرشيد بالخلافة في (14 ربيع الأول *170* هـ 14سبتمبر *786م)، بعد وفاة أخيه موسى الهادي، وكانت الدولة العباسية حين آلت خلافتها إليه مترامية الأطراف متباعدة تمتد من وسط آسيا حتى المحيط الأطلسي، معرضة لظهور الفتن والثورات، تحتاج إلى قيادة حكيمة وحاسمة يفرض سلطانها الأمن والسلام، وتنهض سياستها*

بالبلاد، وكان الرشيد أهلاً لهذه المهمة الصعبة في وقت كانت فيه وسائل الاتصال صعبة، ومتابعة الأمور شاقة.

بتولي الرشيد الحكم بدأ عصر زاهر كان واسطة العقد في تاريخ الدولة العباسية التي دامت أكثر من خمسة قرون، ارتقت فيه العلوم، وسمت الفنون والآداب، وعمَّ الرخاء ربوع الدولة الإسلامية. ولقد أمسك هارون الرشيد بزمام هذه الدولة وهو في نحو الثانية والعشرين من عمرِه، فأخذ بيدها إلى ما أبهر الناس من مجدها وقوتها وازدهار حضارتها.

أصدر الرشيد عند توليه الخلافة عفوا عاما أمن كل من كان هاربا أو مستخفيا عدا بعض الزنادقة.

وأنشأ بما يعرف ببيت الحكمة في بغداد وزودها بأعداد كبيرة من الكتب والمؤلفات من مختلف بقاع الأرض. وكانت تضم غرفًا عديدة تمتد بينها أروقة طويلة، وخُصصت بعضها للكتب، وبعضها للمحاضرات، وبعضها الآخر للناسخين والمترجمين والمجلدين. كما تمت في عهده أول ترجمة إلى العربية لأشهر كتاب علمي عرف في التاريخ وهو "كتاب الأصول (الأركان) في الهندسة والعدد لإقليدس، وتطورت العلوم خصوصًا الفيزياء الفلكية والتقنية، وابتكرت عدد من الاختراعات كالساعة المائية .كما أنشئ في عهده أول مصنع للورق ببغداد سنة 795م وصار سوق الوراقين لاحقا الذي يضم مئات الحوانيت التي تبيع السلع الورقية الفاخرة مفخرة عاصمة العباسيين وكان ورق بغداد يقدر تقديرا عاليا في المنطقة حتى إن بعض المصادر البيزنطية تسمي الورق بصحف بغداد (Bagdatixon) في ربط مباشر بينه وبين مدينة بغداد.

اهتم هارون الرشيد بالإصلاحات الداخلية فبنى المساجد الكبيرة والقصور الفخمة وفي عهده استعملت القناديل لأول مرة في إضاءة الطرقات والمساجد .إعتنى الرشيد أيضًا بالزراعة ومأسسة نظامها، فبنت حكومته الجسور والقناطر الكبيرة وحفرت الترع والجداول الموصلة بين الأنهار، وأسس ديوانًا خاصًا للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال الإصلاحية، ومن أعماله أيضًا تشجيع التبادل التجاري بين الولايات وحراسة طرق التجارة بين المدن، وقد شيّد مدينة الواقفة قرب مدينة الرقة على ضفاف الفرات لتكون مقرًا صيفيًا لحكمه.

و غدت بغداد قبلة طلاب العلم من جميع البلاد، يرحلون إليها حيث كبار الفقهاء والمحدثين والقراء واللغويين، وكانت المساجد الجامعة تحتضن دروسهم وحلقاتهم العلمية التي كان كثير منها أشبه بالمدارس العليا، من حيث غزارة العلم، ودقة التخصص، وحرية الرأى والمناقشة، وثراء الجدل والحوار. كما جذبت المدينة الأطباء والمهندسين وسائر الصناع. وكان الرشيد نفسه يميل إلى أهل الأدب والفقه والعلم، حتى ذاع صيت الرشيد وطبق الآفاق ذكره، وأرسلت بلاد الهند والصين وأوروبا رسلها إلى بلاطهِ تخطب وده، وتطلب صداقته؛ كما أرسلت طلابنا لتعلم أصناف العلوم والاختراعات".

وفي نفس السياق، سياق الكذب والدسائس، تعلمنا في مؤسساتنا التعليمية أن "أبا موسى الأشعري" "المغفل" (علما أن غزارة علمه وفطنته جعل الخلفاء يقلدونه منصب قاضي قضاة المسلمين) مثل عليا في التحكيم بينه وبين معاوية الذي مثله عمرو بن العاص "الداهية"، الذي ترك أبا موسى الأشعري يفصح بخلع علي ليثبّت هو معاوية. نفس النهج التشويهي تم سلكه مع عظيم آخر من عظماء حضارتنا، ويتعلق الأمر بالقائد التاريخي صلاح الدين الأيوبي قاهر الحملات

الصليبية. كذب في كذب، وافتراءات لا حد لها، قصد النيل من مقومات هذه الأمة العظيمة والانتقاص من حضارتها للفت أنظار أبنائها بعيدا عن ماضيهم المجيد الذي يمثل التربة الحضارية الخصبة لاستنبات المقومات الكفيلة بإعادة بناء صرح الأمة على أسس سليمة وتحديثها تحديثا وحداثة حقيقية راقية.

يتعلق الأمر بتزوير ممنهج للحقائق التاريخية بغرض الانتقاص من عظماء حضارتنا التي غيرت وجه التاريخ البشري[1]. فبينما يعمل الغربيون وغيرهم، على تعظيم عظمائهم وتقديمهم في أبهى الصور، من خلال أجمل المشاهد، نعمل نحن على تشويه عظماء أمتنا إلى حد بعيد، والنيل منهم عبر الترويج لمشاهد مقززة يصورها من أعلنوها حربا حضارية نفسية علينا منذ قديم الزمان، خاصة منذ العصور الوسطى (المعروفة بعصور الظلمات عند الأوروبيين)، التي أصبح المنصفون الغربيون يسمنوها "العصور الذهبية للحضارة البشرية" من خلال المعرض الدولي الذي أقيم في لندن بين شهري فبراير ومارس من سنة 2010. للتعرف على هذه المعطيات، يرجى إدخال عنوان "1001 inventions" على "يوتوب" أو في خانة البحث للملاح غوغل (google) لاكتشاف بعض الأوجه المشرقة والمشرفة لحضارة عربية إسلامية غيرت وجه تاريخ الحضارة البشرية.

---

[1] - انظر خاتمة كتابي: - آليات صناعة التخلف، وقفة صريحة مع الذات؛ - التعليم بين الكفايات والإدماج، من كرة القدم إلى نظرية داروين

المغرب مراكش، مراكش جامع الفنا

ثم، إن قرونا من حضارتنا المغربية العريقة (شمال أمريكا اللاتينية كان تابعا للمرابطين حسب بحث قيم للدكتور إدريس الكتاني مؤسس المعهد الإسلامي في إسبانيا) يتم اختزالها في أكل الكسكس (المُحضّر بكيفية رديئة) "عند علي" والتمتع بالأهازيج الفولكلورية المصاحبة (المراكشية: جريدة يومية الكترونية إخبارية). وللإفادة اخترت المقطع الموالي من مقال بهذه الجريدة:

"فالفضاء ساحر يجمع عوالم البادية المغربية بسحر ألف ليلة وليلة، حيث يستقبلك على بابه الكبير بشكله التقليدي فرسان يمتطون خيولاً أصيلة، قبل أن تصادفك عرائس ونماذج لخيول وفروسية المغرب عبر متحف جانبي، إضافة إلى ***مغارة مشكلة بدورها بشكل تقليدي****، قبل أن ينفتح المشهد أمامك على فضاء العرس والسهرة، بداية* ***بصف طويل من الفرق الفلكلورية التي تستقبلك برقصاتها وأهازيجها، وصولاً إلى بناية تحيل على قصور ألف ليلة وليلة****، وطاولات تقترح عليك عشاءً يتدرج في اقتراحاته، من شوربة مغربية ومشويات وكسكس وحلويات «جوهرة» وشاي منعنع وتشكيلة من فاكهة الموسم. الجميل أن* ***لحظة الاستمتاع بالأكل لا تمرر إليك في صمت، بل تقترح عليك بالموازاة معها تشكيلة من الأهازيج والفلكلور المغربي****، تؤديها فرق من مختلف مناطق المغرب، حيث أهازيج الأطلس والصحراء والريف وزاكورة، وغيرها* ***تسهل عليك مهمة المضغ، فيما تجمع شهية البطن بمتعة السماع****. أما العاملون الذين يسهرون على خدمتك، فيتوحدون في لباسهم التقليدي المشكل من الجلباب الأبيض والطربوش الأحمر. وإضافة إلى الأهازيج التي تميز كل فرقة موسيقية، فإن الألوان وطريقة اللباس تجعلك تتعرف مباشرة على ما يميز البلد على صعيد*

التنوع في الأذواق والغنى في الأشكال.

ولأن الأطباق المقترحة تقدم لك متتالية، ويستغرق الانتقال خلالها من شكل إلى آخر مدة زمنية كافية للاستمتاع بما يقدم، فإن غسل اليدين غالباً ما يكون بعد ساعة ونصف على أقل تقدير، تترك أمام الحضور مساحة زمنية للانخراط جماعة في أجواء الفلكلور والفروسية، العصرية والتقليدية.

بعد الأكل مباشرة، تنطلق الموسيقى على إيقاع موكب فلكلوري ورائحة البارود وسحر الفانتازيا والفروسية العصرية الاستعراضية، ممزوجة بالرقص الشرقي والدقة المراكشية. للفرجة سيناريو خاص بها، وليست مجانية أو مقترحة أمام الرواد والزوار كيفما اتفق، بل هي تنقل لفكرة انطلقت صغيرة قبل أن تستقر على حالها اليوم فرجة ومتعة سهر. هي قصة تحكي ***احتفاء أهل «دوار» أو قرية ما من قرى وبوادي الأطلس والمغرب العميق بابن أو ابنة عادت من سفر بعيد، بعد شوق وطول غيبة****. وهي فرحة تترجم فلكلوراً وتذوقا، يقترح على الضيوف من أهل القرية الذي يشاركون أهل المحتفى به فرحة العودة. وهكذا يتحول «عند علي» إلى قرية وصاحب «عند علي» إلى مضيف.*

فنحن معه نكون مع قرية قائمة بذاتها تتشكل من 14 فرقة فلكلورية، من 160 عضواً، كما أن عدد العاملين به من إداريين وطهاة ونادلين ومكلفين الصيانة يصل إلى 800 فرد، الشيء الذي يُبين ضخامة الجهد الذي يستهدف رضى الضيف وولاءه".

من خلال هذا النص، يمكن تلخيص المعلمة السياحية المتمثلة في فضاء "عند علي" في المقاطع المقتطفة من مقال المراكشية (الجريدة الالكترونية): عند الباب التقليدي توجد "مغارة مشكلة بدورها بشكل

تقليدي". يستقبل (الضيوف) "بصف طويل من الفرق الفلكلورية التي تستقبلك برقصاتها وأهازيجها، وصولاً إلى بناية تحيل على قصور ألف ليلة وليلة". وعند تناول وجبة العشاء "لحظة الاستمتاع بالأكل لا تمرر إليك في صمت، بل تقترح عليك بالموازاة معها تشكيلة من الأهازيج والفلكلور المغربي تسهل عليك مهمة المضغ، فيما تجمع شهية البطن بمتعة السماع". القصة تمثل "احتفاء أهل «دوار» أو قرية ما من قرى وبوادي الأطلس والمغرب العميق بابن أو ابنة عادت من سفر بعيد، بعد شوق وطول غيبة".

نعم، هناك مغارة عند الباب، تربطك مباشرة ب"علي بابا"، الأسطورة الخرافية التي يراد لها أن تمثل البعد الحضاري للمغربي. على صفحات منتدى "ماجدة"، نقرأ المقطع التالي: << *فنتذكر لحظة دخول "على بابا" للمغارة وهتافه: «زمرد، لؤلؤ، ذهب.. أحمدك يا رب»، ونتمنى في داخلنا أن نعثر على مغارة مثل مغارة "على بابا" وأحيانا نندب حظنا الذي لم يجعلنا نعثر على المغارة التي تمتلئ بثروات تحل مشاكلنا رغم أننا نعرف أن "على بابا" كان مجرد حدوتة خيالية استمتعنا بها دون أن ندرك أنها زرعت فينا هذا النوع من التواكل، وانتظار الحظ الذي يكافئنا على طيبة قلبنا كما كافأ "على بابا " من قبل..*>>

يا للأسف، إن ما يبعث على الأسى ويولد الحسرة والألم في القلوب، أن حضارة "مراكش المغرب"، الضاربة في أعماق التاريخ، يتم اختزالها في فلكلورية ساحة جامع الفنا، وفضاء "عند علي"؛ يتم اختزالها في أمور لا تمس للإرث الحضاري للمغاربة بصلة، بل هي عبارة عن خليط من مشاهد مشوهة من صميم ثقافة التخلف والانحطاط. فلا أدري ما المغزى الحضاري من المشهد الذي يجمع

بين زبائن يتناولون العشاء (غالبيتهم سياح غربيون وأجانب) بينما فرق فلكلورية من أقاصي البوادي يرقصون لهم ويملئون عليهم الفضاء بأهازيجهم. ومما يثير انتباه الناظر عن قرب إلى أفراد الفرق الفلكلورية التي "تسهل على الأكلة مهمة المضغ" أن وجوههم تبدو شاحبة ويظهر العوز والفقر على سحناتهم. إنه مشهد لا ينسجم نهائيا مع ما يُسوّق له على أنه تعريف بالحضارة المغربية وبالمكونات الثقافية المتنوعة. ثم، لابد من الإشارة إلى أن الكسكس (الطبق المغربي الشهير الذي دخل كل مطاعم العالم) والشاي (المشروب المغربي الأصيل) يتم تحضيرهما بطريقة ينقصها الكثير حتى ترقى لمستوى الشهرة المحلية، فما بالك بالشهرة العالمية للمطبخ المغربي. فلولا البهرجة الفلكلورية والمشاهد الأسطورية الخرافية التي تملأ هذا الفضاء، من البداية حتى النهاية، لما ولجه إلا النزر القليل من الزبناء. نعم، يتم التسويق لثقافة فلكلورية رديئة لجذب الزبناء، بينما لا يعار أي اهتمام لطريقة طهي الكسكس وتحضير الشاي، كمكونين رفيعين من مكونات المطبخ المغربي الراقي، الذي يشكل الواجهة المشرقة لحضارة مغربية رفيعة. لقد تم قلب المفاهيم رأسا على عقب، فبدل الاستثمار في المطعم المغربي الراقي كواجهة حضارية رفيعة لجذب الزبائن من شتى أنحاء العالم، يتم الاستثمار في الخرافة والأساطير لإثارة فضول الزبناء بمشاهد تسوّق لثقافة مغربية رديئة منحطة، ثقافة لصيقة بمغارة علي بابا في مخيلة الناس. إنها ثقافة تزرع فينا هذا النوع من التواكل، وانتظار الحظ الذي يكافئنا على طيبة قلبنا، كما هو مسطر على صفحات منتدى "ماجدة". في كل من فضاء جامع الفنا و"عند علي" يتم التسويق لموروث ثقافي منحط ضارب في أعماق

تاريخ المغربي، وهو ما دفع بمن لا يعرف حضارته وتاريخه إلى تبني القطيعة مع جذوره ولو باقتباس مظاهر حداثية فلكلورية.

كهربة العالم القروي ومجالات التنافسية

كل دول ما يسمى بالعالم الثالث التي تمكنت من تحديد وجهتها، وعقدت العزم على النهوض، بعدما استيقظت من سباتها، عملت، قبل كل شيء، على تحديد المجالات التي تـُمكـّنها من ربح رهان التنافسية بالنسبة للدول الأخرى، حتى لا تصاب الانطلاقة بانتكاسة مدمرة للآمال. فلا يمكن ربح رهان المنافسة في المجالات التي قطعت فيها الدول المتقدمة تكنولوجيا، أشواطا بعيدة جدا. كما أنه يجب الاستثمار البناء في العنصر البشري، الذي يمكن التعويل عليه لولوج عالم التنافسية في المجالات التي يتم تحديدها، لإعطاء الانطلاقة الموفقة لنهضة شاملة تؤمن التقدم والرقي للمجتمع.

تتجلى الخصوصيات الطبيعية والحضارية والثقافية لجهاتنا الوطنية وتنوعها على مستويات متعددة، أخص بالذكر منها هنا ميدان الأكلات والطبخ في سياقه الثقافي والحضاري. فعلينا أن لا ننسى بأننا نوجد على الأبواب الجنوبية لأوروبا التي افتقد الناس فيها الأكل العضوي الطبيعي (manger bio) كنتيجة للتقدم التكنولوجي والصناعي الذي اقتحم العالم الفلاحي (الزراعة وتربية المواشي) لتأمين التنافسية المطلوبة في الحروب التجارية التي تدور رحاها بين الدول المتقدمة.

من هنا تتبين الأهمية الإستراتيجية لهذا الميدان الحيوي الذي يبدو مهيئا لاستقبال الاستثمارات المجدية بعد أن تتم إحاطته بما هو مطلوب من الدراسات والبحوث الميدانية، من كل الجوانب.

يتطلب الأمر القيام بجرد شامل للمعطيات الثقافية والحضارية الخاصة بكل جهة. تشمل المعطيات الطبيعية ما هو من قبيل الميزات الجغرافية الخاصة وما هو من قبيل الخصائص الجيولوجيا المثيرة قصد خلق ما يسمى بالحدائق الجيولوجية (أو جيوبارك géoparcs) من منظور حضاري. أما المعطيات الحضارية والثقافية فتشمل تاريخ المنطقة (أهم رجالاتها من سياسيين ومفكرين وعلماء، أهم الأحداث التاريخية التي وقعت، التطور الحضاري والثقافي، تاريخ المطبخ وتطوره، تاريخ الفنون وتطورها، الخ). نعم، لا نتوقف عن التغني بالجهوية وخصائصها، فما على الباحثين إلا أن يقوموا بما يجب القيام به، كل في ميدان تخصصه، لتكوين بنك للمعطيات، يمكّن من التعريف عن قرب بكل جهة وربطها بالعالم الخارجي عبر وسائل وتقنيات الاتصال الحديثة لجلب الاستثمارات وجلب السياح. ثم، فما على المهندسين المعماريين إلا أن يجتهدوا ليبتكروا نماذج هندسية لقرى سياحية مندمجة، من كنه الحضارة المغربية، بدل استيراد نماذج هندسية مستوحاة من الموروث الحضاري للآخر. كما أن على مهندسي المصالح البلدية والقروية أن يعملوا كل ما في وسعهم للتصدي لظاهرة التلوث المشينة التي تفشت إلى حد مخيف، بحيث أصبحت حتى شوارع الرباط، عاصمة المملكة، عبارة عن مطارح للقمامة وللأزبال بكل أصنافها. يجب خلق بيئة بمناخ كفيل بأن يجعل الزائر الغربي (كمثال) يحس أنه يوجد في عالم مغاير تماما لما اعتاده من حيث الإقامة والأكل والشرب. فلن يحس السائح بالتغيير المطلوب في نمط حياته وهو يسكن فنادق مماثلة لما يوجد في بلده، ويشرب البيرة والمشروبات الكحولية التي توجد في مدينته. فما علينا إلا أن نستحضر في ذاكرتنا قصر الحمراء وباقي الآثار العربية الإسلامية وما تجلبه

من أموال طائلة للقطاع السياحي الإسباني (عشرات الملايير من الدولار سنويا) لنعلم أنه بإمكاننا جلب ملايين السياح الأغنياء (سياحة رفيعة، لا سياحة طائرات الشارتر avions charters) إلى بلدنا للتمتع بالوجه الحضاري المغربي الأصيل الرفيع المغاير تماما لنمط حياتهم.
فمتى عملنا على الجمع بين الجودة العالية على كل المستويات (المعاملة اللائقة، قرى سياحية آمنة ونظيفة، إقامات ذات بعد حضاري أنيقة بسيطة أو راقية، أكلات عضوية طبيعية ومشروبات من خزائننا الثقافية والحضارية،) وبين الصرامة في مراقبة جودة البيئة والمأكل والمشرب، ومعقولية الأثمنة، فسنفتح قطعا أبواب المغرب الحضارية على مصراعيها لملايين الزوار الأغنياء؛ ومن هنا يبدأ مسار الحداثة الحقيقية للبلاد في تناسق مع باقي المسارات في كل الميادين.
فلا يجب أن نجعل من السياحة وسيلة للتسول ولسلب الآخرين أموالهم بالتحايل، كما هو عليه الحال حاليا. نريدها سياحة بأجندة حضارية، تسهم في خلق مناصب للعمل لشباب مثقف حاملين للشهادات، يتم تكوينهم للقيام بهذه المهام بانضباط ومسؤولية، شباب يتم توجيههم إلى هذا النمط من التكوينات كبديل عن الاستمرار في التكوينات الكلاسيكية التي قد لا يظهر عليهم التفاعل الإيجابي معها. نريدها سياحة لتعريف الآخر بكنوزنا الحضارية التي أهملناها إلى حد بعيد، بحيث لم نعد نعرف عنها إلا النزر القليل في أحسن الأحوال؛ سياحة تربط، أولا وقبل كل شيء، أبناءنا بجذورهم الحضارية المتينة، لكي تعيد لهم العزة والثقة في النفس التي افتقدناهما منذ زمن بعيد. فمنذ زمن بعيد وشبابنا يحاول الانسلاخ من هويته ولبس جلود الآخرين، أي جلد كان، تحت وطأة الإعلام الغربي المدمر، وإعلامنا المتواطئ معه عن دراية وعلم! أو عن جهل! فبدل أن يعمل إعلامنا على مواجهة التحديات

الكبرى والتصدي للحرب المدمرة التي تشن على شبابنا بكل أنواع الأسلحة الإعلامية الفتاكة، بالعمل على ربط أبنائنا بجذورهم الحضارية العربية الإسلامية الراقية الضاربة في التمدن والتحضر، فقد عمل هو كذلك على تبني الخط التدميري للهوية الحضارية المغربية من حيث يدري أو لا يدري، وهو ما يمثل مصيبة بكل المقاييس.

تواطأ القطاع الإعلامي مع القطاع السياحي، عن قصد ! أو عن غير قصد! على ربط المغربي بثقافة "مغارة علي بابا والأربعين حرامي". عملت هذه القطاعات، وغيرها من المنظومات، على إظهار المغربي كشخص "شحات" (كما يقول إخواننا المصريون الذين تعرضوا هم كذلك ويتعرضون لحرب مسخ الهوية) عاطل معطل، كل همه الانسلاخ من هويته ولو بركوب قوارب الموت الرهيبة. فحتى منظومتنا التربوية المعول عليها لبناء عنصر بشري قوي الشخصية بقوة بنيته الحضارية والثقافية والعلمية والمعرفية، زادت الطين بلة وبللا؛ بل شكلت أرضية خصبة لزرع بذور إنسان مغربي معطل ممسوخ، مفتقد الهوية، منعدم الشخصية، غريب التطلعات، محدود الأفق إلى حد الانسداد. وبخصوص المنظومة التعليمية، فقد تواطأ حتى الآباء والمدرسون لتخريج أجيال معطوبة، لا قدرة لها على التموقع والتموضع السليمين في النسيج الاجتماعي، ولا قابلية لها للتفاعل الإيجابي مع محيطها، ولا همّ لحاملي الدبلومات إلا العمل على ولوج الوظيفة العمومية، حيث تستشري ثقافة الكسل والغش وقتل الوقت بكل السبل[1]. لقد تواطأت المؤسسات الإعلامية مع القطاع السياحي على

[1]- انظر كتاب "آليات صناعة التخلف، وقفة صريحة مع الذات"

الجعل من المغربي ذلك الصرار في قصة "الصرار والنملة"، الذي يقضي وقته في اللهو و"التزمار"، حيث يضيع جل وقته في تتبع المهرجانات الغنائية الممتدة على طول السنة، وكذا مباريات كرة القدم التي لا يتوقف بثها المباشر والغير مباشر على الفضائيات، ليلا ونهارا. لقد تم خلق أجيال من الأطفال والشباب لا حد لمتطلباتهم المادية، ولا قابلية لهم للعمل والكد والاجتهاد لتأمين هذه المتطلبات. يا لها من معادلة عصية على الحل، فكيف السبيل للتصدي لخطورتها على السلم الاجتماعي وأمن البلاد.

خرج العقاب (النسر) مع صغيره ليعلمه كيف يصيد وما يمكنه صيده وما لا يمكن، ثم ابتعد عن النـُّسيّر الصغير وجلس يراقب ما يقوم به. حام الصغير في السماء على علو منخفض ثم انقض على قط ليس بالكبير، لكن ما أن طار به حتى انقلب الهر وغرس مخالبه في جسد النـُّسير وأحاط بعنقه. رأى العقاب ما حدث، فنادى على صغيره، قائلا: ألق به، لا نصطاد مثل هذه الطريدة. أجاب النـُّسير أنه قد "طلق" هو منه (لم يعد يمسك به) لكن القط لم "يطلق". نعم، عملنا، عن قصد، أو عن غير قصد، على إلهاء أطفالنا وشبابنا بتوافه الأمور وتركهم من دون تربية سليمة، بل ومن دون تربية، ظنا من المنظرين لهذا الاستخفاف بعقول الناس، أنها ستلهيهم عن المطالبة بما يرونهم حقوقهم والعمل على انتزاعها بكل السبل، لكن أتت الرياح بما لم يكن يشتهيه من أوجدوا هذا النمط من الشباب. نعم، لقد عملنا على خلق أجيال معطلة، لكن لا حد لمتطلباتها المادية. لقطات إشهارية محبوكة الإخراج تحث الشباب على العيش الرغيد والتمتع بالحياة من خلال الأسفار وتعرف الشباب على الشابات الجميلات، والشابات على الشباب لخلق مجتمع حداثي، يخلق لأبنائنا الظروف المواتية للتمتع

بطفولتهم إلى حد سن الثامن عشرة، ليتفرغوا فيما بعد لمواجهة واقع العطالة والبطالة وما إلى ذلك من المنغصات.

شباب وشابات لا حد لمتطلباتهم المادية، يريدون عيش حياتهم بشغف شديد، يعيشون على آخر صيحات الموضة في كل شيء، يلبسون أغلى الأحذية الرياضية (espadrilles) ويتناولون وجبات الأكل في المطاعم، ويخصصون جل وقتهم للتفرج على مباريات كرة القدم، ويتلقفون آخر الأخبار المتعلقة بالحياة الشخصية للاعبين وحياة الفنانين والفنانات وتربص المهرجانات الغنائية للاستمتاع من قريب بالمحبوبين من النجوم والأقمار والكواكب والمذنبات والنيازك، وما إلى ذلك من المسميات الجوفاء. شباب معطل (عطالة ذاتية) ذووا متطلبات مادية مرتفعة لا طاقة للآباء للإيفاء بها رغم تنوع طرق وسبل جمع المال.

تجتهد قنواتنا التلفزيونية من خلال برامجها المتنوعة في تتبع آثار الفنانين والفنانات ليكونوا قدوة لبناتنا وأطفالنا، بحيث تجتهد هذه المنابر الإعلامية الخطيرة في تقفي حتى آثار صغار الفنانات والفنانين، عبر إقامة المهرجانات الغنائية لإجراء الإقصائيات محليا وجهويا ووطنيا.

حينما يقوم المرء بإجراء التقاطعات الضرورية لما يتم التسويق له من قيم من خلال قطاعي السياحة والإعلام (التلفزيوني منه على الخصوص) يتبين بجلاء أننا نريد، بل نعمل على التأسيس لحداثة سطحية فلكلورية تقطع مع ماضينا الحضاري المشرق. نريدها حداثة تمسخ الهوية المغربية، حداثة مدمرة للذات، تخلف وراءها أجيالا من المعطوبين المعاقين الغير قادرين على الانخراط في النسيج الاقتصادي للبلاد. إنها أخطر من حروب البارود المدمرة للبنيات التحتية من طرقات وقناطر وسدود ومساكن، الخ؛ إنها حروب ناعمة، سمعية بصرية، تدمر البنيات التحتية البشرية، بحيث تخلف أجيالا من

المعطلين الذين يتطلب التكفل بهم أموالا طائلة لا طاقة لخزينة الدولة ولا للقطاع الخاص بها. إنها حداثة من صنف ونوعية حداثة الصرار في قصة "الصرار والنملة"، بحيث ما أن ينتهي زمن اللهو وتتوقف المهرجانات الغنائية بمقدم فصل الشتاء، حتى تغلق كل الأبواب في وجه من قضى أيام شبابه يلهو ويلعب. تغلق النملة (حداثة فعلية) عليها باب مسكنها الدافئ المجهز بكل متطلبات شهور البرد القارص والأمطار، ويبقى الفنان الصرار على قارعة الطريق، ليموت من جراء الجوع والبرد. هلك الصرار، مطرب الحومة، فيا لها من مأساة! لكنها مأساة حتمية لمأساة قلب المفاهيم رأسا على عقب؛ مأساة كامنة في الإدمان على اللهو و"الشطيح والرديح"، كما يقول المثل الدارجي.

مجــالات التنــافسية في العالم القروي

مشروع كهربة العالم القروي مشروع جريء يحدث نقلة نوعية على طريق التحديث الشامل للريف المغربي وفك عزلته عبر ربطه بشرايين البلاد الاقتصادي وانفتاحه على العالم الخارجي عبر أطباق استقبال البث التلفزيوني. فهل تم فعلا إحداث هذه النقلة النوعية، وتم ربط العالم القروي بشرايين البلاد الاقتصادي؟ رأينا جميعا أنه لم يحدث شيء من كل هذا، فكل ما حدث هو انفتاح كلي على فضاءات إعلامية من كل الآفاق، وبكل ألوان الطيف، لا حد لتأثيراتها السلبية في عقليات سكان قرانا وبوادينا المعزولة. يحدث كل هذا في غياب تام لإعلام وطني وقائي يعمل على التأسيس لحداثة تحديثية حقيقية للمجتمع، تدفع بالمواطنين والمسؤولين للعمل على إحداث أوراش اقتصادية متنوعة، من كل الأحجام، تنقل العالم القروي من العزلة المطبقة إلى الانفتاح الإيجابي والفعال على اقتصاد البلاد وباقي

اقتصاديات العالم. بل، فكما رأينا، فإن قنواتنا التلفزيونية كانت أشد سلبية على العالم القروي من الفضائيات الأجنبية، حتى المغرضة منها. لقد تم إحداث دمار شامل في النسيج الاقتصادي القروي المحلي الهش، بحيث تحوّل القروي من منتج لما يستهلك من حبوب وخضراوات وفواكه ولحوم وبيض (مواشي ودواجن) إلى مستهلك، لا إمكانيات مادية له، تمكنه من الاستجابة لمتطلباته اليومية التي عمل الإعلام التلفزيوني، عبر المسلسلات المكسيكية المدمرة والوصفات الإشهارية المستفزة، على الرفع منها إلى حد كبير. فزيادة على حاملي الدبلومات العاطلين والمعطلين الذين يملؤون شوارع الرباط العاصمة وباقي المدن الأخرى، ساهم الإعلام "الدوزيمي" (يشمل هذا المصطلح كذلك كلا من القناة "الأولى" و"ميدي سات") الرائد في إحداث التوازن مع البادية بالتسبب في خلق معطلين (لا يعملون مع وجود فرص العمل) قرويين يشكلون بدورهم قنبلة موقوتة في النسيج الاجتماعي المغربي.

قلت من قبل، يا ليت قناتي "دوزيم" و"الأولى"، وكذا "ميدي سات" عملت على بث مسلسلات من صنف مسلسل "دالاس" الأمريكي الذي يؤسس لثقافة رأسمالية متطرفة، لا مكان فيها للعاطفة والأحاسيس. فلا يمكن مقارنة هذا المسلسل الغربي، الذي تم رفضه من الألمان في بداية الأمر، مع المسلسلات المكسيكية المنحطة التي تؤسس لثقافة التعاطي للمخدرات (ترويجا واستعمالا) كشرايين اقتصادي قائم بذاته، وكذا التطبيع مع الإباحية الجنسية المولدة لثقافة الأطفال الطبيعيين (وهل أطفال الأمهات المتزوجات غير طبيعيين؟) والأمهات العازبات (في مقابل ماذا؟). إنه التأسيس لحداثة تدمر كل المقومات الحضارية وتؤسس لأنماط من العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة لا

طابوهات تحدها؛ علاقات تؤدي إلى تفريخ جيوش من الأطفال المفتقدي الهوية، المتخلى عنهم والذين تعج بهم المؤسسات الخيرية التي لم تعد تف بالحاجيات من هول تفشي الظاهرة واستحكامها.

نعم، يربي مسلسل "دالاس" المشاهد على الرجولة والخشونة والندية، بحيث يتعاطى أفراد عائلة إيوينغ الغنية لتربية المواشي (الأبقار) والخيول والعمل داخل الضيعات، زيادة على الاستثمار في البترول والمضاربات في أسواق المال. فقد كان على دوزيم، كقناة إعلامية وطنية يمولها المغاربة، أن يكون لها السبق في التأسيس للحكامة الحقيقية كمنهج عمل لترشيد مشروع كهربة العالم القروي، وتوجيهه وجهة التأسيس لثقافة العمل والتحفيز على أخذ المبادرة للقطع مع ثقافة الخمول والتواكل. فلكي يستفيد المغرب من مشروع الكهربة القروية على أحسن وجه ممكن، كان على إعلامنا أن يساير الركب ويوجهه الوجهة السليمة، عبر بث مسلسلات وأفلام ووصفات إشهارية تمجد العمل وتحث عليه. فكم هي المسلسلات التلفزيونية الغربية والأفلام القيّمة، التي تربط الإنسان بالأرض للعمل على إحداث نهضة فلاحية واقتصادية فعلية شاملة، تؤمن للبلاد المتقدم ضمان تقدمه واحتلاله للصفوف الأمامية على الصعيد العالمي. فما على إعلامنا إلا أن يوضح للمغاربة بجلاء أن الدول المتقدمة هي التي تؤمن المواد الغذائية (حبوب، لحوم) لشعوبها وللشعوب التي تستشري فيها ثقافة "الصرار" والقيل والقال والخمول. فلو تراجع الإنتاج الفلاحي للدول المتقدمة لانحدرت وتأخرت إلى صف الدول المتخلفة. من هنا يتبين أن مقولة البلدان المتخلفة بلدان فلاحية، مقولة غير صحيحة نهائيا؛ فلو كانت فلاحية بما تعنيه الكلمة لتقدمت وازدهرت.

يهاجر الشاب المغربي بطريقة شرعية، أو بركوب قوارب الموت، ليصل إلى الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط ليعمل عملا مضنيا كأجير في ضيعات الإسبانيين والفرنسيين والإيطاليين، وغيرهم من الدول الأوروبية التي يعمل سكانها ليل نهار، كالنمل. ولا أجد هنا بدا من إعادة الإشارة إلى تلك القصة الغنية عن التعليق، التي مرت بنا أعلاه، لذلك الشاب من مدينة الفقيه بن صالح، الذي باع هكتارا من الأراضي الفلاحية ليغامر بحياته في قوارب الموت بحثا عن جنته الموهومة على الضفة الأخرى للأبيض المتوسط. أظن قطعا أن هذا الشاب يمثل الأنموذج المثالي للشاب المغربي الذي تواطأت على إفساد تفكيره وتجهيله وتدجينه، كل من المنظومة التربوية والمنظومة الإعلامية. لكن، بعد الاطلاع على القصة كلها يتبين أنه لا يمثل الأنموذج، لأنه استوعب الدرس بعد أن اصطدم بالواقع، فعزم أمره وشد رحاله ليعود إلى أرض الوطن، ليحول ما يملكه من أرض (الثلاث هكتارات المتبقية له) إلى ورشة للعمل على طريقة الاسباني السينيور لوبيز، إن تهيأت له الظروف الموضوعية لذلك. هذا الشاب خلق الإعلام (إعلامنا الرسمي على الخصوص والإعلام الشعبوي الذي يعتمد القيل والقال) في مخليته عالما أوروبيا خرافيا، شبيها بمغارة علي بابا، كل من توفق في الوصول إليها، وساعده الحظ في العثور على الجواهر والياقوت والزمرد واللؤلؤ والذهب المخبئ فيها، يصبح من أغنى الأغنياء، من دون كد وجد ومن دون أي عناء. شباب ضائع، تلف الأغبرة والأدخنة الإعلامية الملوّثة مراكز التفكير عنده إلى حد التسبب في قلب المفاهيم رأسا على عقب، أو اضطرابها اضطرابا شديدا. وإلا، كيف يمكن للعاقل أن يستسيغ تكوين كل من نادي "ريال مدريد" ونادي "برشلونة" في المدن المغربية، وخلق

جمعيات لدعمهما، مؤشر عليها من طرف السلطات المختصة؟ لقد بلغ الحد بشبابنا حد الهوس من جراء الشحن الإعلامي العبثي الغير مسؤول لذي يعمل على توجيههم كيف يشاء، كالريشة في مهب الرياح.

نتعامل مع شبابنا بمفاهيم مقلوبة

لماذا لا يعمل إعلامنا العتيد على تعليم أطفالنا وشبابنا، أن الشباب الأوروبي الذي يملأ ميادين كرة القدم صخبا في آخر الأسبوع، و يحضر الحفلات الموسيقية، يفعل ذلك للترويح عن النفس من كثرة الجد والكد خلال الأسبوع (طلب العلم أو العمل في المؤسسات الإدارية والاقتصادية والصناعية والفلاحية وما إلى ذلك)؟ لماذا هذا التعتيم، بل هذا التدجين وهذا التهجين الإعلامي الذي يعمل على إظهار الشباب الأوروبي كأنه لا يفارق ميادين كرة القدم وفضاءات الحفلات الموسيقية الصاخبة؟ هل كان من الصعب توقع ما سيحدثه هذا التدجين في تفكير أبنائنا من قلب خطير للمفاهيم؟ في بداية الأمر، حاول الشاب المغرر به، كما يقال، الوصول بكل السبل إلى مغارة علي بابا العجيبة للفوز بكنوزها واستعمالها في التمتع برغد الحياة من دون عناء ولا وجع رأس! لما تبين له أنه ليس من السهل الوصول إلى تلك المغارة (الدول الأوروبية)، ثم تبين له كذلك، فيما بعد، أن تلك الكنوز الموهومة لا وجود لها إلا في مخيلته (الأزمات الاجتماعية والاقتصادية التي تعيشها الدول الأوروبية، خاصة اسبانيا)، غير رأيه وبدأ يتحسس وجود هذه المغارة الخرافية بالقرب منه، في بلده؛ فلا بد

لها أن توجد في مكان ما. شباب أضعنا تعليمهم وتكوينهم كما يجب، وعلمناهم الخمول والكسل كما لا يجب، وملأنا مخيلتهم بأحلام وردية في التمتع بحياة جميلة وعيش رغيد، فماذا يمكن أن ننتظر منهم؟ كيف لمن يحثه الإعلام المخل بكل التوازنات (من أفلام ومسلسلات ووصلات إشهارية مغرضة) على الاستمتاع بحياته من دون حدود ولا طابوهات أن تتوقف مطالبه المادية عند حدود معقولة تأخذ بعين الاعتبار واقع البلاد؟ كيف لمن تعج مخليتهم بآلاف الصور والمشاهد لما يجب أن تكون عليه حياة الأحلام أن يتمكنوا من التموضع السليم في النسيج الاجتماعي والتفاعل معه بإيجابية من حيث الأخذ والعطاء؟ فكما يقول المثل الدارجي "اللي ضربت يدو ما يبكي" (من ضربته يده لا يبكي)، فلقد أصبح من الصعب إقناع أطفالنا وشبابنا بأن مغارة علي بابا الخرافية المستحكمة في عقولهم ووجدانهم لا وجود لها. هنا يكمن الخطر الداهم الناتج عن حث الشباب على الارتماء في عالم الأحلام قصد إلهائهم وإبعادهم عن الواقع، فلا بد للأحلام أن تنجلي كما ينجلي الغبار، لتنجلي معه الرؤيا بالرجوع إلى الواقع، لكن بمتطلبات عالم الأحلام التي لا حد لها ولا حسر لفاتورته المادية.

كان من الأجدى، بل من الواجب، على إعلامنا أن يعمل على محاربة الهشاشة في العالم القروي بدل الدفع بها إلى حد التهشيم والتدمير الممنهج. كان ولازال من المفترض في إعلامنا أن يعمل على مواكبة مشروع كهربة العالم القروي بالانخراط في التأسيس الحثيث لثقافة العمل وخدمة الأرض. فالإعلام الرسمي هو النافذة، بل البوابة التي يجب أن تطل منها الدولة لحث الناس على تنظيم أنفسهم عبر تكوين التعاونيات والانخراط في الوداديات وإنشاء الشركات. على الإعلام المرئي الوطني، ذو التأثير السحري في المشاهدين، والذي يدخل على

الناس بيوتهم من دون استئذان، عليه واجب وطني وواجب أخلاقي في العمل على تأطيرهم من خلال ما يبث من أفلام ومسلسلات ومسرحيات ووصلات إشهارية. إنها آليات ذات تأثير سحري عميق في عقليات المشاهدين ونفسيتهم، فلا بد للدولة من الاستعانة، بل من استعمال هذه الآليات الفعالة للدفع بالأمور في الوجهة السليمة، بدل أن تترك هذه القوة الجبارة تخرب عقليات الناس فتحدث دمارا شاملا في المجتمع، خاصة في العالم القروي الذي تفتقد ساكنته لأدنى مقومات المناعة في مواجهة التأثيرات الإعلامية السلبية المدمرة.

لا يعقل أن يسكت الإعلام عن ظاهرتي "لحريك" (ركوب قوارب الموت الرهيبة) وتصدير نسائنا للعمل في إسبانيا (في السنين الأخيرة) وألا يتطرق لأسبابها، وألا يعمل على تثبيت الناس في أماكنهم بإظهار الأمور على حقيقتها. نعم، على الإعلام أن يبين لهم أن ما يبحثون عنه على الضفة الشمالية للأبيض المتوسط يوجد بالقرب منهم، تحت أقدامهم. نفس المناخ المتوسطي ونفس التربة، فما الذي ينقص لتثبيت المغاربة في أرضهم؟ يبدو جليا أن المشكل يكمن قطعا في العنصر البشري، في ثقافته وفي العقليات المستحكمة، حيث يعمل المغربي بآليات صناعة التخلف ويعمل على تثبيتها. فإذن، لا فائدة ترجى من المبادرة الوطنية للتنمية البشرية الطموحة إن لم تعمل المنظومة التربوية والتعليمية على تكوين العنصر البشري المتعلم المتكون، الفاعل والفعال، لتأمين بنية تحتية بشرية لا بديل عنها لربح رهان التحديات التي تواجهنا في كل الميادين وعلى كل المستويات. لا بد للإعلام، كذلك، من القيام بواجبه على أحسن وجه للعمل على تثبيت هذه البنية البشرية وتأمينها، بالمساهمة في توجيهها الوجهة السليمة حتى تقوم بدورها كرافعة تعلي صرح الوطن القوي على أحسن وجه.

قبل بضع سنين من الآن، في بداية الألفية الثالثة، كان هناك أكثر من 80٪ من الشعب التركي (المتخلف) يتطلعون إلى الانضمام للاتحاد الأوروبي المتقدم، مغارة علي بابا المغرية. بعد مرور أقل من 10 (عشر) سنوات انقلبت المعادلة تماما، بحيث لم يعد هناك سوى أقل من 20٪ ممن يحبذون الالتحاق بالفضاء الأوروبي. عشر سنوات كانت كافية لكي ينطلق قطار التنمية الشاملة ويبدأ في شق طريقه إلى آفاق واعدة، وهو الأمر الذي جعل الفرد التركي ينظر إلى ما حوله ليكتشف أنه كان يجري وراء جنة موهومة، وراء السراب، بينما الجنة الموعودة قريبة جدا منه. ومن المعلوم أن هذا الانقلاب في العقليات وفي المنظومة الثقافية وقع نتيجة للاستثمار المجدي تعليميا (المنظومة التربوية والتعليمية) وإعلاميا في بناء العنصر البشري القادر على رفع التحديات الكبرى. وكما سبق أن رأينا [1] فإن ماليزيا (البلد الإسلامي الآخر) حسمت أمرها عند الانطلاقة بالاستثمار في التعليم لخلق رأسمال حقيقي، لا يبور مع مرور الزمن، يتمثل في تكوين العنصر البشري المتعلم، المكون تكوينا سليما متينا، حتى يكون قادرا على رفع تحديات التنمية الفعالة، التي تثمر التقدم الاجتماعي الشامل والازدهار. ماليزيا، البلد الإسلامي، انطلقت منذ حوالي ربع قرن من الآن، ثم لحقت بها تركيا منذ بداية الألفية الثالثة لتقطع بدورها أشواطا بعيدة على طريق التنمية، وهو الأمر الذي يظهر أن الإسلام لا علاقة له بما تعانيه جل الدول العربية والإسلامية من تخلف بالرغم من امتلاكها لأغنى الثروات الطبيعية. بل على العكس تماما، فلقد ظلت تركيا

[1]- انظر كتاب "آليات صناعة التخلف، وقفة صريحة مع الذات"

متأخرة، متخلفة، على مدى عشرات السنين، تحت حكم من أرادوها علمانية متوحشة (على وزن الرأسمالية المتوحشة)، لكن ما أن زرعت بذور التنمية في التربة الحضارية الخصبة للأمة حتى أثمرت نهضة شاملة.

الحكامة ومحاربة الهشاشة

حينما يتم إهمال التربية والتعليم، تتفشى الأمية والجهل؛ فحتى من يتم تعليمهم وتكوينهم يظلون دون المستوى الذي يمكن أن يحدث تلك النقلة النوعية على طريق التنمية البشرية الشاملة. لا تكمن العبرة في النسب المئوية المرتفعة للناجحين وبعدد الحاملين للشهادات الجامعية والشهادات العليا، بقدر ما تكمن في نوعية النجاح وفي المؤهلات المعرفية والكفاءات العلمية للمتخرجين من الجامعة ومن مؤسسات التعليم العالي.

ليس من الحكامة في شيء العمل بشعارات على غير مسمياتها، من قبيل الشعارات التي رفعناها لمحاربة هشاشة منظومتنا التربوية والتعليمية. لقد رفعنا شعار "محاربة الهدر المدرسي" بقصد إبقاء أبنائنا داخل جدران المؤسسات التعليمية إلى نهاية طور التعليم الإعدادي، من دون أن نعير أي اهتمام للهدر المدرسي الحقيقي الذي تدور فصوله داخل المؤسسات التعليمية، بين جدران الأقسام المكتظة بالتلاميذ، حيث يُطلب من المدرس، المتجاوز معرفيا، أن يقوم فقط بدور الحارس، لكن من دون صلاحياته[1]. كما عملنا، كمسؤولين رسميين وكمجتمع، على

---

[1]- انظر كتب: - التربية والتعليم وثقافة مجتمع، اختلالات ومعاطب: صرخة مغربي؛
- التعليم بين الكفايات والادماج، من كرة القدم الى نظرية داروين؛

إنجاح الجميع، بدل أن ينجحوا استحقاقا، عملا بشعار "تكافؤ الفرص". وزيادة في حث أبنائنا على ألا يغادروا المؤسسات التعليمية قبل نهاية طور التعليم الإعدادي، عملا بشعار "محاربة الهدر المدرسي"، عملنا على رفع شعار "مدرسة النجاح"، بدل أن نعقد العزم على "إنجاح المدرسة" عبر إعادة الاعتبار لدورها الطلائعي التربوي والتعليمي.

ما المغزى من إغراق المدن والقرى، السهول والجبال، بحاملي شواهد يُعدّون جزءا من المشكل بدلا من أن يكونوا طرفا في الحل كما يفترض؟ أي تعليم هذا الذي لا يؤمّن طاقة الدفع الضرورية لحاملي الشواهد لكي يتحرروا من قيودهم وينطلقوا في عملية البناء والتشييد؟ وأي إعلام هذا الذي لا رسالة توجيهية له للأخذ بيد المعطلين والعمل على تحريك أوتار الجد والكد فيهم، لكي يعملوا على تعهد أنفسهم باستكمال التكوين لتأمين المؤهلات الضرورية التي تمكنهم من فك أغلالهم النفسية المدمرة؟ ألا يمكن أن تستغل المؤسسات الإعلامية، خاصة الإعلام المرئي، بل تستثمر، في مهمة استكمال تكوين أبنائنا الذين أضعنا تكوينهم اللائق في مؤسسات تعليمية عملنا على إفراغها من مهامها عبر تبني شعارات أفرغناها، هي كذلك، من محتواها، بل عملنا بعكس ما تعنيه؟

لن يكون هناك أدنى اعتراض، ولا أدنى سوء فهم، لما قد يبرمجه الإعلام الألماني، أو الياباني، أو الفرنسي، أي إعلام الدول المتقدمة، من أفلام ومسلسلات ومسرحيات قصد الترفيه والترويح على نفس السكان. يعمل الناس في هذه البلدان بجدية النمل، من دون كلل ولا ملل، بحيث يتعرضون لضغوطات عالية تسبب الإرهاق النفسي

- الهدر الجامعي: أسباب تدهور المستوى اللغوي والمعرفي لخريجي الجامعات.

والجسدي الهائل للفرد الذي قد يصاب بالاكتئاب الذي يتسبب قطعا في تراجع المردودية في العمل. وعليه، حقّ للإعلام المرئي (والغير المرئي) في هذه البلدان أن يقوم بواجبه في العمل على تلطيف مناخ الحياة الاجتماعية عبر برمجة ما يمكّن المرهق من كثرة الكد والجد من الترفيه والترويح على النفس. كما أن برمجة الحفلات الموسيقية ومباريات كرة القدم في نهاية الأسبوع التي تمتلئ فضاءاتها صخبا تدخل ضمن هذا السياق الترفيهي الذي يهدف إلى تفريغ الفرد من طاقة التوتر الزائدة التي ترهقه. وكخلاصة للقول، فلا بد أن يكون مفهوم الترفيه والترويح على النفس موازيا لمفهوم الكد والجد في العمل المرهق. أما من يعمل عندنا بالآية مقلوبة، كما يقال، فعليه أن يعمل على الترفيه على نفس المغاربة بالكد والجد في العمل لمحاربة الخمول النفسي الناتج عن طول السهر إلى آخر الليل وكثرة النوم إلى وقت متأخر من اليوم الموالي.

نعم، على إعلامنا المبجل أن يحث المغاربة على الكد والجد في العمل للترفيه والترويح على نفوس الشباب المغربي المكتئبة من جراء البطالة والعطالة المستدامة، والإدمان على المخدرات وكثرة المسلسلات التلفزيونية المحبطة للهمم والمدمرة للقيم. فبدل العمل على إشاعة فكر نهج الحكامة المتغنى بها إعلاميا، يبدو جليا أن المسلسلات المكسيكية، لا شيء يرجى منها، عدى العمل على إرساء أسس ثقافة الهشاشة، في كل ميادين الحياة وعلى كل المستويات، وتعميمها على المدينة والبادية، والسهل والجبل. حالنا كمقلدين حال محزن مخزي، لا يتغير؛ نستنسخ الإصلاحات البيداغوجية لإصلاح منظومتنا التربوية من فرنسا، الدولة المتقدمة، ونعمل على استنباتها في تربتنا الثقافية والحضارية والاجتماعية والاقتصادية، المغايرة تماما للتربة التي

جعلت لها. ثم ها هو إعلامنا المقلد تقليد الغراب (قصة تقليد الغراب لمشية الحمامة في المخيلة الشعبية) يسير على خطى الإعلام الغربي، دون أدنى فهم للدور الذي يجب عليه القيام به في مجتمع يعمل أفراده بآليات صناعة التخلف؛ بحيث يختلف اختلافا جذريا، حضاريا وثقافيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، عن البلدان التي يقلد إعلامنا إعلامها. فكما هو معروف في عالم الصحة والتطبيب، يؤكد الصيادلة في نشرات الأدوية المصاحبة لها، أن الوصفة الطبية تصلح للشخص الذي توصف له ولا تصلح بالضرورة لشخص آخر يشكو من نفس الأعراض المرضية، فكيف بمن تختلف أعراضهم المرضية اختلافا راديكاليا؟ لقد تبين بالدلائل القاطعة[1] أن استنساخ الوصفات الإصلاحية التربوية الأجنبية، الفرنسية على الخصوص، شكل وبالا على منظومتنا التربوية؛ فكيف لنا أن نستنسخ منظومة إعلامية غربية تتناغم وتتفاعل مع مجتمعات لا يجمعنا بها أدنى قاسم مشترك، لا حضاريا ولا ثقافيا ولا فكريا ولا اجتماعيا ولا سياسيا، ولا حتى رياضيا وكرويا على الخصوص.

فلو كانت لنا فرق لكرة القدم بمواصفات الفرق الأوروبية، لما شردت أفكار شبابنا شرودا عميقا، جعلهم يعيشون وهْم الانتماء إما إلى نادي "ريال مدريد" و إما إلى نادي "ف س" برشلونا. وما دام ليس لنا فرق كروية بمواصفات الفرق الأوروبية، فلماذا هذه الهستيريا الإعلامية التي لا تتوقف عن شحن شبابنا إلى الحد الذي جعلهم يتبنّون ثقافة

[1]- انظر كتبنا: - التربية والتعليم وثقافة مجتمع، اختلالات ومعاطب: صرخة مغربي
- التعليم بين الكفايات والإدماج، من كرة القدم إلى نظرية داروين
- الهدر الجامعي : اسباب تدني المستوى اللغوي والمعرفي لخريجي الجامعة
- Mixité de l’enseignement et pédagogisme…illusions et désillusions

العنف في الميادين وخارجها، كردة فعل على توالي "خيبات" الأمل من مقابلات الفريق الوطني المحبطة، وكذا على تدني مستويات الفرق الوطنية. فهل من الحكامة في شيء العمل على تشتيت أفكار أبنائنا وشبابنا وتعطيل ملكاتهم إلى الحد الذي أصبحوا معه عالة على أنفسهم وعلى آبائهم وعلى مجتمعهم؟ فإذا لم تكن هذه هي الهشاشة الإعلامية الموصوفة، المدمرة لعناصر التوازن واتزان الشخصية عند أبنائنا، فماذا عساها أن تكون؟ ثم، فما دام شبابنا يشكو من البطالة المزمنة وقلة الإمكانيات المادية أو انعدامها، فلماذا لا يتوقف إعلامنا عن استفزاز مشاعره عبر حثه على الاستمتاع بحياته إلى أقصى حد والانغماس في الاستهلاك والجري وراء الموضة والتعاطي للأسفار والأفراح؟ "طلع تاكل الكرموس نزل شكون اللي قالها ليك"، يقول المثل الدارجي؛ فلا محل للإعراب للتشكي من تصرفات أبنائنا إن بدأت اللصوصية واعتراض السبيل، أو ما شابهها من التصرفات المشينة، تطغى على تصرفاتهم. ماذا يمكن جنيه من هذا الاستخفاف بعقول شبابنا الذين يتم التلاعب بمشاعرهم والضحك على ذقونهم بالتعامل معهم كجمادات لا إحساسات لها ولا عواطف؟ منظومة إعلامية تدغدغ عواطف وأحاسيس شبابنا وشاباتنا، وتثير غرائزهم الجنسية إثارة جارفة، ثم تتظاهر بالقيام بدور محاربة التحرش الجنسي؛ فكما يقول المثل الدارجي "كيبيع القرد ويضحك على اللي شراه"، وكما يقول مثل آخر "كيقتل الميت ويمشي فجنازتو".

تسويق للسلع أو تسويق لجسد المرأة (انظر الملحق)

أينما حللت وارتحلت، وفي أي اتجاه نظرت، تسترعي نظرك وتعترضك صورة المرأة كجسد فاتن مستهلك ومستعمل في الكليبات

وتقنيات الإشهار لبيع حتى أبخس السلع والمنتوجات وتقديم حتى أتفه الخدمات. أغلفة المجلات وصفحاتها، وكذا صفحات الجرائد، مليئة بصور الفاتنات الجميلات والمجملات، المهيجة للغريزة الجنسية والمثيرة للخواطر عند الشباب والشيوخ على السواء. نعم، صورة المرأة وجسدها حاضران في الترويج حتى لبيع أتفه الأشياء، كليبات ووصفات إشهارية تروج، قبل كل شيء، للمرأة كجسد بدل التسويق للمنتوج الذي يراد بيعه، الذي يحتل مساحة أصغر وموقعا ثانويا في المشهد. لا بد للمرأة أن تكون حاضرة كجسد في كل صغيرة وكبيرة، من بيع "شوي نكوم" (المسكة) إلى الاحتفاء بالثلاث الأوائل في كل مرحلة من مراحل سباق الدراجات الهوائية والنارية وسباق السيارات، وما إلى ذلك. هل هذه هي الحداثة ومحاربة الهشاشة التي تراد لمجتمعنا في تحد سافر لقيمه الحضارية والثقافية وأعرافه؟ وهل هذه هي حقوق المرأة التي ستجعلها تسترجع مكانتها المتوهمة ودورها في المجتمعات الحداثية؟ هل هكذا يراد لها أن تحقق ذاتها؟ بأن تصبح حبيسة جسدها؟ فكيف بها متى بدأت التجاعيد تعلوه، فلم يعد صالحا للعرض؟...

من بين اللقطات الإشهارية المثيرة للشفقة، تلك التي تظهر امرأة "تقليدية" أمية تتبع دروس محو الأمية فتتحول، فجأة، إلى امرأة عصرية من خلال الملبس وهي تردد أنها أصبحت حرة "أنا حرة...". لقطة إشهارية مثيرة للشفقة من التي تحررت ! وممن هندس لها، ومن القنوات التلفزيونية التي تعرضها؛ فلقد تم اختزال الهدف من محو الأمية في تمكين المرأة من الانقلاب على نفسها كإنسان (وليس كجسد) وعلى ثوابتها الثقافية والحضارية؛ فبدل أن تصيح أنها أصبحت تمتلك مفاتيح امتلاك المعرفة للإسهام في نهضة البلاد، تصيح المرأة بعد أن

غيرت طريقة لبسها (لباس عصري من وحي آخر صرخات الموضة) أنها أصبحت حرة في فعل ما تشاء. فهل ترضى المرأة بأن تصور بهذه الكيفية المهينة، بحيث تبدو تافهة، مراهقة، بخصة...، كل همها أن تصبح حرة في فعل ما تشاء بجسدها؟ لنتذكر كيف تتعامل المرأة اليابانية والكورية مع زوجها وقد تكون عالمة، فهل إلى هذا الحد يعمل إعلامنا على تقويض أسس المؤسسة الأسرية المغربية الإسلامية الراقية؟ أية حرية، وأية حداثة هاته التي تدفع بالمرأة (أو الرجل)، ربة الأسرة، لتصبح حبيسة جسدها وغريزتها الجنسية وأهوائها التافهة؟

ومما يثير الشفقة كذلك، أن المرأة القروية والأمية التي تهاجر مع زوجها وأبنائها إلى الدول الغربية، والتي قد يحرص الزوج على أن تتعلم القراءة والكتابة، سرعان ما تتمرد على كل شيء (زوجها وأبنائها) في ما مضى من حياتها وتغادر البيت، أو تعمل على طرد الرجل منه لتعيش حياتها كما يحلو لها !! نعم، تذهب لمحو الأمية، لكن هناك بنات جلدتها من النسويات ممن تتربصن بها، بحيث يتم إفهامها وإقناعها أنها كانت تعيش حياة العبودية فيما مضى كزوجة، وأنها الآن تملك زمام أمرها في بلدان تضمن لها قوانينها حريتها في فعل ما يحلو لها، بجسدها. فكما يقول المثل الدارجي "يا ويلك من المشواق لفاق" (أي أن المحروم من الشيء، إذا ما تمكن منه، فلن يتعامل معه باعتدال)، ويقول المثل الشعبي الآخر "حمقة وقالوا ليها زغرتي"؛ نعم يتم استغلال سذاجة هاته النساء من طرف محترفات كل همهن تدمير البيوت الزوجية، بدل العمل على إصلاح أحوالها بالعمل على ترشيد العلاقة الزوجية وتنقيتها مما قد يشوبها من منغصات. فلماذا التباكي وذرف دموع التماسيح على ما تؤول إليه الأوضاع من تشريد للأطفال وتفشي ظاهرة الأمهات العازبات والأمهات البيولوجيات...، وكذا

ظاهرة العنوسة بين الإناث وخطورتها على المجتمعات، وما إلى ذلك من الأمور المخزية بالنسبة للجنس البشري عموما، وذووا الأصول الحضارية الإسلامية التي تتماهى مع الفطرة الإنسانية خصوصا؟ لن أطيل كثيرا بخصوص هذا الموضوع الخارج شيئا ما عن السياق.

ففي زمن التغني بحقوق المرأة، أصبح من الطبيعي استعمال جسدها وجماله للابتزاز؛ تستعمل المرأة من خلال مشاهد حية، أو من خلال الصورة والفيديو، للضرب على أوتار الغريزة الجنسية للدفع بالناس للإقبال على الاستهلاك، خدمة للمنظومة الرأسمالية التي لا تقف عند أية طابوهات أخلاقية. نعم، لا بد لجسد المرأة أن يكون حاضرا في كل ما يراد الترويج له، كما لا بد لها أن تكون حاضرة في كل إدارة ككاتبة في مكتب كل مسؤول. فما الخيط الرفيع الذي يمكنه أن يجمع بين مفردات الحداثة وحقوق المرأة ومحاربة الهشاشة والعمل بالحكامة، التي تتجلى على أرض الواقع في شكل مفارقات ومتنافرات لا يجمع بينها جامع، ولا أدنى قاسم مشترك؟ يبدو أن الحداثة كما يراد لها أن تتجلى على أرض الواقع، تتبنى الحكامة في استغلال جمالية جسد المرأة وتأثيره السحري في لا شعور المستهلك الذي يتم الدفع به دفعا إلى الانغماس في الاستهلاك كمحرك للاقتصاد، وهو ما يمثل دربا من دروب محاربة الهشاشة الاقتصادية. فالحداثة التي يراد التأصيل لها، تعني الحكامة في الاستعمال الواسع النطاق لجسد المرأة كوسيلة لتثبيت الهشاشة، ضدا عن مراد الشعار. فكما يقال "إذا لم تستحي فافعل ما شئت"، و"إذا ظهر السبب بطل العجب"، فإذا كانت المرأة ترتاح لإظهار الرجل إعجابه بجسدها، وأن هذا الأمر يرفع من شأنها ويزيد في قيمة سهمها في المجتمع، فعلينا احترام اختياراتها. نعم، علينا احترام اختيارات المرأة، لكن ما دامت قد أصبحت متساوية

مع الرجل إلى حد التنكر لمفهوم الجنس والتوقف بدله عند مفهوم "الجندر"، فلا يعقل أن يتم الإبقاء على مفهوم التحرش الجنسي كجناية يرتكبها الرجل في حق المرأة. فما داما متساويين إلى حد التنكر لخاصية الجنس، فلا حرج، ولا مانع، في أن يبادر أحد المكونين ل"لجندر" المكون الآخر؛ فلا يحق التوقف عند الجنس ("الرجل" و"المرأة") لإصدار الحكم على ما قد يصدر عن أحدهما ويحصل بينهما.

الرجل والمرأة والهشاشة الإعلامية

ثم، إن الأمر لمريب إلى حد بعيد فيما يتعلق بالمرأة. فهل القول بأن المرأة امرأة ينقص من شأنها، حتى يتم التنكر لجنسها تحت مسمى "الجندر" (النوع)؟ ثم لو كانت المرأة متساوية مع الرجل، تلك المساواة العبثية الفولكلورية، فكيف له أن ينجذب نحوها أو تنجذب هي نحوه؟ ذرتان بنفس الشحنة الكهربائية لا يمكنهما أن تتجاذبان، بل تتباعدان؛ فلكي يكون هناك تجاذب بين ذرتين، فلا بد أن تكون إحداهما ذات شحنة كهربائية موجبة والأخرى سالبة. وما دام هناك تحرش جنسي (حيث يطفو مفهوم الجنس على السطح من خلال هذا المسمى ويختفي مسمى "الجندر") من طرف الرجل بالمرأة، فقد مارست عليه قطعا جاذبية قوية جعلته يقوم بما قام به. والمثير للانتباه أن سن قانون التحرش الجنسي يجعل مفهوم الجنس (الرجل، المرأة) يطفو على السطح متحديا مفهوم "الجندر".

لا بد من حسم هذا الجدل العقيم، فالرجل لا يمثل أحد طرفي المعادلة، بينما تمثل المرأة الطرف الآخر، بحيث يمكننا وضع علامة يساوي بين الطرفين (الرجل ≠ المرأة)؛ ففي حقيقة الأمر، هناك تكامل بين

العنصرين (الرجل والمرأة) يجعلهما يتفاعلان فيما بينهما، تفاعل وتلاحم ينتج عنهما تكوّن جنين إنسان جديد، يمثل الطرف الآخر للمعادلة. إذن، فنحن أمام معادلة: رجل + امرأة = جنين؛ فكيف إذن لمفهوم "الجندر" أن يصمد أمام القوة المفحمة لمنطق هذه المعادلة الرياضية؟ ليست هذه مقاربة اعتقادية يؤصل لها الدين الإسلامي الذي ينظر إليه على أنه ظلامي، إنها مقاربة علمية محضة، سهلة الفهم والاستيعاب عند كل من لازالت عنده مؤهلات للتفكير العلمي السليم.

ثم، لنتوقف عند مفهوم "التحرش الجنسي" وما يعنيه. نقول بداية، أن التحرش كمفهوم عام، أو ما يسمى بالمضايقة، يمثل نمطا من التصرف حسب استراتيجية معينة يقوم بها فرد ما، أو مجموعة ما، في مواجهة طرف مهاجم قوي، اكتملت له السيطرة على الوضع، بحيث أصبح هو من يملي إرادته على الطرف الضعيف ويضعه أمام الأمر الواقع. يوحي هذا المشهد، بهذه المفاهيم، بأن هناك حربا تدور رحاها، بحيث يبدو أن هناك جيشا قويا مهاجم، تمت له السيطرة على الأرض، فأصبح عرضة للتحرش والمضايقة من طرف مجموعات صغيرة من المقاومين الذين ينتهجون تكتيك الكر والفر لمحاولة التخفيف من الضغوطات التي يتعرضون لها من طرف الطرف المهاجم. إذن، إذا كان هناك تحرش بالمرأة ومضايقة من طرف الرجل، فلأنه يتعرض قطعا لهجوم قوي ومتواصل من طرفها؛ فهو يعمل فقط على التخفيف من شدة الضغوطات التي يتعرض لها من طرف المرأة المهاجمة. قد يقول قائل، أنه لم يحدث أن اعترضت المرأة سبيل رجل في الشارع وهاجمته (ولا عبرة بالاستثناءات)، فكيف يستقيم إذن هذا المفهوم المستعار من يوميات الحروب، حيث يعتدي المهاجم المسيطر ميدانيا على من هم تحت سيطرته؟ سبق أن تطرقت لهذا الموضوع بكل

التفاصيل من قبل[1]، حيث أوضحت بالدليل أن هجوم المرأة على الرجل هجوم فعلي ميداني صامت، تستخدم فيه مفاتن جسدها الأنثوي كسلاح فتاك تلقي به في ميدان المعركة، من حيث تدري أو لا تدري، بحيث يصبح الرجل يحس بأنه عرضة للهجمات الممنهجة المثيرة لغريزته الجنسية الجبارة ولفحولته كذكر، من طرف المرأة.

فما على من يريد تكوين فكرة متكاملة إلا أن يتابع ما يحدث عبر الإعلام وعلى أرض الواقع، على الصعيد العالمي، لكي يرى الأمور على حقيقتها. شاهدت مقدم برنامج تلفزيوني على إحدى الفضائيات الفرنسية وهو يستقبل فنانة من أصل إفريقي، من أسرة مسلمة. فنانة مغمورة، ليس لها من الفن سوى طريقتها في اللبس، أو إن شئتم القول طريقتها المثيرة في التعري، بحيث تبدو عارية الفخذين والجسد على مستوى السرة وكذا الصدر. سألها مضيفها، مقدم البرنامج، عن طريقتها المثيرة هذه في اللبس (أو في التعري)، فأجابته أنها تربّت في أسرة مسلمة، أرغمتها على لباس الحجاب منذ صغر سنها. وأضافت أنها كانت محظوظة لما ابتعدت عن هذه الأسرة وجاءت إلى أوروبا، لتتخلص من هذه العبودية وتصبح حرة في فعل ما تريد بحياتها وجسدها (يا لها من حرية تطلبت ترك الأوطان !!!). وأضافت قائلة أنها تعيش حياتها الجنسية (sa sexualité) كما يحلو لها، دونما أي اعتبار لما قد تحدثه عند الآخر من إحساسات وانفعالات؛ ثم أضافت قائلة "فما على الرجل إلا أن يتحكم في عواطفه وأعصابه إن أحس بالإثارة الجنسية، فليست هي المطالبة بالقيام بما يجب أن يقوم به هو".

[1]- voir “Mixité de l’enseignement et pédagogisme… illusions et désillusions

شاهدت أنثى تعوّض عن نقصان بضاعتها في جمال الوجه بتفننها في تعرية جسدها لإثارة الآخر (الرجل) الذي عليه أن يتحكم في أعصابه وأحاسيسه إن هو أحس بالاستفزاز والإثارة الجنسية. نعم، صاحبتنا التي انفلتت من عقالها، تعرف جيدا أن ما تقوم به يثير عند الرجل الغريزة الجنسية الجارفة وهو ما يعد هجوما كاسحا...، نعم، هذا هو ما يفرض عليه اللجوء إلى تكتيك التحرش والمضايقة للتخفيف وقع الهجوم. "فما على الرجل إلا أن يتحكم في عواطفه وفي انفعالاته إن أحس بالإثارة"، هذه هي النصيحة المقدمة للرجل من طرف من تريد أن "تعيش حياتها الجنسية كما يحلو لها"، فكيف لها أن تتصنع التشكي من تحرشه بها؟ ألا تدري أن الرجل، هو كذلك، سيد نفسه في أن يعيش حياته الجنسية كما يريد، ولن يكون ذلك إلا مع من تتفنن في إثارته واستفزازه. ما هذه المسرحية الهزيلة، الرديئة! فعلى أصحاب هذه المهزلة أن يختاروا ماذا يريدون بكل وضوح؛ من يتبنى مفهوم "الجندر" (النوع)، يتنكر تلقائيا لمفهوم الجنس (الرجل والمرأة)، وعليه فيجب أن يتنكر لمفهوم التحرش الجنسي تبعا لذلك. لا بد من التأكيد على أن من يتبنى مفهوم التحرش الجنسي يعيد الاعتبار لمفهوم الجنس ويلقي بمفهوم "الجندر" في القمامة. هذه هي تجليات الحكامة العلمية يا من ترفعون شعار محاربة الهشاشة؛ أي شيء، وأية حالة وأية وضعية هي أشد هشاشة من تبني مفهوم "الجندر" في نفس الوقت الذي يتم فيه تبني مفهوم التحرش الجنسي الذي يهدمه؟

العالم كله يتذكر يوميات، بل أسبوعيات، الرئيس الأمريكي "بيل كلنتون" الذي اتهم بالتحرش الجنسي، بل بالتعاطي للجنس مع كاتبته "مونيكا لوينسكي". عمل الرئيس على إشباع غريزته الجنسية دونما أي اعتبار لقانون التحرش الجنسي الذي لا محل له من الإعراب في

مفهوم الجندر. إنها ثقافة يحض كل شيء فيها على إشباع النزوات الجنسية والاستمتاع بالحياة قبل أفول نضارة الجسد وجماله؛ لكن المثير للإعجاب والاستغراب، أن الشابة لوينسكي التي قضت لحظات لا تنسى مع الرئيس الشاب كلينتون، في مقصورة قيادته لأعظم دولة في العالم، قررت الوشاية به واتهامه بالتحرش بها. مر كلنتون الرئيس بلحظات حرجة جعلته ينفي جملة وتفصيلا ما حدث، إلا أن لوينسكي الكاتبة (لا بد لكل رئيس ومسؤول من كاتبة) قررت عرض وثيقة الإثبات على شاشات الفضائيات ليطلع الرأي العام العالمي عليها. يا للعجب العجاب كما يقال؛ يمكن تفهّم تصرف كاتبة شابة أثارت انتباه وإعجاب الشاب الوسيم، رئيس أكبر قوة عسكرية واقتصادية في العالم، لتقضي معه، بمحض إرادتها، لحظات من المتعة الجنسية مع الحرص على الاحتفاظ بالشراشف (les draps) التي تلوثت من جراء الجماع كذكرى تؤرخ لهذه اللحظات الفريدة في حياتها. لكن ما لا يمكن فهمه واستساغته، أن تستعمل الشابة لوينسكي هذه الشراشف التي يوجد عليها آثار ما حدث للتدليل على أنها تعرضت للتحرش الجنسي من طرف الرئيس الذي وصل به الحد إلى أن يستغلها! جنسيا. يا للعجب، لا أدري ما الذي يحصل، فكصاحب منهج علمي في تقصي الحقائق، كيف يعقل أن يعاقب من يتحرش بمن يهاجمه، ولا يعاقب المهاجم بعقوبة أقصى؟ كيف يعقل أن يتم فتح باب التحرش الجنسي المريب الذي يعطي للمرأة الحق في فعل ما يحلو لها بجسدها، مع الرجل (طبعا)، ثم تنقلب عليه فيما بعد للعب دور الضحية باتهامه بالتحرش الجنسي بها؟ ما المغزى من مفهوم الجندر (النوع) إن كان الرجل رجلا والمرأة امرأة، يفرق بينهم جنس كل واحد منهما فرقا شاسعا؟ ثم إن قانون التحرش الجنسي يعيد الكرة إلى المربع الأول؛

المربع الذي تتموضع فيه المرأة كجنس لطيف، ضعيف، يجب أن تحظى بالعناية والحماية (وهنا تعود الكرة إلى ملعب التعاليم الإسلامية الموافقة للفطرة البشرية).
ثم إن قصة التحرش الجنسي للمدير العام لصندوق النقد الدولي "دومينيك سطراوس كاهن" بمنظفة في فندق في نيويورك غنية بالاستنتاجات. ما أن أبلغت به الضحية المفترضة السلطات، حتى ألقي عليه القبض داخل الطائرة التي استقلها، وتم وضع الأصفاد على يديه على مرأى من العالم كله، ضدا على مقولة "المتهم بريء حتى تثبت تهمته". ليس الناس كلهم بإمكانيات المدير العام لصندوق النقد الدولي ليتسنى لهم توظيف خيرة المحامين ليثبتوا براءتهم، كما فعل هو. لقد توصلت التحقيقات إلى أن المرأة كاذبة، لا يمكن الثقة بما تقول والبناء عليه؛ يا للعجب، ألم يكن من الصواب ومن الحكمة أن يتم الانتظار حتى تتبين الحقيقة قبل وضع الأصفاد على يدي هذا الموظف السامي وتمريغ كرامته في الوحل؟ لست هنا بصدد الدفاع عنه، ولست من المتضامنين معه إطلاقا؛ فقد كان ضحية لمنظومة حضارية وثقافية عجيبة، عمل على تثبيت أسسها، تحث على القتل والسير في جنازة المقتول، وتوقد النيران وتحاول إطفاءها، وتبيع القرد وتستهزئ ممن اشتراه. لكن، ما الذي جعل كلمة هذه المرأة المنظفة بالفندق أكثر مصداقية من كلمة هذا الموظف السامي الذي يترأس أقوى مؤسسة مالية في العالم؟ أ هي فعلا الديمقراطية والعدالة الأمريكية التي يتساوى أمامها الجميع، الحقير والأمير؟ فحتى لو سلمنا بذلك افتراضا، أليس من الديمقراطية والعدل أن تتمتع كلا الكلمتين بنفس الحظ من المصداقية في انتظار أن تثبت العدالة للضحية ما تدعيه أو العكس؟ في النهاية تمت تبرئة الموظف السامي من التهمة التي لفقت له بعدما تبين

للعدالة أنها لا تثق بكلمة هذه المرأة التي ثبت عليها التعاطي للكذب. تمت تبرئته بعد أن فقد منصبه السامي ولم يتم ترشيحه من طرفه حزبه للانتخابات الرئاسية الفرنسة. هنيئا للسيد المدير العام! لكن إذا ما كانت المرأة فعلا كاذبة (عدالة نسبية تتأثر بسحر المال وتفعيل قنوات التدخلات)، فهل يعقل أن يتم تدمير وظيفة الرجل كموظف سامي وكذا مستقبله كمرشح لرئاسة الدولة الفرنسية بسبب وشاية امرأة لا يعرف أحد من هي الأيادي التي حركتها؟ أين تبخرت مقولة القانونيين والعلماء "المتهم بريء حتى تثبت إدانته"؟ أ إلى هذا الحد يبطل قانون التحرش الجنسي مقولة حكماء القانون وأساتذته؟ إنها معادلات لا يستسيغها العقل السليم والتفكير القويم؛ كل ما في الأمر أنه يراد زرع الفتن وخلق أجواء التوجس بين الجنسين، والدفع بالمرأة لتصفية الحسابات مع الرجل (الزوج، الأب، الابن، الأخ، العم،...) الذي تم تصويره كعدو هضمها حقوقها بالنظر إليها كامرأة، وهي كذلك.

قلت، الرجل الأب والزوج والأخ والعم والخال، الخ، لكنني نسيت أن أسس الحضارة الحداثية التي تهتم بالأم العازبة على حساب الأم المتزوجة، وبالأطفال الطبيعيين على حساب أطفال الزواج الشرعيين (الغير الطبيعيين على ما يبدو)، لا مكان فيها لأنواع علاقات القرابة العائلية المعروفة، وعليه فلا مكان فيها لمفردات الحنان والرحمة والتآلف والإيثار. نعم، الحق كل الحق مع التي ازدادت من أم عازبة أن تعمل على تصفية الحسابات مع رجل تحرش بأمها، من قبل، ودخل معها في علاقة جنسية عابرة ثم تركها وما في بطنها وانصرف غير مبال بما سيأتي. لكن المهم في هذا الأمر المريب، هو أن تعرف المسكينة، المغرر بها، أنها هي كشابة، وهو كشاب (أو إن شئتم الطفل، مادام يسمى كذلك قبل بلوغ سن الثامنة عشرة) كانا ضحية

منظومة إعلامية حداثية تبيع القرد وتضحك على من اشتراه. منظومة إعلامية تركت جانبا المهمة الحقيقية التي تتمثل في العمل على تحديث المجتمع في كل الميادين (التربية والتعليم، البحث العلمي والتكنولوجيا، القضاء، الصحة، السياسة، الاقتصاد، الفلاحة، الرياضة، الخ) وعلى كل المستويات، والحث على تحديث ترسانة القوانين المنظمة، والعمل على تفعيلها على أرض الواقع. نعم، منظومة إعلامية تركت كل هذه الميادين الحيوية عرضة للتآكل واستشراء الفوضى سيمة الهشاشة، وركزت جهدها كله على العمل على إضعاف تربتنا الحضارية وتلويث ما قد يتبقى منها عن طريق مزجها بتربة حضارية مكسيكية ملوثة دخيلة، تحمل في طياتها جرعات تدمير المجتمعات.

بيت العنكبوت

نعم، منظومة إعلامية عملت على زرع بذور التفرقة بين كل مكونات المجتمع؛ بين قبائل وأعراق تعيش في أمن وأمان ووئام متى انتفت شرور مؤسسة الإعلام والإعلام الشعبوي المغرض (من قبيل النكت وغيرها)، وبين مكونات الأسرة (بين الرجل والمرأة والطفل) ثم تنصب منابر للتظاهر بانشغالها بالعمل على إطفاء النيران التي يتم إيقادها. نعم، لقد كانت الشابة (الأم العازبة) والشاب (الأب المجهول) ضحية منظومة إعلامية حداثية تحولت من إذكاء حرب بين الطبقات في المجتمعات (الشيوعية منها على الخصوص) فيما سبق، إلى إذكائها، والنفخ فيها، بين مكونات المجتمع الواحد وبين أفراد الأسرة الواحدة، وإنها لفاجعة بكل المقاييس. وكما يبدو واضحا من تجلياتها، فإنها تمثل أبشع حرب تم ابتكارها بعد إفلاس شعار دكتاتورية العمال التي سبق أن كنت كمغفل، أحد المدافعين عنها؛ إنها حرب شعارها

ديكتاتورية المرأة والطفل في مواجهة الرجل. لقد أدى العمل بشعار حقوق الطفل في أوروبا، الرائدة في هذا الميدان، إلى ما أصبحوا يسمونه بظاهرة "الطفل الملك" (l'Enfant Roi)[1]. لقد تم استغلال ظلم المرأة، وهضم ما أكرمها به الإسلام من حقوق رائدة على مدى الأزمنة، في مجتمعات جاهلة متخلفة، اعتاد أفرادها ظلم بعضهم بعضا، ليتم إشعال حرب قذرة داخل الأسرة، داخل اللبنة الأساس في صرح المجتمع، والتي يفترض زرع أواصر المحبة والأمن والسلم والسلام والطمأنينة داخلها. فعلينا أن نتذكر، ولا ننسى أبدا، أن الحرب بين طبقتين فقط، داخل المجتمعات الشيوعية (العمال وغير العمال)، أدت إلى خرابها، فكيف بالحرب في كل بيت، داخل الأسرة. إن الأسرة تمثل الخلية المكونة للمجتمعات البشرية، وهي كالذرة في عالم المادة؛ فما أن يختل نظامهما الداخلي بإخراجها عن مقتضيات توازن القوة السالبة والموجبة (فيزيائيا) داخلها حتى تنفجر، ويعلم الجميع ما ينتج عن انفجار الذرة من دمار شامل وإشعاعات خطيرة مزمنة تشكل وبالا على عنصر الحياة فوق الأرض.

ماذا يمكن للبشرية أن تجنيه من الدفع بالمرأة للقيام بدور أنثى العنكبوت، التي أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أنها تلتهم الذكر بعد عملية التزاوج، إذا لم يفر لينجو بجلده؟ ولقد سبق للقرآن الكريم أن صور مثل هذه البيوت تصويرا علميا رائعا *"وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون"*. كما أن بعض الأبحاث بينت أن أنثى العنكبوت تأكل الذكر لتتغذى عليه هي وصغارها (وصغاره). نعم،

---

[1]- Mixité de l'enseignement et pédagogisme...illusions et désillusions

إنها لبيوت يسود فيها الوهن، بحيث تسود فيها المكائد والمؤامرات والدسائس. نعم، هذه هي البيوت التي عملت المنظومة الإعلامية الحداثية على بلورتها على أرض الواقع وتعمل على تعميمها لتصبح هي السائدة في المجتمع؛ بيوت بنيت على المصالح الشخصية الضيقة، جعلت الرجل في حالة توجس لما قد يحدث، وجعلت المرأة تخطط للاستحواذ على البيت وتملكه بما فيه، ولو اقتضى الحال افتعال التوترات لتغذية الصراعات التي تنتهي بتركيع الرجل أو بطرده من البيت. إنه فعلا بيت لبني الإنسان أصبح بمواصفات بيت العنكبوت. يقول أنيس منصور[1]« *... فإذا جاءها* (العنكبوث) *الذكر استسلمت له ولسعته، وتكون من نتيجة هذه اللسعة أن تتم العملية الجنسية دون وعي منه، وفي نفس الوقت تحتفظ بجثته كاملة وتدفنها مع بيضها أو تضع بيضها فوق هذه الجثة، فإذا ظهر إلى الدنيا صغارها، كانت لهم وجبة جاهزة يوما أو يومين. ويقال إن بعض العناكب والعقارب تفعل نفس الشيء مع ذكورها. فالرحالة الأمريكي جون جنتر يقول إنه رأى في المكسيك عددا من العناكب الكبيرة متعددة الألوان والتفت إلى ذكر يمتطي أنثى، ولكنه بدلا من أن يفرز مقبرة من الخيوط، قضم عددا من سيقانها فأبطل مفعولها، والسبب أن العملية الجنسية عند هذا النوع من العناكب تستغرق وقتا أطول، فإذا لم يسارع بتحطيم سيقانها فإنها سوف تقبض عليه حتى الموت! ولكن الإنسان لم يتعلم حكمة العناكب، لا ذكرا ولا أنثى!* ».

---

[1]- جريدة الشرق الأوسط، 2006، العدد 10064

يريد الكاتب أنيس منصور القول أنه على الذكر والأنثى من بني البشر ألا يكونا كالعناكب، فالذكر من بني الإنسان يحمل وسام الرجولة، والأنثى تحمل وسام المرأة. لا نريد ذكورا وإناثا في مجتمعنا، بل نريد رجالا ونساء يكونوّن خلايا أسرية يسودها النظام والرحمة والطمأنينة والسكينة والتآلف والحميمية لتكون قادرة على خلق اللبنات الأساس السليمة لرفع صرح المجتمع على أسس سليمة ومتينة.

لن أقلب الصفحة عن هذا الموضوع قبل الإدلاء بشهادة في غاية الأهمية بخصوص خطورة ما أصبح يعرفه المجتمع من تفكك عراه كنتيجة طبيعية لتفكك عرى الأسرة التي لم يعد الكثيرون من الشباب والكهول يفكرون في تكوينها خوفا من أن تتحول إلي بيوت للعنكبوت، يكونون أولى ضحاياها. هذه الشهادة التي أدلى هنا بها تتعلق بقريب لي يقارب الأربعين سنة من عمره، اشترى شقة لا يسكنها، بل لازال يسكن في بيت والدته كما كان من قبل. وبما أنه لا يفكر في الزواج، تحاول أمه أن تقنعه وتحبب له الأمر، لأنها تريد أن تغادر الدنيا (إن ماتت قبله كما يفترض نظريا) وهي مطمئنة على فلذة كبدها وهو يعيش مع زوجته وأبنائه كما يفترض طبيعيا. لما أحس أنها أصبحت كأنها تضغط عليه بهذا الخصوص، أجابها بكيفية مقتضبة، مقنعة، مفحمة، قائلا: "أمي، أظنك تريدين أن أفرط في الشقة وأسلم مفاتيحها طواعية لمن تتربص الفرصة للانقضاض عليها بعد أن تطردني منها، زيادة على التبعات المادية التي قد تدخلني السجن إذا لم أتمكن من أداء ما قد تلزمني المحكمة به".

الأم المسكينة، المتقدمة في السن إلى حد ما، تعيش بين المطرقة والسندان؛ فهي لازالت تعيش على ذكريات زوجة عاشت في كنف أسرة يسودها الاحترام والانضباط، للرجل مكانته وسلطته في حدود

مسؤولياته، وللمرأة مكانتها وسلطتها في حدود مسؤولياتها، لا غالب ولا مغلوب، بل لا مكان فيها لهذا النمط من التفكير العبثي المدمر. ربت أبناءنا وبناتها على هذه القيم، وطال به العمر لتصبح شاهدة على المسخ الذي أصاب المجتمع والأسرة، بحيث لم يتبق من صرحهما إلا الأطلال الآيلة، هي كذلك، للانهيار. تم استغلال ظلم المرأة في مجتمع سادت فيه ثقافة ظلم القوي للضعيف، رجلا كان أو امرأة. من كانت له، رجل أو امرأة، سطوة المحسوبية ("اللي ما عندو سيدو عندو للاّه") أو سطوة المال ("اللي ما عندو فلوس كلام مسّوس")[1]، أو أية وسيلة من وسائل السطوة، يجهز على حق الآخر ظلما وعدوانا بقوة قانون الغاب. من يظلم من؟ وما دمنا نتكلم عن الظلم، فما الذي حصل لنا حتى نتوقف عند "ويل للمصلين" كما يقال؟ أين هي العدالة التي ما فتئنا نتغنى بها؟ فلو كانت هناك عدالة لما حصل أي ظلم لا للمرأة ولا للرجل ولا لأي أحد من أفراد المجتمع، صغيرا أو كبيرا، كبُر شأنه أم صغُر. كيف لنا أن نتغنّى بمجتمع حداثي بينما نجيّش الإعلام لتبني حداثة النخاسة والقمامة التي تمررها المسلسلات المكسيكية العبثية؟ كيف لنا أن نتكلم عن مجتمع الحداثة، بينما ثقافة الظلم والرشوة تزداد تتفشيا في كل شرايينه؟ أين هي هذه المدونة الأسرية التي يمكنها أن تعيد للمظلوم حقه، امرأة كانت أو رجلا؟ هل يعقل أن يُلقى بالرجل، الذي لا يتمكن من الإيفاء بما تفرضه عليه المدونة الجديدة من أعباء مادية، في السجن بعد أن يطرد من بيته، إن كان له بيت؟ من هذا الأحمق الذي سيفكر في الإلقاء بنفسه في التهلكة بعد كل هذا الذي

---

[1] - انظر كتاب: "آليات صناعة التخلف، وقفة صريحة مع الذات"

يرى؟ أية حداثة هاته التي يتم التأسيس لها على أنقاض الأسرة وسلامة المجتمع؟

هل هذا ما يراد للمجتمع باسم الحداثة؟ و أي مجتمع هذا الذي نتكلم عليه وقد أصبح الفرد فيه يتوجس خوفا من كل شيء، حتى من شريكة عمره وأم أبنائه، بل وحتى من أبنائه؟ أم أن المجتمع الحداثي لا مكان فيه لمثل هذه الاعتبارات، فما على الرجل إلا أن يبقى حرا إن أراد، فلماذا الزواج التقليدي المقيد، ما دامت سبل الزواج الطبيعي (أو إن شئتم التزاوج) كلها مهيأة وميسرة؟ فما عليه إلا أن يترك التركة للأم العازبة ويختفي من المشهد من دون مشاكل وصداع الرأس. هذه هي الحداثة التي تعمل المنظومة الإعلامية "الدوزيمية" على تثبيتها في شعور ولاشعور المغربي؛ فهي تعمل على أن لا يسقط الرجل في شراك المرأة "العنكبوت"، التي لن ترحمه بعد أن تستحوذ على ما تريده منه. فحتى المرأة، الأم العازبة، يمكنها أن تبقى حرة إن شاءت، فما عليها إلا أن تتخلص من المولود الطبيعي وتلقي به على قارعة الطريق ليلتقطه من يهمهم الأمر، أو ينقل إلى المؤسسات الخيرية التي أصبحت تضيق درعا بالجيوش من أمثال هؤلاء الأطفال الطبيعيين الذين يحيون حياة غير طبيعية بكل المقاييس.

في مقالة كتبها العياشي عبوب، في 4 مايو 2011 الساعة 23:10 م:

"كل يوم يولد 153 طفلا خارج مؤسسة الزواج ضمنهم 24 طفلا يتم التخلي عنهم. فقد كشفت دراسة حول الأمهات العازبات بالمغرب، أن المؤشرات المتعلقة بالتخلي عن أطفالهن، تشير إلى أن 8760 طفلا تم التخلي عنهم سنة 2009، أي بمعدل 24 طفل في كل يوم، وأن 38 في المائة منهم تم التخلي عنهم بطريقة غير قانونية، أي حوالي 3329 طفل".

"وعلى مستوى آخر، كشفت هذه الدراسة، أن ظاهرة الأمهات العازبات في المغرب، تتميز بارتفاع ملحوظ، سنة بعد أخرى، حيث ارتفعت من 25.980 سنة 2007 إلى 26.589 سنة 2008، لتصل إلى 27.199 سنة 2009 ".

يعيش الأطفال المتخلى عنهم في المؤسسات الخيرية كالفئران، محرومين من حنان الأم وأبوة الأب؛ ينقضون على من يقترب منهم ويتمسكون به بكل ما أوتوا من قوة، بحيث يصعب على المرء فك قبضتهم رغم صغر سنهم. إنها مآسي يندى لها الجبين ويتألم لها القلب؛ مشاهد سيريالية تتجلى فيها القسوة بأبشع صورها. وهل هناك أشد قسوة من أن تصبح الفطرة، في أعماق هؤلاء الأبرياء، تصرخ بأعلى صوتها من خلال تصرفاتهم المضطربة، التي تنمّ عن اختلالات شديدة، غائرة في اللاشعور، تولد الألم الذي يبدو من خلال حزن بريء عميق. مسميات من قبيل الأطفال الطبيعيين، تموه عن الحقيقة المرّة، بحيث يبدو للمستمع لأول وهلة، أنهم أطفال جد متوازنين نفسيا ونفسانيا وعاطفيا، يعيشون حياتهم في انسجام مع الطبيعة الإنسانية.

حرب أشرس من حرب الطبقات

وللتدليل على ما آلت إليه الأمور في البيوت وفي المجتمع من سوء، من جراء الحرب الشرسة، التي أريدَ لها أن تدور رحاها، من دون هوادة، بين الرجل والمرأة، أورد قصة تؤشر على أن التردي أخذ منحى يستدعي دق ناقوس الخطر. نعم، لقد تم شحن المرأة عاطفيا، بالعمل على إفهامها أن الرجل هو الذي جعل منها امرأة، فهو من ظلمها ظلما شديدا بعدما عاملها على أساس التفريق بين الجنسين. فلقد

تم إفهامها أن كل مشاكلها، المعلومة والمجهولة، سببها الرجل الذي استفرد بالقيادة والسيادة منذ فجر تاريخ البشرية على وجه الأرض. ثم، لقد تم إفهامها أنه قد جاء الوقت لكي تأخذ بثأرها منه، وأنه سيتم دعمها عبر تشريع قانون التحرش الجنسي وقوانين ملزمة أخرى. نعم، لقد سُنّ قانون التحرش الجنسي بالمرأة، بحيث يكفي أن تفتري إحداهن على أحدهم ليصبح في عين الإعصار، خاصة إذا دخلت المنظمات النسائية بثقلها على الخط، مؤازرة بسيف الإعلام الحاد، التلفزيوني منه على الخصوص.

أورد قصة أحد الأطر الصحية، كان يعمل بمستشفى الأطفال بابن سيناء، يتجاوز عمره الخمسين سنة حينما حصل له ما جعله يعيش بقية حياته في دوامة من الضياع والخوف والتوجس تزداد حدة مع مرور الوقت. هذا الممرض رجل مستقيم، يعمل بما يرضي ضميره، لا بما يملأ جيبه، وعلى غرار ما يحدث في كل أنحاء العالم، وعلى كل المستويات، من قضايا التحرش الجنسي (قصة "بيل كلنتون" وقصة "دومينيك سطراوس كاهن"، الخ)، اتهمته امرأة، متزوجة، بالتحرش بها وإرغامها على ممارسة الجنس معه داخل المكتب. افتعلت هذه القصة للتغطية على تكسيرها لإحدى الآلات الصحية الثمينة، مخافة مطالبتها بتأدية ثمنها كما حكى لي أحد أقرباء هذا الشخص الذي أدخل نفسه هو كذلك في صلب هذا الموضوع.

أقامت الضحية المفترضة دعوى قضائية ضد المتهم، البريء ما لم تثبت إدانته، بحيث تم توقيفه عن العمل في انتظار بث المحكمة في قضيته. نعم، بالرغم من أن القضاء لم يقل كلمته بعد، فقد تمّت معاملة المتهم البريء الذمة كجاني يجب توقيفه عن العمل ومنعه من تقاضي راتبه الشهري. حكمت المحكمة الابتدائية لصالح المتهم البريء، إلا أن

الضحية استأنفت الحكم، لتؤكد محكمة الاستئناف الحكم الابتدائي. حدث كل هذا والضحية، البريء إلى أن يثبت العكس، يعاني من التوقيف عن العمل، وهو الأمر الذي أضر بمن يعيلهم إلى حد بعيد. فزيادة على زوجته وأبنائه، فهو يتحمل مسؤولية نفقة أمه (الكبيرة السن) التي كانت تعيش، في بيت صغير فوق السطح، مع أخ له أصيب بالإعاقة بحيث لم يعد يقدر على العمل، زيادة على معاناته من الفشل الكلوي.

وقبل الاستمرار في وضع القارئ أمام كل حيثيات هذه القضية، أريد أن أوضح أنني لست من أولئك الذين يفتعلون المشاهد الدرامية لاستجداء عطف الناس. فعلى العكس من هذا تماما، أومن تمام الإيمان أنه بمثل هذه التصرفات لاستجداء عطف الناس جنينا إلى حد بعيد على أنفسنا وعلى مجتمعنا بالعمل على إدخال معايير لا اعتبار لها في قاموس المعاملات التي تصلح أحوال المجتمعات. فمنذ أن غزت مثل هذه المعايير الغير معتبرة كل الميادين، خاصة ميدان منظومتنا التربوية والتعليمية، بدأ العد العكسي لانحطاط المجتمع وتخلفه، إلى أن بلغت الأمور حدا لم يعد من الممكن التصدي لمثل هذه الاعتبارات في تصرفاتنا ومعاملاتنا.

حكمت محكمة الاستئناف لصالح المتهم الذي تمت تبرئته مما نسب إليه، إلا أن الضحية المزعومة عملت على إدخال المنظمات النسائية على الخط، بحيث تم رفع الأمر إلى المجلس الأعلى للقضاء للعمل على نقض الحكم الاستئنافي. وهنا بدأ الفصل الأكثر إثارة في هذه القضية، بحيث عملت هذه المنظمات بمؤازرة المنظومة الإعلامية المرئية ("دوزيم" والقناة "الأولى") على الخصوص، للتأثير بقوة على القضاة بالمجلس الأعلى للقضاء. تمت إعادة الملف إلى محكمة

الاستئناف لإعادة النظر في الحكم الذي برأ المتهم مما اتهم به. يحكي الشخص المقرب من المتهم الضحية، والذي وقف إلى جانبه وطرق كل أبواب القضاء وغيرها لإثبات زيف ادعاء الضحية، أنه لما توصل إلى مقابلة رئيس المحكمة وعرض عليه كل الوقائع والحقائق وكل التناقضات، أجابه أن القضية أخذت منحى آخر بعدما أصبحت قضية الضحية المزعومة المؤازرة من كل المنابر الإعلامية قضية وطنية.

إنه لأمر خطير إلى حد بعيد جدا، يهدد بانهيار المجتمع؛ فمن أبجديات الحكامة ومحاربة الهشاشة أن نعمل على خدمة القضاء في تثبيت أسس العدالة، بعدم تناول قضية ما إعلاميا، أو بأية طريقة من الطرق، ما دام القضاء لم يصدر حكمه النهائي فيها، كما هو الحال في البلدان المتقدمة. فهل هذه نوعية الحداثة التي ستجعل مجتمعنا يقطع مع نهج التخلف ونهج الظلم الاجتماعي الذي لا نتوقف على ترديده؟ هل نريد مجتمعا تنتفي فيه الضوابط الأخلاقية والقانونية ويتم فيه تجاوز الطابوهات الحضارية والتنكر للأعراف، في مقابل استحداث طابوهات حداثية دخيلة عبثية، لن تزيد الأوضاع إلا استفحالا، ولن تزيد الطين إلا بلة وقابلية للانزلاق؟ أليس القضاء العادل والإعلام الهادف هما أساسا الحداثة الحقيقية التي تفضي حتما إلى تحديث المجتمع وتقدمه في كل الميادين وعلى كل المستويات؟

علميا ومنطقيا، وليس من باب الاعتقاد الديني" لأقول أنه ما دامت المنظمات النسائية تتربص بالرجل السبل لتعمل على معاقبته على ما مضى من استبداده و"استعباده" للمرأة على مدى القرون الطويلة الماضية، فما عليهن إلا أن يطالبن بتطبيق الشرع الإسلامي في حق من ثبتت ممارسته للجنس مع من يرغمها على ذلك. فكما هو معلوم، فالمتزوج (المحصن) الذي يزني بامرأة (متزوجة أو عازبة) يرجم

حتى الموت، أليس هذا ما تردن؟ ألا يشفي هذا الصنيع غليلكن من هذا الطاغية المستبد؟
مهلا، مهلا، ما هذه الظلامية آ السي فلان، هل تريد أن تعود بنا إلى القرون الوسطى؟ إنه حكم بالغ القسوة، لا يتماشى، بل يتعارض، مع المجتمع الحداثي الذي يراد بناؤه (على أسس واهية)؛ مجتمع حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وحقوق الطفل، في مقابل التنكر لحقوق الرجل. مجتمع يكفل لكل من المرأة والطفل حق فعل ما يحلو لهما بالتصدي لتعسف الرجل الذي تجبر وطغى مع مرور الزمان؛ منذ أن تحول من قرد إلى إنسان بدائي. نعم، لا نريد للأفكار الظلامية أن تعيد التاريخ إلى المربع الأول، مربع المجتمع الرجولي، بل نريد مجتمعا بأفكار تنويرية، مجتمعا حداثيا تقوده المرأة.
لا، أبدا؛ فلا بد أولا من تعريف الظلامية، بتسليط الضوء على تجلياتها لإصدار الحكم عليها اعتمادا على الدلائل. فحينما أشرت على المنظمات النسائية بالعمل على تطبيق الأحكام الإسلامية لمعاقبة الرجل الذي "يرغم" امرأة على ممارسة الجنس معه (أو إن شئتم القول يزني بها)، فأنا أؤيدكن في مسعاكن لمعاقبة من "يعتدي" جنسيا على أية امرأة، فهذا الحكم يمثل أحسن طريقة لإشفاء الغليل من الفاعل وللانتقام منه ومن جنسه. ثم، أليس من الأفضل قتله، بدل إذلاله بالعمل على تشريده وتشريد أسرته؟ أم أن قتله لا يشفي الغليل، فلا بد من الانتقام منه بطريقة مهينة تجعله يتجرع مرارة التشريد والضياع؛ فالموت رغم قسوته سيريحه وهو ما لا يروق لمن يردن له العذاب والمهانة كي يتم الانتقام ممن سبق من الرجال ويتعظ من سيأتي منهم.
عفوا، لقد تكلمت بإسهاب عن الرجل والمرأة ونسيت أن حقوق المرأة تقتضي أن أتكلم عن النوع ("الجندر")، لكن كيف السبيل للتفريق بين

الجنسين، وتخصيص الرجل بالخطاب في هذه الحال؟ إن الأمر معقد إلى حد بعيد، فهل نريد معاقبة "الجندر" أم الرجل، أحد الجنسين المكون للنوع؟

لنعد إلى أكباشنا كما يقول المثل الفرنسي (revenons à nos moutons)، لأقول أن حكم الإسلام فعلا قاس جدا كما يبدو ذلك جليا؛ فحينما يرجم شخص حتى الموت، فهذا الأمر مناف تماما للحداثة المتوخاة. من خلال الفكر التنويري الحداثي لا نريد قتل الرجل بإزهاق روحه، بل نريد قتل الرجولة فيه والأنفة وكل ما يجعله يفكر كرجل. إنهما نظرتان مختلفتان تمام الاختلاف؛ لكن بيت القصيد عندي هنا هو التعريف بحيثيات حكم الإسلام في هذا الأمر، ليعلم من يستند في تفكيره لمنهج علمي سليم، ويقبل بالنتائج على ضوئه، أن حكم الشرع الإسلامي القاسي يتم تنزيله على أرض الواقع أخذا بعين الاعتبار لحيثيات شرعية كلها رحمة ب"الزاني والزانية".

قلت أن الإسلام يحكم بقتل من يسمى بالزاني، أي الرجل المتزوج الذي يمارس الجنس مع امرأة (متزوجة أو عازبة، ونفس الحكم يسري على المرأة إذا ثبت أنها مارست الجنس معه عن طواعية، لكن العازبة أو العازب لا يقتل، بل يجلد) خارج العلاقة الزوجية. حكم، بل أحكام قاسية في نظر الحداثيين، لكن ما هي حيثيات هذه الأحكام؟ هل يكفي أن تقدم المرأة دعوى ضد الرجل ليبدأ العد العكسي للقتل أو الجلد؟ أبدا، لا مجال لحدوث هذا الأمر؛ ولتكوين فكرة متكاملة عن الموضوع وحيثياته، فليعلم من لا يعلم أنه قد حدثت في عهد النبوة حالتين فقط، تم في إحداهما قتل "الزاني" (واسمه ماعز)، و في الأخرى، قتلت الزانية (المعروفة بالغامدية). ومما تجب معرفته، والتوقف عنده مليا، أن ماعز والمرأة الغامدية هما من عملا، في كلتا

الحالتين، على فضح نفسيهما والإقرار بأنهما مارسا الجنس خارج العلاقة الزوجية، وعملا على إثبات دعواهما ضدهما وهما يعلمان أنه سيتم العمل على تنفيذ الحكم الشرعي فيهما. إذن، فلابد من إثبات مادي، لا جدال فيه، لدعوى ممارسة الجنس مع الآخر، خارج العلاقة الزوجية، لكي يتم تنفيذ الحكم الشرعي. ففي ما عدا هاتين الحالتين المعروفتين، فلم يحدث أن تم تطبيق حد القتل في "زاني" أو "زانية"، نظرا لأن الإثبات يتطلب شروطا لا يمكن وصفها إلا بالتعجيزية. فلا بد من أربعة شهود معتبرين، يشهدون بأن فلان مارس الجنس مع فلانة (طوعا أو كرها)، أو فلانة مارست الجنس مع فلان. نعم تعترف المرأة أنها مارست الجنس، وهنا تتبين المساواة الحقيقية للمرأة مع الرجل، بحيث تتجلى شخصيتها مستقلة شامخة، فلماذا الاستمرار في هذا الحيف ضد المرأة بإظهارها بأنها مفتقدة للأهلية وبأنها المفعول بها دائما؟

لن أبتعد كثيرا عن الموضوع، لأقول أنه لا بد من أربعة شهود عاينوا مشاهدة ما حدث بين فلان وفلانة. وحينما أقول عاينوا ما حدث، فلا يعني هذا أنهم رأوا الرجل (أو المرأة) قد اختلى بالمرأة في بيته، أو في بيتها، وأنهما دخلا ويده في يدها (أو يدها في يده)، وأنه يقبلها وما إلى ذلك من الحيثيات الغير معتبرة في الشرع الإسلامي. فلا بد أن يكون الشهود الأربعة قد رأوهما وهما يمارسان العملية الجنسية الموصوفة. أليس هذا بأمر تعجيزي، يصعب، بل يستحيل إثباته، خاصة إذا علمنا أن تطبيق هذا الحد القاسي! يكون معلوما في المجتمع الذي يتم العمل فيه به، وهو ما يجعل الناس يأخذون الاحتياطات اللازمة. فحتى في المجتمعات التي لا مكان فيه لهذه الأحكام، لا يجرؤ الناس على ممارسة الجنس على قارعة الطريق ليشهد عليهم المارة؛ فلا تمثل

القبلات، وما إلى ذلك، دليلا على ممارسة العملية الجنسية يفضي إلى تطبيق الحكم الشرعي الذي نحن بصدده.

لما جاء ماعز عند الرسول عليه السلام وأفشى أمر زناه، لم يرد أن يصدقه، بل قال له لعلك سكران، لعلك عانقت أو قبّلت وما إلى ذلك؛ لكن "الزاني" أسر على إثبات ما قام به. ونفس الشيء حصل مع المرأة الغامدية التي قطعت الشك بتأكيدها على أنها حامل (حبلى) من العملية الجنسية التي تعاطت لها (كانت امرأة "هجالة" بالدارجة المغربية) . تم إمهالها إلى حين وضع جنينها وهي مدة من الوقت كافية لكي تغير رأيها ولا تجيء لمعاودة الطلب بتنفيذ الحكم عليها، لكنها لم تفعل. لما وضعت حملها جاءت به تحمله إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فتم إمهالها إلى حين إتمام مدة الرضاعة التي قد تصل إلى عامين، وهي مدة أطول، قد تجعلها تغير رأيها ولا تحضر، خاصة وأنها قد أصبحت أما لطفل لا بد أنها تعلقت به كثيرا. لم تتناسى، ولم تغير رأيها، وجاءت تحمل طفلها وفي يده كسرة من خبز يأكلها لتثبت أنه لم يعد في حاجة إلى حليبها، فتم تنفيذ الحكم فيها. لن أتطرق لأسباب هذا الإسرار من هذه المرأة، فليس هذا موضوع الكتاب.

تنبيه هام: ومما يجب التفطن إليه في هاتين القصتين أنه لا ماعز ولا الغامدية أفشيا سر من تمت ممارسة العملية الجنسية (الزنا) معه، كما أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يسألهما عنهما. فالمرأة التي زنت مع ماعز والرجل الذي زنا مع الغامدية فضلا أن يستترا ولا يفشيا سرهما، فلم يطلب الشرع الكشف عنهما، فقد يتوبا ويتوب الله عليهما وما إلى ذلك. كما أن حادثة المرأة الغامدية تنطق بعظمة حضارتنا الإسلامية التي تساوي فعليا بين الرجل والمرأة، بحيث تظهر هذه القصة أن المرأة مثلها مثل الرجل، تتحمل كامل مسؤولياتها فيما تقوم

به. فالمرأة امرأة، وليست أنثى مسلوبة الإرادة يتحرش بها الرجل؛ قالت المرأة الغامدية بأنها زنت، ولم تقل أن فلان تحرش بها واعتدى عليها جنسيا. فالمرأة عنصر بشري كمثل الرجل، لها هي كذلك غريزة جنسية قد تكون أقوى مما عند الرجل. كما أنها، حينما تعري مفاتن جسدها الأنثوي وتتفنن في ذلك فهي تشن حربة شاملة على الرجل لا تبقي له من سبيل سوى القيام بردة الفعل في صورة تحرش جنسي[1]. فإذا ما فعلت، فعليها أن تتحمل مسؤولياتها كاملة في ما قد يحصل لها من طرف ممن تستفزهم بمفاتنها المثيرة للغريزة الجنسية.

لنعد من جديد إلى أكباشنا، لنقول أنه يجب ألا ننسى أن الإسلام يحرم التجسس على الناس في بيوتهم ويحرم دخولها من غير الأبواب ومن غير استئذان، فكيف السبيل لإثبات عملية ممارسة الجنس بين رجل وامرأة دخلا البيت وغلقا عليهما الأبواب؟ رفعت إلى عمر بن الخطاب في عهد خلافته قضية زنى كادت أن تثبت بواسطة أربعة شهود، لولا غلظة الفاروق على الشاهد الرابع، وكان شابا، عمل عمر على زعزعة ثقته فيما سيشهد به حتى لا تثبت الحادثة. أليست حيثيات تنزيل الحكم الشرعي، في قضية الزنى، حيثيات تنويرية، كلها نور ورحمة بالناس؟ أين تكمن الظلامية في هذا الشرع الراقي الذي جاء ليحفظ للناس عقولهم وأجسادهم ومصالحهم، في كل الأزمنة وفي كل الأمكنة؟

لنرجع الآن إلى حالة الشخص الذي تم التواطؤ من طرف المنظمات النسائية والإعلام على تدمير حياته من دون شهود، ومن دون أية

[1]- voir notre livre « Mixité de l’enseignement ey pédagogisme. Illusions et désillusions »

وسيلة من وسائل الإثبات. هل أصبحت حرمة الأفراد، وخاصة الرجل، هينة، بخسة، إلى هذا الحد في مجتمع يتم تقديمه على أنه حداثي؟ لست هنا بصدد الدفاع عن رجل ضد امرأة، لأن هذا هو الهدف من هذه النوعية من الحداثة التي لن تقف عند حد حتى تدمر مقومات مناعة المجتمعات وتجهز على تماسكها. بل، ما أريد قوله هو أن يتم التثبت من الواقعة بكل الوسائل [شهود معتبرين، وسائل إثبات علمية من قبيل (le test de l'ADN) وما إلى ذلك]، وإذا ما تأكد وقوعها، فلكن الحق أن تطالبن حتى بإعدامه إن شئتن، إذا كان هذا يشفي غليلكن من هذا الذي أصبح عدوا لكنّ. أما أن يتم تشريد أسرة بكاملها، وإذلال إنسان لم تثبت تهمته، فلا علاقة لهذا الأمر بتحديث المجتمع، بل يتعلق الأمر بانتكاسة حداثية، على شاكلة ما تروج له المسلسلات المكسيكية وما شابهها من المسلسلات وكثير من برامج قنواتنا التلفزيونية العتيدة.

الحداثة وحقوق المرأة

تحظى المرأة، من المنظور الحداثي للمجتمعات، باهتمام بالغ كما يبدو جليا من جوقة الإعلام المسخرة لهذا الغرض، وهو ما جعل الأمم المتحدة تخصص لها يوم 8 مارس كعيد يحتفى بها فيه. كما تم تخصيص الأم بيوم عيدها السنوي هي كذلك، لاستحضار ما تتصف به من عطاء وبذل وكذا تحملها لآلام الحمل والولادة وتضحياتها وتفانيها في الاعتناء بمن تلد، وما إلى ذلك. إذن، يتم تخصيص يومين في السنة لتكريم المرأة، كمرأة وكأم، من خلال الإعلام والتظاهرات واللقاءات للتحسيس بوضعها الهش في المجتمعات التي هضمت حقوقها بتشريعات تنتقص من شأنها وتتعامل معها كإنسان من الدرجة

الثانية، الخ. هذه بعض الحيثيات التي جعلت المرأة تحتل مساحة واسعة في الخطاب الحداثي، الذي سخر كل آليات المنظومة الإعلامية لخدمة هذه القضية من منظور يعمل على القطع مع الموروثات الحضارية التي تم تحميلها كل تبعات ما عرفته وما تعرفه من هضم لحقوقها.

ولتكوين فكرة على ما قاسته المرأة عند من حملوا مشعل الدفاع عنها، عند الدول الغربية، يكفي أن نستحضر بعض المحطات الأكثر إثارة في مسلسل معاناتها. فلقد عانت المرأة الغربية من قبل، وخلال القرون الوسطى المظلمة (عندهم) وحتى نهاية القرن التاسع عشر، الاضطهاد والظلم، خاصة ما تعرضت له من تنكيل وقتل وتشريد خلال ما يسمى "الحرب (أو اصطياد) الساحرات (la chasse aux sorcières). فيكفي أن يشار بالبنان إلى امرأة على أنها تتعاطى للسحر لتصبح في عين العاصفة، بحيث تم قتل مئات الآلاف منهن بأبشع الطرق بهدف تطهير المجتمع منهن. كما يكفي أن نستحضر أن المرأة الغربية لم يصبح عندها الحق في الميراث إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، بحيث عاشت فيما قبل كأنها منعدمة الوجود. أعطيت حق الميراث متأخرا جدا، لكنها وجدت نفسها مرغمة على العمل لكي تضمن استمرارها في الحياة؛ أعطيت حقها بيد وتم سلبها إياه باليد الأخرى. وجدت نفسها جنبا إلى جنب مع الرجل، بحيث شمرت على ذراعيها وكشفت ساقيها ودخلت معترك الحياة الضاري الغير المتكافئ، لا حامي لها إلا قانون "التحرش الجنسي" المضطرب الذي تم سنه متأخرا، والذي لا يسمن ولا يغني من جوع كما يقال.

وحتى لا أطيل في التطرق لكل الحيثيات المتعلقة بتحرير المرأة من أغلالها (عندهم)، من المنظور الحداثي للمجتمعات، فسأكتفي بالتطرق

لمشهد يكفينا مؤونة الاستمرار في الاستدلال على أن المرأة يتم استعبادها أشر استعباد وهي راضية على حالها من كثرة التدجين الإعلامي الذي تتعرض له. نعم، يكفي أن نشير إلى أن جسد المرأة، الأنثوي، قد تم استثماره أبشع استثمار في التسويق حتى لأبخس الأشياء وأتفهها وكذا ل"تأثيث" أي مشهد من المشاهد اليومية في كل الميادين وفي كل المناسبات (انظر الملحق).

وفي يلي، لا بد من طرح جملة من التساؤلات المنطقية والمشروعة على الحداثيين المقتفين لأدق تقسيمات الحضارة الغربية. فهل التعري وعرض جسد المرأة، وليس مفاتنها فقط، حتى فوق علب إشهار أبخس منتوج صناعي من صميم حقوق المرأة وحرية الأفراد وحرية التعبير، بينما تغطية رأس المرأة وستر جسدها يشكلان نقيض ذلك؟ يا لها من إهانة مريرة للمرأة المسكينة وهي تعرض للاقتناء كباقي المقتنيات وهي تحمل فوق جسدها، كباقي مواد الاستهلاك: "صالحة للاستعمال إلى أن تبدأ مفاتنها في الذبول". لماذا لا يظهر الإعلام التلفزيوني للرأي العام، وللنساء على الخصوص، مآل المرأة المسكينة عندما تذبل وتبهت مفاتنها ولا تبقى لائقة وصالحة للعرض؟ لماذا لا يظهرها منعزلة منكسرة في بيتها في صحبة كلب ترى فيه أعز وأوفى صديق من بني الإنسان والمجتمع الذين تخلوا عنها وتركوها وحيدة وهي أحوج ما تكون إليهم؟ لماذا لا يظهرها الإعلام منعزلة منكسرة في دور العجزة، ليس لها مما كسبت إلا لهيب الذكريات البارد من ورائها، والأجل المحتوم من أمامها؟ وحتى إن كان لها أولاد فلن يغنوا عنها شيئا لأنهم رضعوا من ثقافة مشبعة بمبادئ عقوق الوالدين وعبادة الفرد لنفسه واتباع هواه ولسان حاله يقول نفسي، نفسي. هل يكفي الأم يوم سنوي (يوم الأم) للتفكير فيها لتحس بالأمان والدفء. عيب على

الثقافة الغربية الغريبة الطبع والطبائع حينما تحدث ضجات إعلامية كبرى بخصوص التحرش الجنسي مع أن كل شيء فيها يدور في فلكه.
لقد تم إظهار ما يكفي من التناقض في هذه الثقافة بمسلسل التحقيق مع الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون في تحرشه بكاتبته "مونيكا لوينسكي" وعلاقته الجنسية الغير شرعية بها، وكذا قصة المدير العام السابق للبنك الدولي "دومنيك ستروواس كاهن" مع خادمة بأحد الفنادق بنيويورك.
والغريب العجيب في الأمر كله أنه يراد المساواة بين الرجل والمرأة في كل شيء (مفهوم الجندر)، إلا أنه يتم العمل على إثبات عكس ذلك عندما يتم فتح الباب للمرأة للمتابعة القضائية للرجل الذي قد تقضي معه لحظات حمراء، بطيب خاطرها. أليست هذه شهادة ضمنية من صلب هذه الثقافة وظاهر سلوكيات الغربيين بأن المرأة ضعيفة، تسيرها عواطفها وعلى المجتمع حمايتها بسلطة القانون؟ فمبادئ الحضارة الغربية في المساواة بين الجنسين (المثلية ومسمى النوع) لا تبقي، مبدئيا، لسيف التحرش الجنسي أي معنى، فقد يبادر الرجل المرأة كما قد تبادره هي ولا حرج، فهو مثلها وهي مثله، نوع واحد، حرة بأن تفعل بجسدها ما تريد. فـإما أنها ند للرجل وهو ما لا يبقي لقانون التحرش الجنسي أي محل من الإعراب، وإلا فإن الإبقاء ولو على فكرة التحرش الجنسي يعيد المرأة إلى المربع الأول، إلى تصنيفها الطبيعي: "الجنس اللطيف"، بحيث تنتفي فكرة المساواة تماما.
تعجبت أشد العجب في أواخر التسعينات من القرن الماضي لما سمعت مقدم أخبار محطة أورونيوز الأوروبية الفضائية يشيد بفكرة رائدة تم تطبيقها بالعاصمة السيريلنكية، تقضي بإحداث حافلات نقل حضرية خاصة بالنساء حتى لا يتعرضن للتحرش الجنسي من طرف الرجال.

تصوروا معي لو قال مسلم إن للدين الإسلامي سبق في هذا الميدان، فلقد شرع لنا عدم اختلاط الجنسين لهذا السبب على الخصوص؛ لو قالها فسينظر إليه باحتقار وازدراء شديدين، وأقل ما سيسمع عن دينه أنه ظلامي، رجعي ومتخلف لا يليق بعصر الأنوار! وللتنبيه فقط، فقد تم تدمير المنظومات التعليمية في العالم كله، بعد أن تم فرض الأقسام المختلطة في المؤسسات التعليمية في أواخر الستينات من القرن العشرين كخطوة متقدمة للمساواة بين المرأة والرجل. فحتى أشد المتعصبات في المنظمات النسائية لفكرة الاختلاط بين الجنسين، من أمثال "هيلاري كلنتون" تراجعن أخيرا، تحت ضغط الحقائق الميدانية، عن فكرة الاختلاط كحق من حقوق المرأة، بحيث أيدت "جورج بوش" (المسيحي المتعصب) وعملت معه على التفريق بين الذكور والإناث في حي "هارليم" الشهير الذي تحولت فيه المؤسسات التعليمية إلى أوكار للجريمة وكل المبيقات بسبب الاختلاط[1] بين الجنسين. ومن المثير في الأمر هو عودة الأمور إلى طبيعتها لما قبل عصر الاختلاط، بحيث عادت الطمأنينة والسكينة إلى الأقسام وأصبح الأطفال منضبطين متفاعلين مع ما يتم تعليمهم إياه. وكل الخوف أن يغمض الحداثيون عندنا أعينهم ويسدوا آذانهم حتى لا يروا ولا يسمعوا ما من شأنه أن يزلزل قاعدة بنيانهم الحداثي الذي يدور حول الجندر.

ثم إن الأغرب في كل هذا الأمر هو إظهار الإعلام الغربي والإعلام المتغرب للإنسان المسلم كرجل "يكره المرأة، بحيث لا يطيق النظر إليها، وكلما كانت جميلة ازداد نفورا منها وكرها لها". إنه الاصطياد

---

[1]- انظر كتابنا " Mixité de l’enseignement et pédagogisme: illusions et désillusions"

في الماء العكر؛ فكلنا نعلم، من خلال تعاليم ديننا، ومن خلال علوم السلوكيات البشرية والسوسيولوجيا، كما يعلم المروجون لهذه السخافات، أن الغريزة الجنسية هي أقوى ما ركب الله في الإنسان[1]؛ فالرجل يثيره حتى صوت المرأة إن هي لعبت على نبرات الإثارة فيه. ولن أتعمق أكثر في حيثيات هذا الموضوع الاستدراكي من المنظور الإسلامي لأقول، ومن منظور الثقافة الغربية المحضة، أنه لو أمعن هذا الرجل النظر لهذه الأنثى الفاتنة العارية لأثارته ولأصبح على شفا التحرش بها، ول‌إن فعل فسيعرض نفسه للمتابعة القضائية والسجن. إنها ثقافة عجيبة غريبة، يريدونها غريزة بهيمية طبيعية ويتفننون في الدفع بمؤثراتها إلى أقصى حد، ثم يعملون على تجريم من يسعى لإشباعها، إنه القهر والكبت بعينيه.

الفرد المسلم يعتقد في التحرش بالمرأة حتى بالتي تستحسنه، إهانة لها واعتداءا على إنسانيتها وعلى أنوثتها التي تعتبر منبع الوداعة ومحضن الحياة وعنوان الأمومة. لهذا فهو مطالب بغض بصره تكريما لها، ولأن لا يضطر لكبت غريزته إن هو فعل، خاصة إن كانت جميلة، أو يصل إلى حد العلاقة الجنسية المحرمة معها إذا كان ذلك ما تريد (والعقوبة إلهية قبل كل شيء). كما أنها مطالبة هي كذلك بغض البصر والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يفضي إلى التحرش الجنسي من تعري وتفنن في عرض المفاتن على قارعة الطريق. فالمرأة مطالبة أن تتصرف كامرأة مسؤولة عن نفسها وعن غيرها لا

---

[1]- أو ما ركبت الطبيعة حسب اعتقاد من سلموا لعالم الموجودات بقدرة خارقة لا يمكن حتى لعقولهم تصورها تصورا سليما (انظر كتابنا: (Mixité de l’enseignement et pédagogisme:...)

كأنثى تلقي بشراك مفاتن جسدها للإيقاع بالرجل الذي أصبح هو كذلك يتصرف كذكر في غالب الأحيان. فلقد عمل الإعلام بكل روافده، خلال العقود الأخيرة على الخصوص، على الربط بين الحداثة والتحرر الجنسي وحرية الأفراد في فعل ما يحلو لهم بأجسادهم في تحد صارخ لكل الطابوهات. اضطربت الأحوال الاجتماعية إلى حد بعيد على كل المستويات، وفي كل الميادين، بحيث أصبحت ظاهرة العنف وتفشي الجريمة تؤرق المجتمعات، حتى داخل المؤسسات التعليمية التي يفترض فيها أن تكون في منأى عن هذه الأجواء وتشكل فضاء سليما للتربية والتعلم. ثم يأتي الإعلام الحداثي ليذرف دموع التماسيح على ما ألت إليه الأمور ويزيد الطين بلة بالزيادة في تشتيت أفكار الأطفال والشباب وتوجيهها الوجهة الخطأ. فأي الحضارتين أولى بالاحترام، بل أيهما أكثر حداثة وانسجاما واحتراما حتى لقوانين الطبيعة التي لا بقاء فيها إلا للأصلح كما تؤصل لذلك نظرية داروين البدائية المختلة المتجاوزة[1].

فمن أروع ما شرعه الإسلام لصون كرامة المرأة مما يسمى بالتحرش الجنسي وكل أنواع التحرشات أن تكون دوما محمية مصانة من أقربائها، أعز الناس إليها (وليس بالمتابعات القضائية الفلكلورية). فقبل أن تتزوج يحميها أبوها ويتكفل بها، وبعد الزواج تصبح في حماية زوجها وكفالته، وإذا طلقت[2] أو مات زوجها تعود لحماية أبيها أو أخيها أو عمها (الذي يعد في منزلة الأب) أو أولادها إن كانوا راشدين. فهي محمية بقانون إلهي سامي تسوده الرحمة والمحبة

[1]- انظر كتاب "التعليم بين الكفايات والإدماج، من كرة القدم إلى نظرية داروين"
[2]- وهو أمر قليل الحدوث في المجتمعات الإسلامية المحكمة لشرع الله

والمودة وليس بقانون بشري أبتر، فلكلوري، استعراضي عار من كل حكمة ورحمة. فهي الياقوتة، الجنس اللطيف، صاحبة الإحساس الرهيف والعاطفة الجياشة، لا بد لها من قريب يكفيها مؤونة الإجهاد الجسدي والإرهاق والاكتئاب والتوترات النفسية جريا وراء متطلبات الحياة اليومية في تدافع غير متكافئ مع الرجل حتى على أبواب المعامل وفي الحقول. فإذا كان الغرب قد جنى على المرأة في الماضي (بحرمانها من الميراث) والحاضر بإرغامها على الخروج للعمل لسد رمق العيش ومتطلبات الحياة وتعريضها لكل أنواع الابتزاز من قبيل التحرش الجنسي وما إلى ذلك، فليلق باللائمة على ثقافته البتراء وحضارته المادية الصمة.

في أواخر شهر أغسطس 2007، قالت مقدمة برنامج تلفزيوني للمؤرخة المعروفة كارين أرمسترونغ (التي أنصفت الحضارة الإسلامية والمسلمين إلى حد معقول في كتاباتها) أن المرأة تتعرض للحيف في الإسلام. أجابتها أرمسترونغ: "عن أي شيء تتكلمين، فعلى سبيل المثال، فإن الإسلام أعطى المرأة حق الميراث والتملك منذ القرن السادس الميلادي، بينما المرأة الغربية لم يعط لها هذا الحق إلا في في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. نعم، فزيادة على القانون الإلهي الذي فرض على المجتمع الإسلامي التكفل بكل متطلبات حياة المرأة المسلمة، فقد شرع لها الله تعالى كذلك الميراث والتملك والاستقلال بشخصيتها المعنوية والمالية. ترث نصف ما يرثه أخوها، مع فارق كبير مفاده أنه مطالب بالنفقة عليها إن كان هو المتكفل بها، ومطلوب منه أداء مهر المرأة التي يتزوجها ومتطلبات الزواج من بائها إلى يائها. فما ترثه هي فهو للادخار والاستثمار إن شاءت، وما يرثه هو فهو موجه للنفقة ومواجهة متطلبات الحياة. فالمرأة ترث

وتأخذ المهر ولا نفقة عليها، بحيث تمتلك رأس مال تستثمره كيف تشاء بتنسيق مع زوجها أو من يتكفل بها، والرجل يرث ويعطي المهر وينفق على من هم تحت مسؤوليته. قد لا يكون عند المرأة (الزوجة) مال، بينما الرجل غني، فلا حرج في الأمر، فهي على نفقته ولا يحق له أن يعطيها الزكاة لأنها تحت مسؤوليته، فهي غنية بغناه. لكن قد تكون المرأة غنية والرجل (الزوج) فقير وهنا يكمن سر الشرع الحكيم وعظمته؛ فبما أنها غير مطالبة بالنفقة عليه، إلا من باب الإحسان وحسن خلق إن شاءت، فيمكنها أن تعطيه الزكاة لأنه ليس تحت مسؤوليتها، فهي تتصدق عليه. المرأة يحل لها امتلاك الذهب كحلي وكمدخرات والرجل يحرم عليه. يحل لها لبس الحرير والتزين به والرجل يحرم عليه. إنه التكريم الإلهي الحكيم للمرأة الذي يراعي أنوثتها في أدق تجلياتها. معروف عن ساحل العاج أن نسبة كبيرة من أغنياء البلد هم من النساء المسلمات لأن الجانب المالي من حقوق المرأة المسلمة لم يهضم في هذا البلد على عكس ما هو عليه الحال في باقي الجغرافية الإسلامية حيث تم استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وزيادة في قطع سبل مفهوم التحرش الجنسي الذي فرضه الغرب فأصبح حديث الساعة على الصعيد العالمي ، فقد ألزم الشرع الحكيم المرأة المسلمة بالتحجب وغض البصر. فلا يعقل أن يكون كل شيء في المرأة ينطق بالإيحاءات الجنسية ويطلب من الآخر كبت غريزته وقهرها. فحتى تكون الثقافة الغربية التي يراد عولمتها منصفة ومعقولة ومقبولة، فعليها أن تسن قانون حماية الرجل من الاستفزاز الجنسي من طرف المرأة، وإلا فستختل الموازين حتما، بل وحتى قوانين الطبيعة من مفهوم من يحكمونها في وجودهم ومصائرهم. فيا من تحتكمون

لقانون الطبيعة القاضي بالبقاء للأصلح في اعتقادكم، فلقد حكم هذا القانون على ثقافتكم وحضارتكم فيما يتعلق بالمرأة والأسرة (الثقافة الاجتماعية) بعدم الصلاح. فلقد أصبحت المرأة الغربية، تعير كل اهتمامها للمحافظة على رشاقة جسدها أطول مدة ممكنة، فامتنعت عن الحمل والإنجاب مما أدى إلى شيخوخة مجتمعاتكم التي أصبحت مهددة بالانقراض. لا نقول عاكستم القانون الإلهي من باب اعتقاد المسلم، ولكنكم عاكستم قانون الطبيعة حسب اعتقادكم فقست عليكم وغضبت غضبا شديدا، مهددة إياكم بالانقراض. ومن غرائب وعجائب هذه الحضارة أن النساء الثريات أصبحن يبحثن عن الأمهات الحاملات لكرائهن لحمل الجنين، حيث يتم تسليمه للأم المكترية عند ولادته. وكم هي الحوادث التي ترفض فيها الأم الحاملة تسليم الجنين للأم المكترية المهووسة بالحفاظ على جمالها ورشاقة جسدها أطول مدة ممكنة. يا لها من ثقافة، ويا لها من حضارة، فنعم الحداثة والتحديث؛ فحينما يبدأ مسلسل الانحطاط فلا شيء يمكن من الحد منه إلا بلوغ القعر حيث انسداد الأفق. فلقد أغنت الثقافة "التنويرية" الغربية التي تبناها الحداثيون بكل حذافيرها، القاموس اللغوي بتصنيفات للأمومة لم تعهدها البشرية خلال تاريخها الطويل؛ إنها مسميات غريبة أفرغت الأمومة من كل معانيها السامية: فقد أصبحت هناك الأم العازبة والأم الحاملة، أي الأم المكتراة والأم الموظفة (التي يتم توظيفها للعمل في المؤسسات الخيرية ودور حضانة الصبية المتخلى عنهم للقيام بدور الأم بالنسبة لعدد من الأطفال). كان الله في عون الأم كما هو متعارف عليها عالميا، الأم المتزوجة، فلقد أصبحت مهددة في وجودها بسبب تفشي ظاهرتي العنوسة من جهة والطلاق من جهة أخرى. لن أطيل في التطرق لحيثيات كل هذه المواضيع الحساسة التي تتطلب

تخصيصها بالدراسة والتحليل بكيفية شاملة ومعمقة. لكن لا بد من أن أتوقف بإيجاز عند حيثية مهمة، شكلت منعطفا حاسما في مسلسل محاربة مؤسسة الأسرة الكلاسيكية التي شكلت نقطة التقاء بين كل الثقافات والحضارات البشرية على وجه الأرض وعلى مر التاريخ البشري الطويل.

في أواخر الثمانينات من القرن الماضي (القرن العشرين) تهاوى صرح النظام الشيوعي كأنه أعجاز نخل خاوية، وتفككت عراه. لقد سقطت الشيوعية التي شكلت وجهة الكثير من أحزاب دول العالم الثالث وكذا المنظمات الشبابية وغيرها، فاغترب من كان يدين للفكر الماركسي اللينيني بالولاء. فمنهم من غير المسار تغييرا جذريا، خاصة في الدول العربية والإسلامية، بحيث بدأ مسيرة العودة إلى أحضان الحضارة الإسلامية، ومنهم من صار يبحث عن وجهة مغتربة أخرى بحيث ارتمى في أحضان الثقافة الغربية، لسان حاله يقول هذا ربي هذا أكبر.

تناقلت وسائل الإعلام في أواخر سنة 2005 أو بداية 2006 الأسبوع الوطني لتعليم الفتيات الكوريات (كوريا الجنوبية) المقبلات على الزواج كيف يتعاملن مع أزواجهن طبقا لعادات وتقاليد الشعب الكوري حفاظا على الهوية الكورية. والمثير للانتباه هو أن هذا الحدث لم يحدث أية ردة فعل من طرف الحركات النسائية لا وطنيا ولا دوليا. ولن يتطلب تصور الضجة التي يمكن أن يحدثها مثل هذا الحدث جهدا كبيرا ولا خيالا خارقا، لو قدر له أن يحدث في البلدان العربية التي ينادي علمانيوها وحداثيوها إلى إخراج المرأة وإبعادها عن مقتضيات فطرتها. أقل ما يمكن أن يقولونه هو أنه رجوع بالمرأة العربية إلى القرون الوسطى وعصور الظلمات، وأنه انتقاص من شخصيتها؛ ولم

لا نعمل على تعليم الرجل كيف يربي الأطفال ويقوم بالأعمال المنزلية كما يروج لذلك إعلامنا المبجل. كفانا رداءة يا قوم، لا تدخلونا جحرا لا يجرؤ على دخوله حتى الضب، فالمرأة نصف المجتمع وهي التي تكون النصف الآخر، فهي إذن المجتمع كله، فليعقل كل منا هذه الحقيقة.

الكوريون الجنوبيون حداثيون قطعا وبما في الكلمة من معنى، لكنهم فهموا الحداثة على عكس ما فهمه من ارتضوا لأنفسهم الاكتفاء بالقشور والنفايات. الحداثة منهج أفراد ومجتمع، مقوماتها استثمار عامل الوقت والثروات البشرية والمادية في إنجاح منظومة تعليمية رائدة تكون الرافعة لتحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي في أفق ضمان العيش الكريم لأفراد المجتمع وإخراجه من براثن التخلف كما هو حال كوريا الجنوبية. فليس إخراج المرأة عن مقتضيات أنوثتها الفطرية وعن ثوابت ثقافتها وحضارتها والدفع بها عارية على قارعة الطريق من الحداثة في شيء. وليس هذا ما يرفع الظلم عنها لأنه هو الظلم بعينه. بل لا بد من العمل على تقدم المجتمع للقضاء على الفقر والجهل كي ينعم كل من الرجل والمرأة والأبناء بحقوقهم ويقوموا بواجباتهم ويتحملوا مسؤولياتهم. حداثة الكوريين الجنوبيين واليابانيين تقدم اجتماعي على أسس حضارية وثقافة اجتماعية وأعراف عائلية لا يمكن التفريط فيها بأي من الأحوال، ولقد كان الحفاظ على الهوية والتقاليد الاجتماعية والأسرية أحد الشروط الثلاثة التي عمل اليابانيون على تحقيقها في بداية الطريق لتحديث مجتمعهم في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (الولاء للإمبراطور، الحفاظ على الموروث الحضاري كهوية والبودية كدين قبل العمل على أخذ العلم

والتكنولوجيا عن الغرب). هؤلاء أخذوا بلب التحديث والحداثة وألقوا بالقشور والنفايات جانبا فتقدموا، ومن يقلب المعادلة لا بد أن يتأخر والتأخر هو منبت الظلم وعنوانه.

المغربي حفيد العباقرة

نعم للحداثة لتحديث المغرب الذي يتوفر على جميع المقومات التي تؤهله ليصبح من الدول المتقدمة في جميع الميادين؛ ومن بين هذه المقومات الموروث الحضاري الراقي الذي تم تركه عرضة للتآكل إلى أن جاء من المغاربة من يدعون للتخلص منه جهلا منهم بتاريخهم المغيب عنهم. تحقيق هذا المبتغى ليس بمستحيل أو غريب على المغربي إن هو عمل على إعادة الاعتبار لشخصيته الفذة باستنهاض همته وقدراته انطلاقا واقتداء بمسلماته ومؤهلاته الحضارية العريقة لتحديد أولوياته والعمل على الرفع من مستوى وقيمة تطلعاته وطموحاته. فعليه أن يعلم أنه حفيد العباقرة؛ عباقرة كل أصناف العلوم التي نعرف اليوم والتي يعدون هم من أسسوا لها وأسسوا للبحث العلمي والاكتشافات العلمية. ولمعرفة مدى التأثير والتغيير الذي أحدثته هذه العلوم والاكتشافات عند الغرب وكيف أنه أقام حضارته المعاصرة على أسسها، أعيد التذكير بذلك الحوار الذي دار بيني وبين ذلك الباحث الإسباني في علوم الأرض من جامعة "كامليطونسي" بمدريد يدعى ميكيل أنجيل دو سان خوسي" (كاطوليكي متدين)، في طريق عودتنا من مهمة بحث ميدانية في علوم الأرض (الجيولوجيا). ومن بين ما قاله لي، عندما سألته هل تعد فترة الثمانية قرون من تواجد العرب والمسلمين باسبانيا فترة استعمار عند الشعب الاسباني: "أبدا لا، إنها أحسن حقبة في تاريخ اسبانيا على الإطلاق، إلى أن قال "كما أن

جامعات قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية كانت تضاهي الجامعات الأمريكية حاليا، حيث كانت محجا لعلماء المعمور، وهذا ما جعل اسبانيا (الأندلس) تشكل القنطرة التي مرت عبرها العلوم والحضارة إلى العالم الغربي ونحن، الإسبان، نفتخر بكل هذا".

يا للمفارقة المفجعة، اسباني مسيحي يفتخر ويعتز بحضارة المغرب الأندلسي الإسلامي بينما نريد نحن المغاربة ذووا الأصول الإسلامية التنكر لهذه الحضارة بالتأسيس لحداثة بنكهة مكسيكية وبنكهة السامبا والكارنفال البرازيلية. ألسنا نحن المغاربة أولى بأن نفتخر بهذه الحضارة ونجعل من الرجوع إليها نبراسا ومنارة تهدينا إلى الطريق التي علينا أن نسلكها للخروج من مدارات الانحطاط والتخلف التي ندور فيها في حلقات مفرغة؟ على المغربي، خاصة من يدعو لتبني نوعية الحداثة الفلكلورية الحالية، أن يعلم أنه حفيد عمالقة الفكر والعلم والدين والفلسفة والأدب في القرون الوسطى التي تمثل العصر الذهبي للحضارة البشرية كما عرفها المعرض الدولي لمتحف العلوم بلندن ما بين شهري فبراير ومارس 2010. ففي القرون الوسطى، أسس العلماء العرب والمسلمون للبحث العلمي في كل الميادين، حيث بدأ الغرب حاليا يعترف بأنهم يمثلون رواد الحضارة والثورات التكنولوجية الحالية التي يعرفها العالم الغربي. كيف حتى للأميين منا أن لا يعرفوا من هو العالم ابن الجزري الذي يلقبه الغربيون بأستاذ هندسة المحرك و بأب الروبوتيزم (الآليات)؟ وكيف لنا أن لا نعرف من هو العالم ابن الهيثم الذي تفرد بعلم البصريات منذ أزيد من عشرة قرون وزالت علومه هي السائدة في القرن الواحدة العشرين، كما أن أبحاثه هي من أسست للثورة التي أحدثتها آلة التصوير في عصرنا، زيادة على أنه أول من أسس للمنهج العلمي في التاريخ البشري؟. كيف لنا أن لا نعرف من هي مريم

الأسترولابي التي توجد وراء آلة الأسترولاب الذي انبثقت منه البوصلة، ثم جهاز "الجيبيص" (GPS)؟ كيف لنا، وكيف لنا،...؟
لن أتحرج من طول لائحة التعريف بالمرموقين من علمائنا النوابغ في كهدية مني لكل مغربي محبط مستسلم لمنطق التخلف والانحطاط لكي يستجمع قواه ويحدد وجهته على دراية من أمره وعلى علم بمكامن قدراته. وبالرغم من أن كل العلماء العرب والمسلمين يمثلون منارتنا في ظلام تخلفنا الحالك، فسأكتفي بعلماء المغرب الإسلامي فقط حتى لا يطول المقال كثيرا، وحتى نعلم أن المغرب لم يكن في يوم من الأيام عالة على الشرق الإسلامي ولا على أي أحد.

- المغربي هو حفيد ابن بطوطة، الرحالة المغربي صاحب كتاب الرحلات، والذي قطع أكثر من 75.000 ميلا في القرن الرابع عشر الميلادي بإمكانيات ذلك الزمان، أكثر مما قام به "ماركو بولو" المعاصر له والذي عمل الغرب على أن يديع صيته. ولم يكتسب كتاب "الرحلات" شعبية كبيرة في أوروبا إلا في القرن التاسع عشر، فترجم إلى الإنجليزية والفرنسية واللغات الأوروبية الأخرى، حيث يعتبره الباحثون الأوروبيون وثيقة تاريخية لا تقدر بثمن. واليوم حصل ابن بطوطة على التقدير الذي يستحقه بجدارة في عالم الاستكشاف، حيث أطلق علماء العصر اسمه على إحدى الفوهات البركانية على سطح القمر تخليدا لانجازاته الفريدة في الأسفار.

- المغربي هو حفيد الشريف الإدريسي، أعظم علماء الجغرافيا والطبيعة في التاريخ، حيث قام برسم خريطة العالم في القرن الحادي عشر الميلادي (إنجاز متقدم بقرون عن عصره) لم يصبها التلف. كما

قام بصنع كرة عظيمة من الفضة الخالصة بوزن 400 رطل، تمثل أول مجسم دقيق للكرة الأرضية عرفته البشرية، نقش عليها الأقطار والبحار والأنهار وغيرها، لكنها تعرضت للضياع. وهو أول من أكد على خطوط الطول والعرض لتحديد المكان والمسافة المعمول بها حاليا، وقال بكروية الأرض.

- المغربي هو حفيد ابن باجة، أول مشاهير الفلاسفة العرب في الأندلس والمغرب. وفضلا عن الفلسفة فقد انصرف إلى العلوم الطبيعية والفلك والرياضيات والطب.

- المغربي هو حفيد العلامة الفقيه والفيلسوف والطبيب والفلكي ابن رشد الذائع الصيت، الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي بقرطبة وبالمغرب. ترك أكثر من 108 مؤلف وصلنا منها 58 بنصه العربي.

- المغربي هو حفيد ابن الخطيب الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي وترك آثارا متعددة تناول فيها الأدب والتاريخ والجغرافيا والرحلات والشريعة والأخلاق والسياسة والطب والنباتات، وغيرها.

- المغربي هو حفيد ابن البناء (ابن عثمان الأزدي المراكشي)، عاش في القرن الثالث عشر الميلادي حيث تبحر في علوم متنوعة، إلا أنه اشتهر خصوصا في الرياضيات وما إليها. ولقد أثمر أكثر من 70 كتابا ورسالة في العدد والحساب والهندسة والجبر والفلك، ضاع معظمها إلا ما نقله الغربيون إلى لغاتهم حيث تجلى لهم فضل ابن البناء على بعض البحوث والنظريات في الحساب والجبر والفلك.

قامت شهرته على كتاب "تلخيص أعمال الحساب" الذي أثار اهتمام علماء القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين.

- المغربي هو حفيد ابن الخياط الذي عاش في القرن العاشر الميلادي، ذكره صاعد في "طبقات الأمم" حيث اشتهر في الطب والرياضيات والهندسة والفلك.

- المغربي هو حفيد ابن الصفار عالم القرن الحادي عشر الميلادي المختص في الرياضيات. كان محققا بعلم العدد والهندسة والنجوم حيث تخرج على يديه عدد من مشاهير العلماء في قرطبة.

- المغربي هو حفيد الفاسي ابن اللجائي المتوفى في القرن الخامس عشر الميلادي. اشتغل بالفلك والرياضيات، حيث كان آية في فنونه، ومن بين بعض أعماله أنه اخترع إسطرلابا ملصوقا بالجدار، والماء يدير شبكته فيأتي المشاهد لينظر إلى ارتفاع الشمس وكم مضى من النهار وكذلك ينظر ارتفاع الكواكب بالليل،... .

- المغربي هو حفيد أبي بكر ابن أبي عيسى عالم القرن العاشر الميلادي بالأندلس حيث كان متقدما في العدد والهندسة وعلم النجوم.

- المغربي هو حفيد المجريطي، علامة القرن العاشر الميلادي في الرياضيات بالأندلس. كما أنه اشتغل بالعلوم الفلكية فضلا عن الكيمياء وسائر العلوم المعروفة زيادة على تركيزه على علم البيئة. ترك مؤلفات علمية متنوعة تم نقلها إلى اللغات الغربية. ترك أبحاثا قيمة في مختلف فروع الرياضيات كالحساب والهندسة. ويعد المجريطي

صاحب مدرسة مهمة في حقل العلوم، تأثر بآرائها العديد من العلماء المغاربة اللاحقين أمثال الطبيب الزهراوي، والغرناطي والكرماني وابن خلدون الذي نقل عن المجريطي بعض الآراء التي أدرجها في مقدمته المشهورة.

- المغربي هو حفيد ابن البيطار الطبيب العشاب الذي يعتبر من أشهر علماء النبات عند العرب والذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي، وكان يعتمد عليه في الأدوية المفردة . درس الأعشاب في الأندلس وفي شمال إفريقيا وفي مناطق الشام وفي الأناضول واتصل بأبي أصيبعة صاحب "طبقات الأطباء"، حيث درسا كثيرا من النبات في سوريا. يقول عنه ماكس مايرهوف "أنه أعظم كاتب عربي في علم النبات".

- المغربي هو حفيد ابن الجزار، الطبيب المغربي المشهور، عاش في القرن العاشر الميلادي. نال شهرة تجاوزت حدود بلاده، فكان طلاب الأندلس يتوافدون عليه لتحصيل الطب، وله عدة مصنفات، أشهرها "زاد المسافر" الذي ترجمه إلى اللاتينية قسطنطين الإفريقي، و"الاعتماد" في الأدوية المفردة، و"البغية" في الأدوية المركبة.

- المغربي هو حفيد ابن جلجل الذي نبغ في القرن العاشر الميلادي. وترجم عدة مصنفات طبية منها "كتاب الأدوية البسيطة لديسقوريدس اليوناني". ومن مصنفاته كتاب طبقات الأطباء والحكماء الذي نشره فؤاد سيد في "منشورات المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة 1955م.

- المغربي هو حفيد ابن الرومية عالم مشهور بعلوم الحديث، مختص في علم النبات والأعشاب والعقاقير الصيدلية. عاش في القرن الثاني عشر الميلادي وترك مؤلفات جليلة في النبات (رتب أسماء النباتات والحشائش على حروف المعجم) والعقاقير وفي الحديث وعلمه.

- المغربي هو حفيد ابن مهند أخصائي في الطب والصيدلة وله اهتمام بعالم الفلاحة. هو من تولى غرس جنة المأمون بن ذي النون بطليطلة وهي من الجنائن المشهورة. ترك عدة مؤلفات منها "الأدوية المفردة".

- المغربي هو حفيد أبو الخير الإشبيلي المعروف بالشجار عاش في القرن الحادي عشر الميلادي. كان يقوم بتجارب زراعية وبدراسات تناولت عددا من النباتات كالأشجار المثمرة والكرمة ونبات الحدائق والغابات حيث ألف كتاب الفلاحة. ولا تعرف إلا بضع نسخ من هذا الكتاب، منها واحدة في المكتبة الوطنية بباريس وواحدة في جامع الزيتونة بتونس. ودرس هذا الكتاب هنري بيريس وأعد له طبعة مع ترجمة فرنسية وحواش، ونشر خلاصة تصميمه في دائرة المعارف الإسلامية.

- المغربي هو حفيد أبو القاسم الزهراوي الذي عاش في القرن العاشر الميلادي. طبيب جراح ومصنف، يعد من أعظم جراحي العرب ومن أعظم أطبائهم. حياته مليئة بجلائل الأعمال، أفضل تصانيفه كتابه الكبير المعروف باسم الزهراوي، وأكبر تصانيفه "التصرف لمن عجز عن التأليف" وقد ترجم وطبع عدة مرات. كان جراحا ماهرا ذا خبرة واسعة، وقد أفرد قسما مهما من كتابه لأمراض العين والأذن والحنجرة وقسما مهما لأمراض الأسنان واللثة واللسان وأمراض

النساء وفن الولادة والقبالة وبابا كاملا للجبر وعلاج الفك والكسر. والزهراوي هو أول من اكتشف ووصف نزف الدم المسمى "هيموفيليا". وكان أثر الزهراوي عظيما في أوروبا، حيث ترجمت كتبه إلى لغات عديدة ودرست في جامعات أوروبا الطبية. واقتفى أثره الجراحون الأوروبيون واقتبسوا عنه، حتى أنهم انتحلوا في كثير من الأحيان بعض اكتشافاته من دون أن يذكروه كمصدر أولي. وكان مؤلفه الكبير المرجع الأمين لأطباء أوروبا على مدى أربعة قرون، من بداية القرن الخامس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. كما أن الآلات الجراحية كان يستعملها لازالت متداولة عند الأطباء الجراحين حتى وقتنا الحاضر، زيادة على استعماله للخيوط الجراحية المستقاة من أمعاء القطط (cutgut) التي لازالت مستعملة إلى يومنا هذا.

- كما أن المغربي حفيد ابن خلدون، الذي يعتبر أحد العلماء الذين تفخر بهم الحضارة الإسلامية (مثل ابن الجزري، ابن الهيثم، عبد الرحمان الخازني[1]، ابن النفيس، مريم الأسترولابي، الخ) فهو مؤسس علم الاجتماع وأول من وضعه على أسسه الحديثة، وقد توصل إلى نظريات باهرة في هذا العلم حول قوانين العمران ونظرية العصبية، وبناء الدولة وأطوار عمارها وسقوطها. وقد سبقت آراؤه ونظرياته ما توصل إليه لاحقا بعدة قرون عدد من مشاهير العلماء كالعالم الفرنسي أوجست كونت. عدّد المؤرخون لابن خلدون عددا من المصنفات في

[1]- انظر أسفله مقطعا من التعريف بمنجزاته مقتطف من موسوعة ويكيبيديا

التاريخ والحساب والمنطق غير أن من أشهر كتبه كتاب بعنوان: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وهو يقع في سبعة مجلدات وأولها المقدمة وهي المشهورة أيضا بمقدمة ابن خلدون، وتشغل من هذا الكتاب ثلثه، وهي عبارة عن مدخل موسع لهذا الكتاب وفيها يتحدث ابن خلدون ويؤصل لآرائه في الجغرافيا والعمران والفلك وأحوال البشر وطبائعهم والمؤثرات التي تميز بعضهم عن الآخر.

من هو عبد الرحمان الخازني

(مقطع من التعريف بمنجزاته مقتطف من موسوعة ويكيبيديا)

".... يعتبر الخازني والبيروني من أول العلماء الذين طبقوا الطرق العلمية في ***إجراء التجارب على القوى الساكنة والقوى المتحركة،*** *وبشكل خاص في* ***حساب الوزن النوعي، واعتمد بناء النظرية على الموازين وقياس الوزن*** *.لقد قام الخازني والعلماء المسلمون الذين سبقوه* ***بتوحيد القوى الساكنة والقوى المتحركة*** *في فرع واحد من العلوم، يسمى :****علم ميكانيكا الحركة،*** *كما قاموا بضم وتجميع قوى اتزان الموائع الساكنة مع القوى المتحركة ليؤدي بذلك إلى* ***ولادة علم جديد*** *يسمى* ***: قوى إتزان الموائع المتحركة****.*

كما قاموا ***بتطبيق النظريات الرياضية المتعلقة بحساب النسب وطرق حساب المشتقات التفاضلية اللانهائية باستخدام القانون العام للاشتقاق في التفاضل والتكامل،*** *كما خطوا الخطوة الأولى نحو* ***استخدام طرق الحل باستخدام الجبر والتفاضل والتكامل الصحيح في حساب القوى الساكنة****. كانوا أيضاً أول من قاموا* ***بتعميم نظرية مركز***

الجاذبية الأرضية، *وأول من قاموا* ***بتطبيقها على الأجسام ثلاثية الأبعاد***. *كما أنهم* ***أوجدوا نظرية ذراع القوة لرفع الأوزان ونقلها، وأنشأوا علم الجاذبية الأرضية*** *والذي تم تطويره إلى حد كبير في العصور الوسطى المظلمة في أوروبا .أدت مساهمات الخازني والعلماء المسلمين الذين سبقوه في ميكانيكا الحركة* ***إلى بناء الأسس للتطور اللاحق في ميكانيكا الحركة الكلاسيكية*** *في نهاية العصور الوسطى المظلمة في أوروبا.*

تعالج الأجزاء الثمانية الأولى من هذا الكتاب نظريات العلماء المسلمين الذين سبقوه، ويشمل هؤلاء :الرازي، وأبو الريحان البيروني، وعمر الخيام .كما أن الخازني أوضح باهتمام بالغ فشل الإغريقيين القدماء في التمييز بين القوة والكتلة والوزن. كما أنه توجه إلى ***إظهار المعرفة بوجود كتلة الهواء، وتناقصها في الكثافة مع الارتفاع*** *.كما أن* ***التعريف الدقيق للوزن النوعي*** *تم إعطاؤه من قبل الخازني في مؤلفه : كتاب ميزان الحكمة، كما تقرأ في النص الآتي:*

"هو مقدار وزن جسم صغير مكون من أي مادة بنفس النسبة إلى حجمه مساوٍ لمقدار وزن جسم كبير مكون من أي مادة بنفس النسبة إلى حجمه."

بعد إجرائه التجارب المخبرية المكثفة، سجل الخازني الأوزان النوعية لخمسين مادة، ويشمل ذلك: الصخور المختلفة والمعادن والسوائل والأملاح والعنبر والصلصال. كانت دقة قياساته مطابقة للقياسات الحديثة وجديرة بالاحترام. *في تجربة أخرى،* ***اكتشف الخازني أن هناك كثافة أكبر للماء عندما يكون قريباً إلى مركز***

الأرض، وتم إثبات ذلك فيما بعد من قبل روجر باكون في القرن الثالث عشر للميلاد.

عرّف الخازني الثقل بالمفردات الأرسطوطالية التقليدية كخاصية ضمنية في الأجسام الثقيلة، كما يقول في النص الآتي:
"الجسم الثقيل هو الجسم الذي يتحرك بواسطة قوة ضمنية، وبشكل ثابت، باتجاه مركز العالم. إنه لمن الكافي القول: أني أعني أن الجسم الثقيل هو الجسم الذي لديه قوة تحركه باتجاه النقطة المركزية، وبشكل ثابت باتجاه المركز، ودون أن يتحرك من قبل هذه القوة في أي اتجاه مختلف؛ وهذه القوة المرجعية هي ضمنية في الجسم، لا تشتق بدونه، ولا تنفصل عنه."

بالاعتماد على النقطة الأساس بأن ***الهواء يصبح أكثر كثافةً عندما يكون أقرب إلى مركز الأرض*** (مشتق من قاعدة أرخميدسٍ)، وأن ***وزن الأجسام الثقيلة يزداد كلما ابتعد عن مركز الأرض*** (مشتق من نظريات الكوهي وابن الهيثم بأن الوزن يختلف باختلاف بعد المسافة عن مركز الأرض)، ***برهن الخازني على أن الجاذبية الأرضية لجسم تختلف باختلاف بعد المسافة عن مركز الأرض***، كما يقول في النص الآتي:
"لكل جسم ثقيل معروف الوزن وموضوع على مسافة معينة من مركز العالم، فإن جاذبيته الأرضية تعتمد على تأثيره عن بعد من قبل مركز العالم. لهذا السبب، تعتمد الجاذبية الأرضية للأجسام على المسافات التي تبعد بها عن مركز العالم. حيث أنه كلما ازداد بعد الجسم عن

مركز العالم، أصبح أكثر ثقلاً؛ وكلما اقترب من مركز العالم، أصبح أخف ثقلاً."

كما أنه يظهر ماذا أراد الخازني بمعنى الجاذبية الأرضية (الكلمة مرادفة لكلمة الثقل في اللغة العربية) وكلا الكلمتين لهما نفس الفكرة في المبدأ الحديث لطاقة الوضع الأرضية ومتجه القوة نسبة إلى نقطة (وكلا المعنيين تم اشتقاقهما من الكوهي وابن الهيثم .(في إحدى الحالتين، **أظهر الخازني أنه أول من اقترح أن الجاذبية الأرضية لجسم يختلف باختلاف بعد المسافة عن مركز الأرض.** في أول إحساس له لكلمة (الجاذبية الأرضية)، **إلا أن المبدأ لم يتم الأخذ به بعين الاعتبار مرةً أخرى حتى جاء نيوتن بقانون الجذب العام في القرن الثامن عشر للميلاد**. ولكن في ثاني إحساس له بالكلمة، تم الأخذ بالمبدأ بعين الاعتبار مرةً أخرى من قبل جوردانوس دي نيمور في القرن الثالث عشر للميلاد.

لخص ن. خانيكوف (المترجم الباكر والمعلق لعمل الخازني) أفكاره بالنسبة لموضوع الجاذبية الأرضية في النص التالي: "... ولكن أفكار الفلاسفة العرب بالنسبة لموضوع الجذب هو، في رأيي، أكثر جدارة بالملاحظة بكثير؛ أنا لن أسميها الجذب العام، ولكن لمحاولات مؤلفنا للشرح بالتفصيل سبب إعفاء الأجسام السماوية من تأثير هذه القوة، ولكن بسبب قوة الجذب الأرضي. لم يكن هذا القانون العظيم للطبيعة حاضراً بنفسه في أذهاننا على صورة من الجذب المتبادل لجميع الأجسام الموجودة- كما أعلن نيوتن بعده بخمسة قرون- هو تماماً قانون طبيعي. وفي الوقت التي تم فيه استعراض المبادئ من قبل مؤلفنا وخطو الخطوات الأمامية لتقديمها، كانت الأرض تعتبر في ذلك

الوقت ثابتة وغير قابلة للتحرك في مركز العالم، وحتى ولو لم تكن قوة الدوران مكتشفة في حينها.

ولكن ما هو أكثر إذهالاً هو حقيقة أن: ما ورث عن الإغريقيين القدماء من المعتقد السائد بأن الأجسام كلها تنجذب نحو مركز الأرض، ويتم تمثيل هذا الجذب بصورة نسبة مباشرة من الكتلة، وأكثر بكثير لم يكونوا قد فشلوا في ملاحظة أن الجذب هو وظيفة المسافة التي تبعد به الأجسام المنجذبة نحو مركز الأرض، كما أنهم أحاطوا بوعيهم أنه لو كان مركز الأرض محاطاً بالقطاعات الكروية المركزية، فإن جميع الأجسام ذات الكتل المتساوية الموضوعة فوق هذه الأسطح الكروية سوف تضغط بالتساوي على نفس الأسطح، وبصورة مختلفة لكل سطح كروي. وبهذا -وعلى الرغم من كل ذلك- فإنهم دعموا بصورة مباشرة أن الوزن هو نفسه الكتلة وأن المسافة عن مركز الأرض- دون أدنى شك- تبدو بعيدة أكثر مما هو في الظاهر، وأن هذا الجذب ربما يكون متبادلاً بين الجسم الجاذب والأجسام المنجذبة. وهذا القانون الذي رسخ من قبلهم كان متناقضاً مع المبدأ الذي اعترفوا به، وهو أن السطح الذي يحتوي على السائل في حالة اتزان هو سطح كروي."

مؤلفاته في الآلات

تتكون رسالته في الآلات :رسالة الفعلات من سبع أجزاء يصف مختلف الآلات العلمية مثل: المثلث الهندسي القديم والمنظار الفلكي (وشكله كأنبوب مفتوح الطرفين ويستند على قاعدة ثابتة)، وآلته المثلثية التي اخترعها، وآلة المربع الفلكية وآلة المسدس الفلكية والاصطرلاب، والآلات الأصلية التي تتعلق بانعكاس الضوء.

الخيمياء وعلم الأحياء

كتب الخازني ما يلي في تطور علم الأحياء والخيمياء (وهو نوع غير علمي من الكيمياء كانت تقوم على فكرة تحويل المعادن الأساسية كالرصاص إلى ذهب)، منعقداً المقارنة ما بين تغير العناصر والتغير النوعي الأحيائي، وكيف تم ملاحظتها بين الفلاسفة الطبيعيين والشخص العادي العديم الخبرة في العالم الإسلامي القديم في ذلك الوقت.

"عندما يسمع الناس العاديين من الفلاسفة الطبيعيين كيف أن الذهب هو الجسد الذي يحقق منتهى نوعية النضوج، بهدف الإنجاز، فإنه يكون قابلاً للتصديق بأنهم سيبدأون بالاعتقاد تدريجياً بتمرير أشكالً من الأجسام المعدنية لتحويلها إلى ذهب. لذا كانت طبيعة الذهب هي التي أدت أصلاً إلى هذا الاعتقاد، فبعد أن كان قصديراً ثم نحاساً ثم فضةً ثم في النهاية وصل إلى مرحلة تطور الذهب؛ ليس بهذا المعنى أراده الفلاسفة الطبييعين بقولهم هذا، والمعنى الذي كانوا يقصدونه هو عندما كانوا يتحدثون عن الإنسان، ووصفه بصفات الكمال والاتزان في الطبيعة وقوانينها- لا يعنون بذلك أنه كان مرة جدّياً، ثم تغير إلى الحيوان وحيد القرن، ثم بعد ذلك تحول إلى حصان، وبعد ذلك إلى قرد، ثم في النهاية تحول إلى إنسان".

الملكية الفكرة تمت سرقتها

ومما يجب الوقوف عنده أن نظرية الجاذبية التي نعلم أبناءنا أن إسحاق نيوتن هو من أسس لها هي ملكية فكرية للعالم الفذ عبد الرحمان الخازني. ومما علمونا إياه أن نيوتن كان في الحديقة حينما استرعى نظره وتفكيره سقوط تفاحة من الشجرة على الأرض فكانت تلك هي اللحظة الحاسمة التي جعلته يكتشف هذه النظرية.

كما أن باقي الاكتشافات العلمية تعود في مجملها للعلماء العرب والمسلمين في العصر الذهبي للحضارة البشرية (عصر الظلمات عند الأوروبيين) كما يشهد بذلك المستشرق بيات سانجين في الفيلم الوثائقي "علم الإسلام الدفين" الذي قدمته القناة التلفزيونية الرسمية الألمانية تحت عنوان "عالم المعجزات". *يقول هذا المستشرق أن العلوم العربية والإسلامية لم تضع، لكن ضاعت الملكية الفكرية لأصحابها، بحيث يقول أنه بعد موت ملك صقليا فريديريك الثاني، تمت ترجمة عشرات أمهات الكتب في ساليرمو إلى اللاتينية، وقرونا فيما بعد ظهرت بأسماء جاليليو، كوبيرنيك، ليونار ديلفانتشي*، الخ. ثم كلنا يتذكر قصة وليام هارفي، وهو الذي نسب لنفسه اكتشاف "الدورة الدموية الصغرى"، إلى أن اكتشف أحد الطلاب الباحثين المصريين في السبعينات من القرن الماضي حقيقة الأمر في مكتبة إحدى الجامعات الألمانية، حيث توجد الوثيقة الأصلية باللغة العربية لصاحبها العالم ابن النفيس.

لن أطيل كثيرا بخصوص هذا الموضوع الحساس جدا الذي كان من المفترض في إعلامنا الحداثي أن يحيطه باهتمام شديد كوصفة سحرية بكل المقاييس، قادرة على بعث الروح الحداثية والتحديثية الحقيقة في أطفالنا وفي كل مناحي الحياة الاجتماعية للمغاربة الذين أصبحوا يدورون في حلقات مفرغة كلها ضياع، تزداد شدة في دورانها مع

مرور الزمن، بحيث لا تترك للفرد أي مجال لالتقاط النفس قصد محاولة التموقع والتموضع للعمل على تحديد الوجهة السليمة التي يجب اتخاذها. ماذا يمثل اينشتاين (Einstein) بالنسبة لهذه الأسماء العظيمة؛ ابن الجزري، ابن الهيثم، عبد الرحمان الخازني، الشريف الإدريسي، ابن خلدون، الخ.

هل بعد الكشف عن مثل هذه الكنوز الحضارية الحداثية الرفيعة الخالدة من إصرار على اقتفاء آثار حداثة لاتينو- أمريكية بنكهة الكرنبالات والسامبا، حيث تتفاعل مؤثرات الأغبرة البيضاء المهيجة مع الغريزة الجنسية الجامحة؟ ألم يحن الوقت بعد لكي يعيد مقتفو آثار حداثة الكارنبالات النظر في مشاريعهم التحديثية العبثية، ويتوقفوا هنيهة للنظر مليا إلى الوراء عبر مرآة النظر إلى الخلف (rétroviseur) ليتمكنوا من تصويب نظرتهم إلى الأمور على أسس علمية سليمة تجعلهم يعيدون النظر في مشروعاتهم التحديثية على أسس حضارية راقية ضاربة في أعماق التاريخ. أقول لهم، هل الحضارة التي تمسك بها اليابانيون، كشرط من شروط العمل على تقدم اليابان، هي أرقى من حضارتنا الرائعة التي أنتجت علماء روادا أسسوا لكل أصناف العلوم والاكتشافات التي غيرت وجه التاريخ البشري؟ من يريد أن يعرف الحقيقة ليطمئن قلبه، فما عليه إلا أن يطلع بالصورة والصوت، من خلال موقع يوتوب والملاح غوغول، على ما أصبح يشهد به الغربيون المنصفون أنفسهم من أن العصور الوسطى عند العرب والمسلمين تعتبر العصر الذهبي للحضارة البشرية، وأن نعتها بالمظلمة لا ينطبق إلا على حال أوروبا التي كانت تعيش فعلا أحلك عصورها [المطلوب إدخال: "علم الإسلام الدفين" للاستماع لشهادة

لمؤرخ (أستاذ جامعي) ومستشرق ألمانيين بخصوص الحضارة الإسلامية بكل روافدها. كما يرجى إدخال "1001 inventions" (1001 اختراع)، للاستماع لشهادة الإنجليز بحصوص العصور الوسطى عند العرب واللمسلمين. كما يرجى إدخال les " inventions" des savants musulmans au moyen âge (اختراعات العلماء المسلمين في القرون الوسطى) للتعرف على حقائق مذهلة ظلت طي الكتمان بخصوص أبحاث العلماء العرب والمسلمون واكتشافاتهم العلمية التي غيرت وجه تاريخ الحضارة البشرية تغييرا حداثيا على أسس علمية رائدة لازالت تؤتي أكلها في كل حين، مثمرة ما يعرفه العالم من ثورات تكنولوجية متلاحقة].

من لا يتقدم يتأخر، من طارق بن زياد إلى تيفناغ

قبل إسدال الستار على موضوعات هذا الكتاب بالتطرق للخاتمة، طرأ طارئ جعلني أعيد التطرق لموضوع حساس جدا، يدخل في خانة إرساء الأسس الحقيقية لتحديث المجتمع المغربي تحديثا فعليا، بحيث يتعلق الأمر بما أصبح يثار من أغبرة سامة بخصوص هوية الشعب المغربي التي لم تكن في أي وقت من الأوقات، خلال العصور السالفة، موضوع تساؤل وإثارة للفتن. عدت إلى الموضوع الذي سبق أن تطرقت له من خلال كتاباتي فيما سبق، خاصة كتاب "آليات صناعة التخلف" لأنقل هذا المقطع بخصوص حقيقة العرب والأمازيغ من منظور واقعي محض، قبل أن يصدر خلال هذه السنة (2012) كتاب قيم تحت عنوان **"حول عروبة البربر"**، **"مدخل إلى عروبة الأمازيغيين من خلال اللسان"** لمؤلفه الباحث سعيد بن عبد الله الدارودي *"الذي طاف في بلاده ظفار التي تقع بين عمان واليمن باحثا*

في لهجاتها، منقبا عن صلاتها بالبربرية، منشغلا دون كلل أو ملل لأكثر من 17 سنة عاما بالمقاربات اللغوية ما بين اللسان العربي بفروعه الكثيرة واللسان البربري المتعدد اللهجات، ليخرج بنتيجة أن البربر حقا هم عرب الهجرات القديمة التي قدمت من المشرق وحطت رحالها في شمال افريقية". هذا الكتاب الرائع والقيم هو تفنيد لمقولة أن البربر ليسوا عربا لمن يصطادون في الماء العكر، والذي بلغ بهم الحد إلى كتابة المشترك السامي للمغاربة بتبني هيروغليفات تيفناغ لإحداث شروخ على صعيد البنية السوسيو- اجتماعية للمغاربة الذين وحد بينهم التاريخ والدين والدم، قبل أن يسلط هذا الكتاب، مؤخرا، الضوء الكاشف على ما هو أعمق. سبق أن كتبت[1] سنة 2008 ما يلي مراجعا:

« نعم، "من لا يتقدم يتأخر"، و"من يزرع الريح يجني العاصفة"، فلقد عاش المغاربة في كنف الإسلام متصاهرين، متلاحمين ومنصهرين، لا فرق بين عربي وبربري (أمازيغي)، على مدى أكثر من أربعة عشر قرنا. تلاحم وانصهار منذ الوهلة الأولى، أدى إلى ذوبان النعرات العرقية المذمومة على ضوء "إنا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم". انتفت النعرات العرقية والقبلية لتفسح المجال لظهور إنسان بثقافة سامية، رفيع القدر، عالي الهمة، واضح الوجهة، عالمي النظرة، كل همه إصلاح حال البشرية ونشر العدالة الاجتماعية وتأمين الأمن والسلم للمجتمعات. ولازال إسم أشهر مولود أنجبته هذه الثقافة عند إشراقتها الأولى في الغرب الإسلامي يشهد عليه الجبل الذي يحمل إسمه المموه "جبرلتار (gibraltar)" (جبل طارق). إسم يشهد

[1]- آليات صناعة التخلف، وقفة صريحة مع الذات

بدينونة أوروبا ومديونيتها لعظمة هذه الثقافة التي أسست لأعظم حضارة إنسانية على الإطلاق، انتفت فيها العصبيات الدينية والعرقية، وعم التمدن والتحضر، وساد العدل، وانتشر العلم. العربي بربري، والبربري عربي، انصهرت جينات العنصرين لتتجمع في جسد المغربي لتكون وحدة بشرية ستظل شامخة في وجه حتى أعتا عواصف التفرقة التي يثيرها صليبيو الغرب وصهيونيوه، ويتلقفها من خانتهم عصبية حرب الطبقات ليشعلوها حرب عرقيات وحرب أسرة.

طارق بن زياد البربري، لم يخرج ورقة تفناغ "كلغة وطنية" في وجه اللغة العربية الحديثة العهد بدخول المغرب آنذاك. tإن كانت هناك من هيروغليفات تفناغ كلغة أمازيغية معروفة ومتداولة، فقد كان هذا القائد، المخلد الإسم على الباب الجنوبي لأوروبا، أقرب إليها بكثير ممن يدّعون حاليا العمل على إحيائها إمعانا في إذكاء نار الفتنة والتفرقة. عرف طارق بن زياد، القائد العسكري ما يريد فحدد وجهته، عرف مهمته في الحياة مع سريان روح الحضارة الإسلامية السامية في شرايينه، فوضع يده في يد أخيه القائد السياسي العربي موسى بن نصير واتجها شمالا لوضع الأسس لبناء أعظم حضارة إنسانية (اكتشافات علمية رائدة، تمدن بأرقى المواصفات)، كما يشهد بها الأسبان المنصفون أنفسهم، وكما يشهد بها وثائقي للتلفزة الألمانية من عدة حلقات كما سنرى[1].

جاء العرب بالإسلام، والمغرب يقطنه الأمازيغ، فلم يهرع هؤلاء ليرتموا في أحضان الغرب لمواجهة هؤلاء "المستعمرين" (وحق لهم

---

[1]- يرجى إدخال "علم الإسلام الدفين" في خانة البحث على "يوتوب" أو الملاح "غوغل"

ذلك آنذاك، لو كانوا من صنف مثقفينا الحاليين الذين لم تغسل بعد أدمغتهم من ترسبات شعار حرب الطبقات، فأعلنوها حروب قبليات وعرقيات وأسرة، فلا بد لحرب الشعارات أن تسمر) كما يحلوا القول في هذه الأيام لفئة من أبناء جلدتنا المغتربين المتغربين الذين يغردون خارج سرب أبائهم وأجدادهم. فعلى مر العصور، انصهر العربي الأمازيغي انصهارا تاما حتى أصبحا يكونان وحدة لا انفصام لها، وهكذا فإن العربية عربية كل المغاربة، والأمازيغية أمازيغيتهم أجمعين. فحينما يقول الله تعالى "جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"، معناه ليس لأية هوية الحق في العمل على إقصاء الأخرى؛ نعم للأمازيغية كما كان الحال عند أجدادنا، لكن ليس بهيروغليفات تيفناغ ولا بالحروف اللاتينية.

ثم، هل وصل الحد بهؤلاء المتنورين الجدد بظلام حقد الغرب الصليبي الاستعماري إلى التبرؤ من أجدادهم وآبائهم الذين تعايشوا في سلم وسلام ووئام عربا أمازيغا، أمازيغا عربا لما يناهز 14 قرنا. وإذا طعن هؤلاء بهذه الكيفية الغير اللائقة في أصولهم، فأية هوية أمازيغية بقيت لهم؟ هل كان آباؤهم جهلة خونة، مفتقدي الإرادة، لا حول ولا قوة لهم بما كان يُفعل بهم؟ إنه طعن ما بعده طعن في أقوام حق للتاريخ أن يسجل بطولاتهم بمداد من ذهب في بناء الجناح الغربي لحضارة إسلامية شامخة ضاربة جذورها في الأرض (المغرب) والزمان (يوسف بن تاشفين، يعقوب المنصور الموحدي، أحمد المنصور الذهبي، المولى إسماعيل، المولى سليمان، محمد المختار السوسي، عبد الكريم الخطابي، واللائحة تطول طول التحام ووئام الأربع عشرة قرنا، أسماء عربية لعظماء أمازيغ عرب)، ولم يصبها ما أصابها من الوهن والضعف إلا بعدما أصبح أحفادهم، من حيث يدرون أو لا يدرون،

معاول للهدم في أيادي الغرب الصليبي الحاقد على اللحمة العائلية التي خلقها الإسلام بين هذين المكونين الرئيسيين للهوية المغربية العربية الأمازيغية ـ الأمازيغية العربية.

لو كان العرب مستعمرون كما يحلو القول لغرابيين تغربوا في أفكارهم فتنكروا لتاريخهم، لما احتل طارق بن زياد الأمازيغي الصدارة كقائد أعلى للجيش الذي عبر إلى الضفة الشمالية للبحر الأبيض الموسط لنشر تعاليم الرسالة الحضارية الخالدة. المستعمر! (العربي) يقلد أحد أبناء البلد الذي احتله (الأمازيغي) قيادة الجيش وإرساله لفتح بلدان أخرى بكل ثقة وبدون توجّس، هل هذه معادلة يمكن للعقل السليم تقبلها؟ معروف أن طارق بن زياد، لما قطع إلى الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، أحرق السفن وقال قولته المشهورة للجيش الذي يقوده "البحر من ورائكم والعدو من أمامكم، فليس لكم إلا النصر أو الهلاك". ألم يخطر بباله، لو كان عنده أدنى إحساس بأن العرب المسلمين مستعمرون، أن يبيع الجيش لعدوه الأوروبي، أو أن يطلب منه العون والنصرة ثم يعود لمهاجمة العرب وطردهم من المغرب؟ أليست هذه هي السيناريوهات الكلاسيكية المعروفة عند الخونة في مثل هذه الحالات؟ ألم تكن هذه أسنح فرصة له ليقول للجيش الذي يقوده "البحر والعدو من ورائكم، فارتموا في أحضان الغربيين، وتقووا بهم على هزم عدوكم العربي المستعمر؟" هل كان هذا القائد مفتقد الإرادة إلى هذا الحد الذي لا يليق حتى بأجبن الجبناء، وبأذل المذلولين والأذلاء؟

في أواخر التسعينات من القرن الماضي، كنا قي لقاء علمي جيولوجي بوزارة الطاقة والمعادن بالرباط، وحينما كنا في فترة استراحة بين حصتي التدخلات العلمية للباحثين لبعد الزوال، دار الحديث بين مجموعة من المهندسين يعملون بهذه الوزارة، فقال أحدهم أن إسم

طارق بن زياد الأصلي هو طارق بن زيان، لكن لما كان قائدا فذا وبطلا لا مثيل له، عمل العرب على تغيير إسمه إلى ابن زياد (إسم عربي)، بدل ابن زيان (أمازيغي) ليحسب عليهم. لم أتملّك نفسي أمام هذا الجهل المكعب، فقلت للمتكلم الذي تجمعني به صداقة العمل، أن طارق بن زياد أو ابن زيان (كما يحلو لك القول)، لو كان حاضرا معنا لكان له معك كلاما لن يعجبك أبد الدهر، ولو كنت أنت زمانه لما خطر ببالك ما تقول، لأن دماغك لم يكن قد أصابه ما أصابه من عاهات عصر التخلف والانحطاط الذي نعيشه.

هل بكل هذه السهولة تم احتواء طارق بن زياد وتدجينه من طرف أعدائه المفترضين؟ إنه لأمر عجيب غريب هذا الهذيان الصادر عن عقل مهندس؛ فحسب التصور العلمي المفترض لصاحبنا، فبما أن طارق بن "زيان" بطل أمازيغي، فما كان على العرب "المستعمرين" إلا أن يغيروا إسمه إلى ابن زياد حتى ينسلخ من هويته ويصبح واحدا منهم، منصاعا لهم، ليقلدوه أخطر منصب، ألا وهو قيادة الجيش. أي قدرة هذه على غسل الأدمغة كانت عند العرب، حتى بلغ بهم الحد إلى تحويل الفذ من أعدائهم لخدمتهم بتفان وبكل ثقة وأمان وبكل تلقائية؟ وإذا كان هذا هو حال من يريدونه ابن زيان، بدل ابن زياد، من سهولة التدجين والانسياق "للمستعمر" العربي، أليس من الحكمة والفطنة السياسية، أن يتنكر له من يريدونها تيفناغ على طول، بدل الكتابة بالحرف العربي كما هو الحال في باكستان وأفغانستان وحتى في إيران عدوة العرب والمسلمين، ..؟ ألا يشكل لهم، ابن "زيان" الأمازيغي، وصمة عار بانقياده "للمستعمر العربي"، بل والانخراط في الدفاع عن أطروحاته كما يحلو لنا القول في زمن المسخ السياسي والفكري والعقدي الذي نعيشه؟

طارق ابن زيان، بدل ابن زياد، كما يريدون له، يشكل حجة بالغة ودامغة على من تنكروا لبطولاته ولمواقفه الخالدة التي خلدت اسمه على جبل تتنازع السيادة عليه إسبانيا وإنجلترا في وقتنا الحاضر. والأخطر في الأمر والأدهى، ألا تتنبه أدمغة أطرنا العلمية العليا، للورطة التي يضعون أنفسهم فيها بهذا السجال الرديء، فإن كانوا غير قادرين على استيعاب ما أوردته من بديهيات تدحض ما يرددونه من دون أدنى تمحيص، فالمصيبة أكبر وأعظم. طارق بن زيان (ابن زياد في حقيقة الأمر)، يعطيه "المستعمر" قيادة جيشه، ألا يبدو الرجل خائنا حتى النخاع، فلكي يحظى بثقة العرب إلى هذا الحد منذ الوهلة الأولى لدخولهم المغرب، فليس هناك إلا احتمال واحد، فهو قطعا من استدعاهم ومهّد لهم الطريق وسهّل لهم السيطرة على قومه الذين انساقوا معه للترحيب بهم. وإذا كان الأمر كذلك من باب التحليل السياسي، وحتى العلمي المحض، فلماذا التعصب لهذا "الخائن" من طرف من يريدونها نخوة أمأزيغيه تيفيناغية تاريخية؟ إن الأمر ليس كما يتصوره، ويصوره من لم تسعفهم مؤهلاتهم الفكرية والعلمية لفهم الأمور الفهم الصحيح على بداهتها ووضوحها. ففي كلتا الحالتين، فقد وضع هؤلاء أنفسهم في مواقف لا يحسدون عليها، مواقف لا تشرف المغربي العربي الأمازيغي المسلم، حفيد طارق بن زياد وموسى بن نصير ومن جاء بعدهم على امتداد أربعة عشر قرنا من الزمن التي شكلت إلى زمن قريب العصور الذهبية للحضارة البشرية[1].

[1]- يرجى إدخال " 1001 اختراع" على يوتوب

طبعا، لم يكن طارق بن زياد خائنا ولا جبانا، بل هو بطل مغوار، إرث حضاري وتاريخي لكل المغاربة الأحرار (كما هو الحال مع المختار السوسي الأمازيغي وعبد الكريم الخطابي العربي)، فرض احترام شخصه عبر تخليد إسمه حتى على من غزاهم في عقر ديارهم. فلمن يريدونها نخوة وعلو همة، ويريدون إعادة الاعتبار للمكون الأمازيغي للشعب المغربي (في حقيقة الأمر يريدون الإساءة لهذا المكون)، أن يسلكوا نهج الأكابر والعظماء. فعليهم أن يتطلعوا بعزة نفس، لتقفي آثار أقدام طارق بن زياد وهو يتجه صوب الشمال لوضع الحجر الأساس لأروع حضارة بشرية عرفها التاريخ. حضارة علمية شاملة، واجتماعية راقية عوملت فيها الأقليات الدينية والعرقية (اليهود والنصارى،..) على قدم المساواة مع الأغلبية المسلمة (العربية الأمازيغية)، امتثالا لأوامر الإسلام العادلة الخالدة نزولا عند مقولة عمر بن الخطاب "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا". نعم، علينا أن نتطلع بعلو همة إلى تقفي خطى طارق بن زياد، صانع التاريخ، بدل أن نصبح، من حيث لا ندري، معاول هدم في أيدي ساسة الغرب الحاقدين على من علموهم أصول الحضارة العلمية والاجتماعية، فنلقي بأنفسنا في مزبلة التاريخ، بل نجعل من أنفسنا قمامات تلقى فيها النفايات في مزبلة التاريخ.

وحتى أحيط بهذا الموضوع من كل جوانبه، أعود إلى صديقي في العمل، المهندس الذي يرى أن إسم طارق بن زياد هو ابن زيان، والذي استطرد قائلا: "لا أحب العرب بالرغم من أن أم أبنائي فلان وفلان، وابنتي فلانة عربية، من مدينة وجدة"، وزاد قائلا أن أحبّ المطربين إليه هو محمد عبد الوهاب المصري.

ماذا يمكن استنتاجه زيادة على ما هو بديهي في هذه القصة؟ طارق بن زياد، الأمازيغي الجينات (قطعا لم يكن أحد أبويه عربيا كما أصبح حال كل المغاربة فيما بعد)، لم يجد أدنى حرج في الاتحاد والالتحام مع موسى بن نصير، العربي الجينات (قطعا لم يكن أحد أبويه أمازيغيا كما أصبح حال المغاربة فيما بعد)، فكونا وحدة ثقافية ولغوية لا مثيل لها في التاريخ، انتفت فيها العصبيات العرقية والقبلية وغيرها. بين هذه اللبنة الأولى لالتحام الدم العربي الأمازيغي، ومحطة صاحبنا الذي يتكلم اللهجة الأمازيغية والمتزوج ممن تتكلم العربية، يمتد تاريخ أكثر من أربعة عشر قرنا من الانصهار الجيني الذي أدى إلى ذوبان المكونين بعضهما في بعض. فإذا لم يجد طارق بن زياد الأمازيغي أدنى حرج في الالتحام مع العربي القادم من الشرق، فما هي مسوغات صاحبي المهندس، أبو أبناء أمهم عربية! في الابتعاد من كل ما هو عربي، حتى وإن كان الأمر من باب المناوشات الكلامية؟ هل يدري صاحبي المهندس ماهية جيناته وحقيقة ما مرت به من إدماج وتفاعلات خلال أربعة عشر قرنا مضت؟ كم من مرة تم فيها صهر جيناته بين جينات أب أمازيغي وأم عربية، وبين جينات أب عربي وأم أمازيغية؟ كيف لجسد أن تتبرأ نصف جيناته من النصف الآخر، ويلعن نصفه النصف الآخر؟

في أحد الأيام، سنة 1982، حينما بدأت أتلمس طريقي في البحث العلمي في الجيولوجيا كطالب في السلك الثالث من التعليم العالي، في منطقة إمين تانوت بناحية مراكش، أرسل معي خليفة القائد رجلا مسنا ليوصلني عند شيخ بأحد الدواوير. كانت المسافة تتجاوز 10كلم، قطعناها مشيا على الأقدام، بحيث أعجبت كثيرا بقدرة ذلك الرجل المسن على المشي بخطى سريعة دونما عناء يذكر، وكذا بغزارة

كلامه. تركته يتكلم في كل المواضيع التي يريد وأنا أستمع إليه بإمعان مشجعا إياه على الكلام. تكلم في كل شيء إلى أن تطرق إلى موضوع العرب و"الشلوح" (الأمازيغ)، وأطال الكلام فيه، وفي سياق الكلام بلغ به الأمر أن قال *"حتى الله راه شلح"*. أثارني ما قاله واستفزني من منظور التفرقة العرقية اللئيمة فقط آنذاك، فقلت له أنت في مقام جدي وأعجبت بحيويتك وتركتك تتكلم لتتفوه بهذا الكلام الخطير، هل أنت فعلا *"شلح"* أم تتكلم فقط*"الشلحة"*؟ هل أنت فعلا أمازيغي الأصل أم تتكلم الأمازيغية؟ سكت بعض الوقت، ثم أجابني قائلا *"عندك الحق يا ولدي، قضيت علي، أنا من أصل حسّاني، من الصحراء المغربية"*.
وزاد قائلا أن من الحسّانيين من ذهبوا إلى الدار البيضاء (ونحمل نفس الإسم العائلي)، فلم يعودوا يتكلمون الحسّانية ولا يعرفون الأمازيغية، ومنهم من جاءوا إلى هنا، إلى الأطلس، ومن بيننا أفراد لا يعرفون لا اللغة الحسّانية ولا العربية.
وفي نفس السياق، سياق "تعرب" الأمازيغي و"تمزيغ" العربي، فأنا شاهد عيان من قريب على وجود تجمع من *"الشرفاء"* بشمال مدينة تازة، يتكلمون العربية أبا عن جد، ولا أحد منهم يتكلم ولو حرفا واحدا بالريفية. بالمقابل، يوجد تجمع آخر لهؤلاء الشرفاء (نفس الأسماء العائلية) شمال كرسيف بمنطقة "مطالسا"، يتكلمون الريفية أبا عن جد، ومنهم لا يحسن النطق إلا بالقليل من العربية، وكلا أفراد التجمعين ينادي أفراد التجمع الآخر بأبناء العمومة. لا أدري ماذا سيكتشف صاحبي المهندس إن هو أمعن البحث في هويته وأصوله.
فمن طارق بن زياد، قائد الجيش الإسلامي العربي الأمازيغي المغربي وصاحب الفتوحات الإسلامية الكبرى في أوروبا إلى المختار السوسي الذي حارب الاستعمار الفرنسي وتصدى للظهير البربري المشؤوم،

وعمل على إسقاطه، تتجلى ملاحم الرجولة والبطولة للمغربي المسلم العربي الأمازيغي – الأمازيغي العربي. مصاهرة فانصهار، فمصير مشترك في الدين والوطن، مع وجود عدو متربص بالجميع، الكل أدى إلى التفاعل في لحمة ووحدة».

حول عروبة البربر

بعد هذا الذي كتبته قبل 5 سنوات يأتي هذا الكتاب التي تم طبعه بالمغرب لمؤلف من ظفار، من شرق الخليج العربي يقول:

"عديدة هي الأدلة التي تخبر عن أرومة الأمازيغ المشرقية، أدلة من المعمار والموسيقى والكتابة القديمة وغيرها. لكن الحجج اللغوية تظل الأقوى تأكيدا، والأعظم تأثيرا وإقناعا في إثبات عروبة المغاربة القدامى. فمعروف لدى الجميع أن الأدلة اللغوية تعد من أفضل الأساليب وأوضحها لإثبات ما بين الجماعات السكانية من علاقات ثقافية وصلات نسب. ومازالت مقولة (اللغة هي الكشاف الأول والهام عن أصل الشعوب) هي المشعل المنير الذي يسير على ضوئه علماء خصائص الإنسان. أما الصخرة اللغوية التي يقف عليها الحركيون البربر، فهي ليست راسخة ثابتة كما كان يعتقد. فلقد بدأت تهتز تحت أقدامهم وتميد بهم بفضل بعض الدراسات اللغوية المعمقة في علم اللغة المقارن، خاصة كتاب (صفر العرب الأمازيغ) والمعجم الملحق به (معجم لسان العرب الأمازيغ) للعالم الموسوعي الدكتور علي فهمي خشيم" .

ويقول الكاتب كذلك:

"لقد أردت هذا الكتاب أن يكون شاهدا ودليلا على عروبة أقوام كانوا وما زالوا يتكلمون بلهجات سميت لغة، وعدَّت أعجمية. و ما أوردته

بين دفتي هذا المؤلف، يدحض هذه المقولة التي أضحت عند الكثير من الناس من مسلمات وبديهيات لا تقبل النقاش، لقد سردت هاهنا الكثير من الشواهد حتى أثبت به أن البربرية ليست سوى لسان عربي، شواهد ليست من المعجم فحسب، بل من النحو والصرف والصوت أيضا، وأحب أن أذكر في هذه المقدمة عدة نقاط للقارئ الكريم." إلى أن يقول: "ولقد رجح ابن بطوطة أن تكون ظفار هي موطن البربر الذي نزحوا منه إلى الشمال الإفريقي، وابن بطوطة رحالة مغربي شهير ينتمي إلى قبيلة لواتة البربرية، وهو أعظم رحال في تاريخ البشرية، وقد زار ظفار وحل بها. وللكاتب محمد بن مستهيل الشحري قراءة مهمة في رحلة ابن بطوطة لظفار جعل عنوانها (ظفار في تحفة النظار)، ذكر فيها بأن ابن بطوطة يعد من الأوائل القائلين بعروبة البربر استنادا إلى ما لاحظه وعثر عليه في ظفار".

لا أظن أن هذا الباحث الظفاري، من الخليج العربي، البعيد عدة آلاف من الكيلومترات من المغرب، يستهويه التنكر لتفيناغية الأمازيغ وأصالتهم؛ فالكتاب لا يبقي للقارئ أي مجال لتشتيت الفكر في البحث عن مسوغات تأليفه، فكل ما هو مدوَّن بدفتيه يدخل في خانة البراهين الدامغة التي تقطع قطعا تاما مع كل أشكال التأويلات والتخمينات والتخوينات. فالكتاب يمثل كنزا ثمينا من الحقائق العلمية، التي هي عبارة عن معطيات لغوية حية دامغة، لن يجادل في صحتها ووجاهتها إلا جاهل جهلا مكعبا، بحيث لم يسعفه تعلمه من تخطي حاجز محو الأمية التعليمية والفهم السليم للأمور.

من بين مقتضيات الحداثة أن يتم العمل على تنقية المناخ الاجتماعي من كل أشكال وأنواع الملوثات التي تؤثر بكل سلبية في عقليات الناس ومنظومتهم الثقافية التي تجعلها مهيأة لاستنبات إلا ما هو سيئ

ورديء، بحيث لا ينفع في مثل هذه الحال أية محاولة للإصلاح والتحديث. فكل محاولة بهذا الخصوص لن تثمر إلا المزيد من الإفساد والانحطاط. فكما هو معلوم للجميع، فإن حداثة وتحديث الولايات المتحدة الأمريكية، الدولة المترامية الأطراف، اتخذت من توحيد الشعب الأمريكي حول اللغة الإنجليزية شرطا أساسيا، محوريا، لضمان وحدته رغم تنوع أعراقه تنوع أعراق المعمور. في المقابل، نجد بلجيكا، الدولة الأوروبية الصغيرة، قد سلكت مسلك تبني لغتين رسمية، وهو الأمر الذي أدى إلى تعطيل دواليب الدولة وتهديدها بمزيد من التمزيق والتشرذم.

الأمازيغية ميراث جميع المغاربة بفعل الانصهارات الجينية المتتالية على مدى أربعة عشر (14) قرنا من الزمن كما بينا ذلك في كتاباتنا، وكذا كنتيجة للاشتراك في الأصل العربي لكلا المكونين المتباينين ظاهريا (العربي والأمازيغي) كما ينطق بذلك كتاب "حول عروبة البربر، مدخل إلى عروبة الأمازيغيين من خلال اللسان" للباحث الدارودي من ظفار. وانطلاقا من هذه القواسم المشتركة القوية الدامغة، فلا يحق لأي أحد أن يدعي امتلاكها ويعمل على كتابتها بهيروغليفات تيفيناغ وفرضها كلغة رسمية بجانب العربية. فلو كانت هناك لغة أمازيغية ضاربة في أعماق التاريخ، بنفس المواصفات الحضارية الراقية للغة العربية، لغة جميع المغاربة (لغة القرآن ولغة كل العلوم، تكلمها كل العالم خلال العصور الوسطى، التي تمثل العصر الذهبي للحضارة البشرية، حيث أقبل الغربيون على تعلمها إلى حد الإتقان وهو ما مكنهم من ترجمة علومنا، في كل الميادين، إلى اللغات اللاتينية ليتخذوها أساسا ومنطلقا لنهضتهم العلمية)، لما كان هناك أدنى اعتراض على تبنيها كلغة وطنية ورسمية بدل اللغة

العربية. فنحن كمغاربة شعب مشبع بالقيم الحضارية الإسلامية السمحة التي ينتفي عندها التعصب وكل أصناف العصبيات والتشنجات، بحيث تسري في جسدها روح "لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى"؛ فمن ابتغى غير هذا المسار السليم والآمن كمدخل للمشروع الحداثي للبلاد فسيلفظه الواقع والتاريخ نتيجة المناعة الحضارية التي أثبتت نجاعتها كما يشهد بذلك التاريخ الطويل للأمة. أسقط والمغول الخلافة العباسية ودمروا كل شيء في طريقهم كنتيجة لخيانة ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي الشيعيين الرافضين، إلا أن قوة مناعة الحضارة الإسلامية جعلت القوي المنتصر، المسيطر على البلاد والعباد، يدخل في دين المنهزم ويتحول إلى مدافع عنه. يا ليت الجاهلين بخاصيات حضارتهم الرفيعة وبتاريخهم المشرف يعملون على التعرف على هذه الكنوز الثمينة التي تكفيهم مؤنة التسول على أبواب المغرضين الحاقدين على الحضارة الإسلامية ورموزها، التي هيمنت هيمنة مباشرة على أوروبا أكثر من ثمانية (8) قرون، كما أذاقت الأوروبيين المهانة في غزوة وادي المخازن حيث هلك ثلاثة ملوك، وما إلى ذلك من البطولات والمواقف الممتدة حتى زمن محاربة المستعمر ودحضه.

خاتمـــة

ماذا علينا القيام به وفعله، ومن أين نبدأ للعمل على انتشال أنفسنا من المستنقع والعمل على تحديث مجتمعنا تحديثا فعليا، على أسس سليمة، علما أن الحداثة تمثل منظومة متكاملة تبدأ بسن منظومة متقدمة من القوانين المنظمة لشؤون الدولة والمجتمع في كل الميادين وعلى كل المستويات. بجانب منظومة القوانين يجب العمل على إيجاد الآليات الضرورية والوسائل الفعالة لتفعيل هذه القوانين على أرض الواقع انطلاقا من ثوابتنا الحضارية والثقافية الرائعة التي لا يتطلب الرجوع إليها إلا العمل على تجليتها من الأغبرة الحضارية الملوثة الكثيفة الدخيلة التي أصبحت تغلفها، بحيث تحول بينها وبين الإشعاع المضيء للطريق الذي يجب علينا سلوكها، والمنور للأفكار التي يجب تبنيها.

فليس من الحداثة في شيء أن نعمل على كهربة العالم القروي في غياب تام لأي منظور تنموي حداثي كما يحلو لنا ترديد ذلك. ليس من الحداثة في شيء أن تترك المنظومة الإعلامية الشديدة الخطورة تهدم بدل أن تشيد. ليس من الحداثة في شيء أن يعمل الإعلام، إعلامنا، على إعطاب شبابنا، خاصة القروي منهم، بحيث تم تحويل الكهربة من منة إلى نقمة مدمرة للأوضاع الاجتماعية.

سبق أن كتبت فيما قبل[1] بخصوص الضياع الذي يظهر على أبنائنا في تصرفاتهم وعلى هيآتهم وسحناتهم في الشارع وفي مؤسساتنا التربوية والتعليمية؟ كتبت ما يلي منقحا:

[1]- آليات صناعة التخلف: وقفة صريحة مع الذات

"لقد انحصرت مفردات الحداثة وتجلياتها في ثقافتنا الخاصة بنا، في التلبس بالمظهر الخارجي للإنسان الغربي (لباس وطريقة حلق الشعر وتصفيفه وسبغه)، ولم تتجاوزها قدر أنملة إلى طريقة تصرفنا وتعاملنا مع بيئتنا ومحيطنا الاجتماعي، وكيفية انضباطنا مع مقتضيات التمدن والتحضر ومفرداته. ينطبق علينا قول المثل الشعبي *"أش خصك ألعريان، خاصني لخاتم"* وكذا المثل الخشن المعبر بقوة *"لخنونة فوق العكر"*.

ترى شبابنا (الشباب والشابات) فتتعجب لما آلت إليه أحوالهم، بحيث يبدون *"كالكلونات"*، لكن خارج *"السيرك"* حيث مكانهم الطبيعي الوحيد للتواجد. يلبسون سراويل غريبة، لا تكاد تبرح مكانها من فرط عرضها (كان هذا فيما قبل، أما الآن فالموضة تقتضي أن تكون ضيقة لا تتعدى أسفل المؤخرة). وبما أن الموضة تقتضي عدم وضع الحزام (مقتضيات الموضة لا تقبل الإخلال بها)، فلا يمكن للسروال أن يستقر في مكانه، وكلما تحرك إلى أسفل تبدأ مؤخرة الشاب (أو الشابة) الذي عمل على تشقير شعره (أو تلوينه بألوان أخرى) في الانكشاف، وهو منهمك في الإنصات لموسيقى "التيكتونيك" و*"الراب"* و*"الهيب هوب"* وهب هب، ودب دب وما إلى ذلك من المحاكاة الصوتية (onomatopée)، عبر ناقلات الصوت إلى أذنيه. شاباتنا تشاركن الشباب في التلبس بمعالم الحداثة المظهرية من لباس سراويل تجعل أسفل البطن مكشوفا هو وأعلى المؤخرة، ومن سبغ الشعر وتشقيره وتذهيبه لمحاولة الذوبان في جلد الفتاة الغربية. وانسجاما مع حمولة المثل الشعبي الآخر *"ألمزوق من بره أش خبراك من الداخل"* (المجمل من الخارج كيف هو حالك من الداخل)، فإن كشف زيف التلبس بمظهر الشباب الغربي لا يتطلب كثير تحري وتتبع للهفوات؛ فعند الاقتراب من مؤسساتنا التعليمية (التي يجب

أن تكون قلعة للتربية على ما نرفع من شعارات)، يؤشر لك ما هو ملقى على الأرض من أصناف النفايات والأزبال وألوانها، وما هو مكتوب ومصور على الجدران، على أن الأمر لا يعدو كونه *"وضع للعكر على الخنونة"* .

يا كم هو معبر بقوة هذا الصنف الخشن من الأمثال الشعبية الناطقة بحمولة تناقضاتنا ورداءة واقعنا. شباب رضعوا من ثقافة الدوار وترعرعوا فيها، حتى وإن ازدادوا بالمدن وكبروا فيها، فماذا ستجدي فيهم حداثة التلبس بلباس "السروال *طاي باص"* (القامة القصيرة) وتسبيغ الشعر وإغراقه بالدهون لكي يتسنى تصفيفه بشتى الطرق الغريبة، وعلى طريقة عبدة الشياطين. فالحداثة الحقيقية التي علينا أن نربي أطفالنا عليها يجب أن تتجلى قبل كل شيء في ثقافة اللباس، ثم في تربيتهم على التمسك بأسسهم الحضارية المضيئة وتحبيبها لهم وكذا في ثقافة تعلم تحمل المسؤولية والعمل الجماعي الهادف، وثقافة الجد والكد، وثقافة احترام القوانبن واحترام الآخر واحترام البيئة ونظافتها، ومعرفة قيمة الوقت وأهميته في تقدم الأمم، الخ. أما أن نتركهم كتلك الخيول الوحشية، التي تعودت العيش بعيدة عن الإنسان في فيافي أمريكا واستراليا الشاسعة، لا يحدها حاجز، ولا تعرف للانضباط سبيلا، فإننا سنضيع شبابنا، رجال المستقبل، ونضيع بلدنا منبت الرجال ونجني على حاضرنا ومستقبلنا. فليست الحداثة والحكامة ومحاربة الهشاشة التي ملأنا الأفاق بشعاراتها هي إعطاء الطفل الحق (حقوق الطفل) في التسكع في الطرقات والتعاطي للمخدرات والقرقوبي والرقص على ضجيج *"الراب والهيب هوب والتيكتونيك"* ، وإعطائه الحق في فعل ما يحلو له من تفاهات. هل هذه هي التربية التي نريدها لأبنائنا، تربية الآباء والمدرسة؟ هل الطفل الغربي والصيني والياباني، وكل بلد تقدم

أو هو في طريق النمو الحقيقي، يترك شأن تربيته للشارع والأزقة وتلقف ما يلقى به الإعلام من نفايات ثقافية غربية ملوثة سامة، بل وقاتلة؟ ثم نتباكى بعد كل هذا على ما آل إليه حال أبنائنا من ضياع شامل. فعلى ما ربيت ناشئتك يكون قدر شأنك، فلننظر ماذا قدمنا وماذا زرعنا، فمن يزرع الريح يجني العاصفة. لو أننا عملنا عن طريق بيداغوجيا الكفايات (التي يراد لها أن تكون الوصفة السحرية لتعليم أبنائنا الأسس اللغوية السليمة!!!؟) على ترسيخ مشهد الصرار والنملة في مخلية أطفالنا وأذهانهم، منذ نعومة أظافرهم، وجعلهم يعرفون الفرق الشاسع بين ثقافة صرار يعيش لنفسه متسكعا في الأزقة غير مبال بمآله (فكيف له أن يبالي بمآل غيره)، وثقافة نملة تجد وتكد في تنظيم محكم وتقاسم للمهام وتحمل المسؤوليات مع باقي أفراد مجتمعها، لكنا ثبتنا اللبنة الأساس لتكوين أجيال تستطيع تغيير ما بحالها وما حولها، أجيال قادرة على بناء مجتمع حداثي بما في الكلمة من معنى.

فإذا كان الشباب السود الأمريكيون يلبسون سراويل *"الطاي باص"* (taille basse) العريضة، ومن دون حزام يثبتها في مكانها، ويلبسون الثياب التي تبدوا رثة متسخة ممزقة، فلأنهم يعبرون عن مخزونهم الثقافي كحفدة عبيد استقدموا من إفريقيا للعمل في أمريكا في ظروف لا إنسانية، فهم يعبرون بهذه الطريقة في اللباس عما عاناه أجدادهم من تجويع جعل سراويلهم الرثة لا تبرح مكانها من فرط نحافة أجسادهم. يا شبابنا، هل كان آباؤكم وأجدادكم عبيدا مجوعين؟ وحتى لو افترضنا أن الأمر كان كذلك، فإنهم كانوا يلبسون قطعا الجلابيب التي قد يحزمونها بحزام، وحتى بحبل، لجمع قواهم بحيث تنطق بذلك المقولة الشعبية "آ احزم راسك السي فلان". لماذا التهافت على لبس سراويل *"الطاي باص"* العريضة، ولماذا *"تشعككون"*

رؤوسكم وتسبغون شعركم بشتى الألوان المنفرة يا أبناءنا وبناتنا؟ هل من باب التضامن مع السود الأمريكيين الذين استعبدتهم الحضارة الغربية التي لا تعترف بالبقاء إلا للأصلح من منظورهم الإلحادي للوجود؟ وإذا كان الأمر كذلك، ألا تخافون أن يأتي زمن، قد يكون قريبا، تصبحون فيه غير صالحين للبقاء من منظور الحضارة الغربية التي لوثت تفكيركم بنفاياتها فتلبستم بقشورها وأنتم تجهلون لب مرتكزاتها؟ لستم أبناء عبيد استعبدتهم حضارة عنصرية، بل أنتم أحفاد أحرار أعزتهم حضارة إنسانية سامية أسست على مقولة عمر بن الخطاب الشهيرة "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا" النابعة من لب الحضارة الإسلامية العالمية، الصالحة لكل زمان ومكان. فإن كان ما تفعلونه تعبرون بهم عن تضامنكم مع أقرانكم السود الذين استعبد أجدادهم، فلكم الحق كيفما كان الحال لأنكم تفعلون ما تفعلون وأنتم تعلمون، لكن إن كان الأمر غير هذا تماما، وهذا هو الواقع المر، فانظروا إلى ما تلبسون وتمعنوا فيما تسمعون ليتبين لكم أنكم مخطئون، بل تائهون. لست هنا لتحميلكم المسؤولية ((الخطاب موجه لأبنائنا)) عما تعيشونه من ضياع، فأنتم الضحايا، فالمسؤولية مسؤولية الآباء (الأسرة) ومسؤولية المؤسسات التعليمية (المنظومة التربوية والتعليمية) وكذا مسؤولية منظومة الإعلام الفعالة التي يُساء استعمالها إلى حد كبير جدا في كل الميادين الاجتماعية وفي كل مناحي الحياة. فمن ينظر منا، كآباء وكرجال تعليم، إلى ما آلت إليه أحوالكم ببصيرة، بعين النقد البناء لما أخطأ، ولما تردد هنيهة واحدة في الحكم بفشلنا فشلا ذريعا في تربية أبنائنا تربية لائقة وتعليمهم تعليما مجديا. فليس أطفالنا هم من جنوا على أنفسهم، بل نحن من نتحمل المسؤولية كاملة، فهم كالعجينة في أيدينا، يمكن تطويعها كما يراد لها، وما نراه

هو ماركة مسجلة، من إنتاجنا. وعليه، فأقل ما يجب علينا القيام به هو إظهار الوجل على سحناتنا وتقاسيم أوجهنا على ما آلت إليه الأمور، فعلينا أن نستحي من الوقوف أمام المرآة وأن نغض النظر فيها حتى نتجنب النظر في أعيننا، إن كنا فعلا نحس بمسؤولية ما اقترفناه في حق أبنائنا.

علمناهم وهم صغارا الأنانية و"الفشوش" والاعتماد على الآخر في كل شيء. أرسلناهم إلى المدرسة وعلمناهم الاعتماد علينا كآباء حتى في الإنجاح بكل السبل، ولا يهم المستوى اللغوي والمعرفي... علمناهم أن كل شيء يباع ويشترى، بحيث لم يبق عندهم أي إحساس بالجميل نحو الآخر، حتى نحو مدرسيهم. طبعا المدرسين آباء، هم كذلك، فهم يتعاملون مع أبنائهم كما يفعل الجميع، ويتعاملون مع التلاميذ بمنطق هذه الثقافة الدخيلة المدمرة... تصرفات أضعنا بها أبناءها ومستقبل البلاد (أين هم رجال الغد؟؟؟) والعباد... وكما يقول المثل الدارجي "اللي ضرباتو يد ما يبكي"، أو كما يقول مثل آخر ""اللي عقدها بيديه يحلها بسنيه".

فهــرس الكتـــاب

مقدمـــة 2
المصطلح والمخزون الثقافي 7
المفردات والكتابات في زمن الحداثة لا تعني شيئا 9
إفراغ المصطلحات من محتواها، حكامة أم هشاشة؟ 13
ما محل الإعلام من الإعراب الحداثي 15
احتكار المعلومة من نواقض الحداثة 17
الوقـــت لا قيمـــة لـــه 19
الحداثة والحكامة ومحاربة الهشاشة 24
طمس المعالم الحضارية والثقافية للمجتمعات العربية 27
الكهرباء تُدخل العالم القروي نادي العولمة 35
إعطاب العنصر البشري إلى حد الإعاقة المستدامة 38
ممنوع على من يقل عمره عن 18 سنة 44
إعلام تلفزيوني عبثي يُثبّت الجهل 49
لنحـــلل ونناقـــش 52
الكهربة القروية خارج السياق الحداثي 53
تبعات وإسقاطات الكهرباء على العالم القروي 56
هذا هو الموديل الحداثي 62
الإنسان ابن بيئته 67
الكهرباء والإعلام وتحديث العالم القروي 74
قصتنا مع المسلسلات التلفزيونية المكسيكية 79
إعلام تثبّط العزائم وكبّل السواعد 83
الحكامة والهشاشة وكهربة العالم القروي 93

الهشاشة الإعلاميـة 98
الحكامة وكهربة العالم القروي 103
المغرب غني بموروثه الثقافي والحضاري 104
التأثير والتاريخ 105
الكنز الحضاري للمغاربة يتم طمسه 107
المغرب مراكش، مراكش جامع الفنا 113
كهربة العالم القروي ومجالات التنافسية 117
مجــالات التنــافسية في العالم القروي 124
نتعامل مع شبابنا بمفاهيم مقلوبة 128
الحكامة ومحاربة الهشاشة 132
تسويق للسلع أو تسويق لجسد المرأة 137
الرجل والمرأة والهشاشة الإعلامية 141
بيت العنكبوت 148
حرب أشرس من حرب الطبقات 155
الحداثة وحقوق المرأة 164
المغربي حفيد العباقرة 176
من هو عبد الرحمان الخازني 185
مؤلفاته في الآلات 190
الخيمياء وعلم الأحياء 190
الملكية الفكرة تمت سرقتها 191
من لا يتقدم يتأخر، من طارق بن زياد إلى تيفناغ 193
حول عروبة البربر 204
خـاتمــة 208
فهـرس الكتـاب 214

Azert198891@hotmail.fr

ملحـــق بالصـــور

فيما يلي مثال لبعض الصور لإعلانات إشهارية اتخذت من جسد المرأة وسيلة للتسويق لما يراد بيعه.
من خلال الصور الخمسة (كمثال) يتم عرض جسد المرأة كشيء بجانب أشياء أخرى (زجاج، سيارة، الخ) يتم التسويق لها؛ فكما يتم اقتناء هذه الأشياء يمكن اقتناء الجسد المعروض للتمتع به قبل أن يتآكل مع مرور الزمن ويذبل، وهو ما يستدعي استبداله بما هو جديد كباقي الأشياء. فلم، ولن يحدث أبدا أن يتم التسويق لبيع السيارات أو غيرها عبر استعمال صور لنساء متقدمات في السن (ولو شيئا ما)، لأنهن لم تعدن صالحات للعرض كجسد، وإذا تم التفكير في الأمر فسيتم البحث عن نجمة من نجوم السينما أو الغناء أو المسرح ممن لازالت قابلة للعرض جسديا. والأدهى والأمرُّ في الأمر، أن يتم الجمع بين المرأة والشيء المعروض للبيع (السيارة أو غيرها) في التعبير مثل "ثنائي فاتن" (المرأة والسيارة نفس شيء)، أو أن يتم نعت السيارة (الشيء) بصفات المرأة (الإنسان). يا لها من إهانة لا حد لها للمرأة، وبالرغم من كل هذا فإنها لا تثير أية ردة فعل من المتلاعبين المتاجرين بحقوقها. أوجه طلبي إلى المنظمات النسائية اللائي ملأن الحقول الإعلامية صخبا دفاعا عن حقوق المرأة من منظورهن أن لا يقبلن بهذا المسخ الذي يمثل أقصى إهانة لمن يطالبن بحقوقها. فهل من هضم لحقوق المرأة لها أكثر مما هو موثق من خلال هذه الصور، أم أن حقوقها تكمن في حرية فعل ما تشاء بجسدها، حتى وإن وصل الحد بهذه الحرية أن لا يتم التفريق بينها وبين أي شيء يعرض للتسويق.

فحتى في ميدان العمل السياسي، يتم الانتقاص من كرامة المرأة بتخصيص نسبة مئوية معينة للمرأة لإشراكها في تسيير الشأن العام كبرلمانية. ألا يعد هذا دربا آخر من دروب إهانة المرأة واحتقارها؟ تدخل المرأة كالرجل المعترك الانتخابي ببرنامج الحزب الذي تنتمي إليه، علما أن النساء يشكلن أكثر من 50% من نسبة السكان، كما أنهن يشاركن بكثافة عالية في التصويت، فلماذا لا يصوتن على من ستمثلهن للدفاع على حقوقهن المهضومة من طرف الرجل؟ فلو كان هناك فعلا ذلك الصراع المرير بين المرأة والرجل كما يصور الإعلام الحداثي ذلك، لصوتت كل النساء للمرشحات منهن، بحيث يشكلن أوتوماتيكيا الأغلبية تحت قبة البرلمان؛ لكن ما دامت المرأة لا تصوت لها حتى بنات جنسها (عفوا يجب التوقف عند الجندر)، فما الغاية من تخصيصها بنسبة مئوية لإدخالهن إلى البرلمان؟ ألا يمثل هذا المعطى الثمين حجة دامغة على أن الصراع بين الجنسين الذي يتم التسويق إعلاميا والنفخ فيه هو فبركة حداثية لا أقل ولا أكثر؟

الصورة 1: ما العلاقة بين "أساتذة تصنيع الزجاج في خدمة الإضاءة" وجسد المرأة في الصورة. ماذا يمثل الحيز المخصص "للزجاج الرفيع وعناصر الإضاءة" بالنسبة لجسد فتان لامرأة شبه عارية، في وضعية غريبة مهيجة للغريزة الجنسية، مضاءة بكيفية تدفع بالإثارة إلى أقصى حدودها. أترك لمن يشاهد الصورة حرية التعليق على ما يرى.

Des maîtres verriers au service de la lumière.

Le verre fait son apparition à Venise aux environs de l'an mille, 100 ans plus tard, les fourneaux sont déplacés dans l'île voisine de Murano. C'est ainsi que naîssent renommée et savoir faire. Les recettes et secrets que personne au monde n'arrive à égaler se transmettent de génération en génération. Au XVème siècle c'est encore à Murano qu'Angelo Barovier maître verrier invente le cristal, un verre incolore et d'une incroyable limpidité. Les frères Voltolina vénitiens et héritiers de cette ancienne tradition de maître verrier ont développé, au cours des vingt dernières années, une technologie novatrice, adaptant le travail du verre artistique aux éléments d'éclairage, atteignant ainsi le plus haut niveau de qualité du luminaire.

صورة 1

الصورة 2:

على مستوى مقدمة الصورة المعنونة "ثنائي فاتن"، تظهر شابة أنيقة جميلة واقفة، متكئة على سيارة خلفها. السيارة التي يراد التسويق لها من خلال هذه الصورة تبدو مقزمة، متوارية إلى الوراء، بحيث لا يظهر منها إلا الجزء الذي تتقدمه صورة المرأة الشابة الفاتنة. ماذا يعني "ثنائي فاتن"، مع العلم أن الأمر يتعلق ببيع سيارة؛ يعني هذا، بكل بساطة، أن من سيشتري السيارة سيفوز بجميلة فاتنة عند تسلم المفاتيح.

صورة 2

الصورة 3:

صورة معنونة "الألمانية ذات الدم الساخن" تظهر سيارة "سيات ليون" بجانب شابة جميلة في حالة انفعالية مزمجرة، كأنها ترقص رقصة "الفلامانكو" الاسبانية. هل هناك ما هو أكثر اهانة للمرأة، من أن لا يتم التفريق بينها وبين شيء معروض للبيع؟ بل هل هناك ما هو أكثر احتقارا وازدراء لها من أن يتم تشبيه البنزين الذي في محرك السيارة بالدم الذي ينبض به قلب الشابة "الألمانية" (بل نقول امرأة وكفى).

صورة 3

الصورة 4:

لوحة إشهارية للتسجيل بأحد مراكز اللغات والاتصال يتم اختزالها في جسد شابة جملية مثيرة. فمادام الأمر يتعلق بالتكوين والتعلم، ألم يكن منطقيا أن تُظهر اللوحة الإشهارية مدير المركز أو مديرة، أو أحد الأساتذة، وهو يعلن بطريقة لائقة عن افتتاح التسجيل. لماذا هذا الإسرار المريب على اختزال المرأة في أنوثة جسدها الذي يتم عرضه للتسويق لكل شيء؟ فزيادة على الصورة، تزيد الإيحاءات الكلامية (المكتوبة) من تركيز النظر والتفكير على جسد من تم هضم حقوقها إلى حد عدم التمييز بينها وبين الشيء الذي تسوق له. ما علاقة التكوين بمركز لغوي وشابة مثيرة جالسة على قارعة الطريق وهي تقول لمن يهمه الأمر أن التسجيلات مفتوحة؟ فلو كان التكوين بالمركز يتميز بمواصفات الجودة العالية لما سمح القائمون عليه لأنفسهم بنصب شراك أنوثة جسد المرأة لاصطياد الزبناء وجذبهم.

صورة 4

الصورة 5:

في أعلى الصورة نقرأ ما يمكن ترجمته "أفضل ما في المغرب". تظهر هذه الصورة امرأة شابة تلبس ما يسمى بالتكشيطة، تنبثق منها ساقها اليمنى، وهي تخرج (أم تدخل؟) سيارة لا يرى منها إلا الباب.
المغرب ذو الموقع الجغرافي المتميز، وذو التاريخ المجيد، وذو الحضارة العريقة والراقية، والمعروف برجالاته العظام في كل الميادين (العلمية، السياسية، الخ)، يتم اختزاله وتقديمه للآخر في صورة امرأة وتكشيطة، بل في جسد رشيق مثير لأنثى. فكما يقال شرح الواضحات من المفضحات، أترك للقارئ حرية التعليق على ما آلت إليه حقوق المرأة.

صورة 5